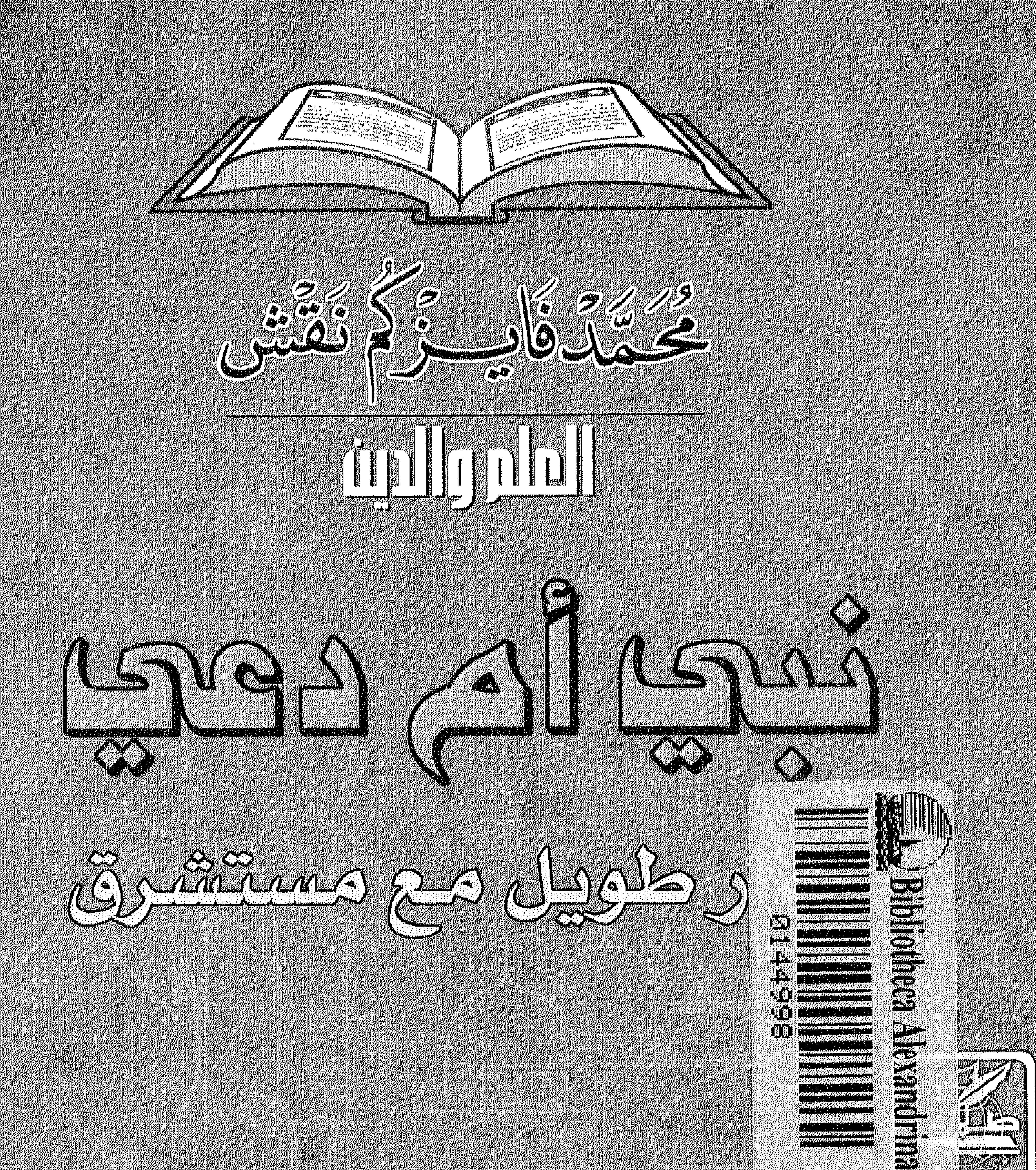
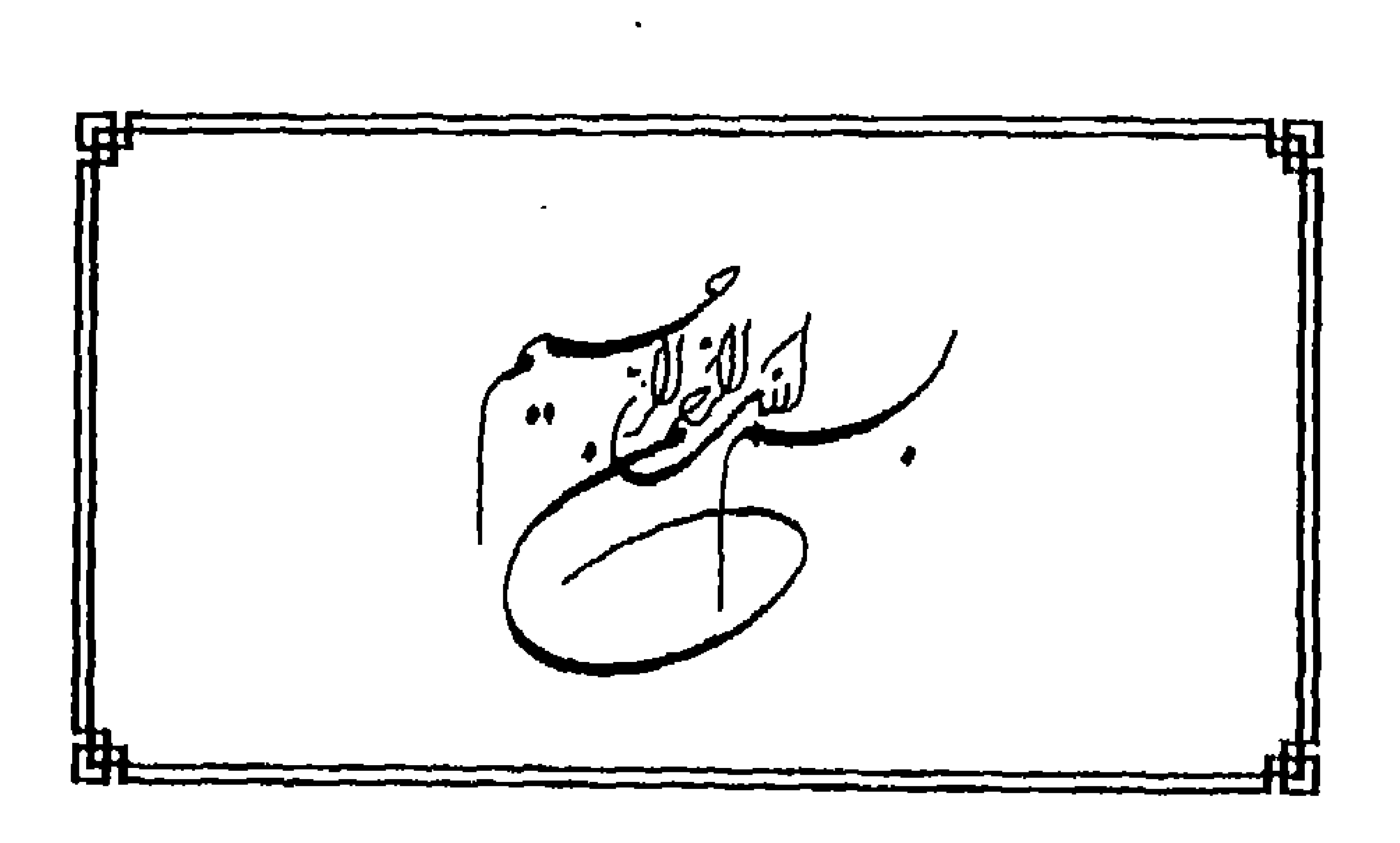


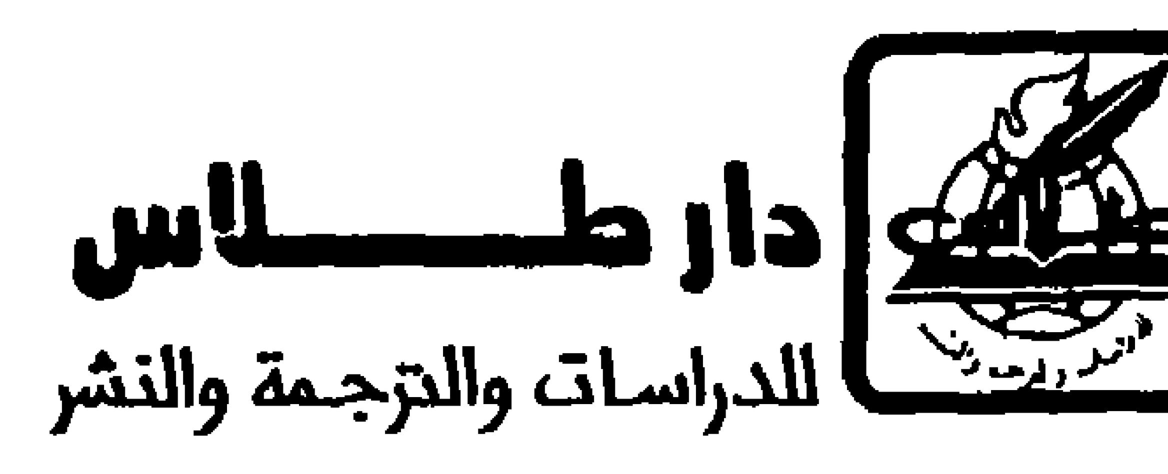
محمد فايز كم نقش

العلم والدين

نبي أم دعي

ر طويل مع مستشرق


بسم الله الرحمن الرحيم



دار طلاس

للدراسات والترجمة والنشر

دمشق - اوتستراد المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥

هاتف : ٦٦١٨٠١٣ - ٦٦١٨٩٦١

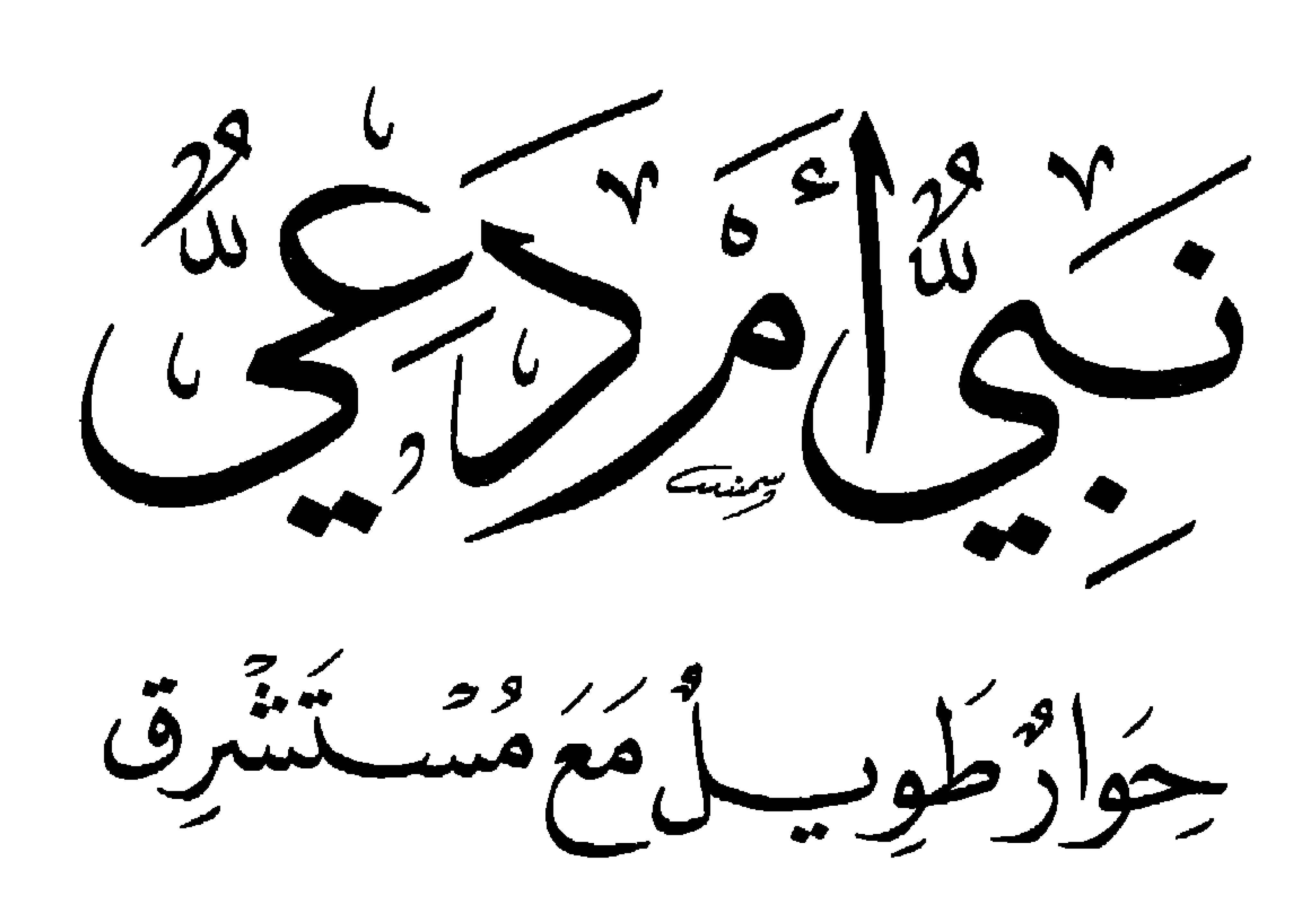
تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ - برقيا : طلاسدار

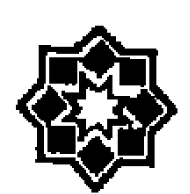
ريع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

مُحَمَّد فَايز كَم نَقش

العلم والدين





نبي أم دعي : حوار طويل مع مستشرق : العلم والدين / محمد فايز كم نقش . ـ دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة ، ٢٠٠٠ . ـ ١٩٩ص ؛ ٢٤سم.

١ ـ ٢١٨,٥ ك م ن ن   ٢ ـ العنوان
٣ ـ كم نقش

مكتبة الأسد

رقم الايداع ٢٤٦/ ٢/ ٢٠٠٠   رقم الاصدار ٨١٦

رقـم: ٤١٦١٥
تاريخ: ١٥ /١٩٩٨/٣

الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٠ م

الفهرس

المقدمة

انتهى عصر التجهيل العثماني الذي دام قروناً طويلة وحل محله الاستعمار الغربي على شكل انتداب قسمت فيه سورية إلى قسمين بين بريطانيا وفرنسا واستقر الاستعمار البريطاني في القسم الجنوبي الذي يضم فلسطين والأردن فأقام أحد أنجال الحسين الأكبر أميراً صورياً على الأردن يقوم المستشارون البريطانيون بتسيير الأمور فيه باسمه وأبقى فلسطين تحت إمرته المباشرة تمهيداً لإقامة الوطن الصهيوني فيها تنفيذاً لوعد بلفور .

أما الجزء الشمالي الذي يضم سورية بحدودها الحالية ولبنان فقد اجتُزىء منه جانب كبير من المنطقة الشمالية أعطي لتركيا تمهيداً لقيام الدولة العلمانية التي بشرت بها حركة كمال أتاتورك بحيث باتت الحدود الرسمية الشمالية تقف عند ما بات يعرف باسم خط قطار الشرق السريع بعد أن كان يمتد حتى الدرب الروماني القديم .

وحاولت بريطانيا كعادتها خداع حليفتها فرنسا بإقامة النجل الثاني للحسين الأكبر ملكاً على سورية لكن الخدعة لم تنطلِ على الفرنسيين فأرسلته إلى العراق ليكون ملكاً صورياً هناك يحكم المستشارون البريطانيون وعملاؤهم البلاد باسمه .

حكم الفرنسيون حصتهم من الأرض السورية بالاستعانة بمخلفات العهد البائد من الأكابر والأعيان الإقطاعيين الذين نالوا مراتبهم لقاء خدمة السلطة الحاكمة حينذاك والذين يضحون بكل شيء في سبيل الاحتفاظ بمراكزهم

والتحكم في رقاب أبناء الشعب ولو كان ذلك على حساب كرامتهم. لكنهم أقاموا كذلك مستشاريهم في كل وزارة ودائرة يصدرون أوامرهم التي لا تنقض باسم المسؤولين الرسميين. لكن الفكر السياسي الفرنسي ما كان يثق بالمتعاونين الوصوليين، لذا خطط لخلق جيل جديد يؤمن بالشخصية الفرنسية ويؤيد التصاقه بها بوحدة فكرية وعلمية لا ترى في الاستقلال مطلباً جوهرياً وغاية أساسية، فكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف هي نشر العلم والمعرفة.

كان الشائع حينذاك أن تعليم الإناث كفر، وتعلم لغة أجنبية كفر، وتجاوز الفقه والشريعة في تعليم الذكور كفر، وليس غريباً أن يسود مثل هذا الاعتقاد العقول في عصر كان الأكابر وحدهم يرسلون أبناءهم إلى «اسطمبول» للحصول على شهادات «عليا» وتعلم لغة أجنبية أو أكثر إضافة إلى اللغة التركية، لغة البلاد الرسمية، إذ أنهم لا يخضعون للقواعد العامة التي تطبق على أبناء الشعب. أما أبناء العامة فإن ملاذهم الوحيد إذا شاؤوا أن يتعلموا القراءة والكتابة ــ فكّ الخط ــ كما كان يقال، كان «الكتّاب» الذي يقيمه في كل حي شيخ يتقاضى أجراً معقولاً لتعليم الصغار في بيته مبادىء القراءة وأصول الدين.

ومن الواضح أن ترويج مثل هذا الاعتقاد باسم «فقهاء» ذلك العهد كان يعمل على شل حركة الفكر بحيث يتحول الإنسان العادي إلى مجرد اتكالي يرى في كل ما هو فيه «قدراً مقدوراً» فرضه الخالق العظيم بحيث لا يجوز للمؤمن الاعتراض عليه. ومازلنا حتى اليوم نرى من يعلن أن الفكر والكفر صنوان أحرفهما واحدة تختلف في الترتيب، أي أنه لا يجوز للمؤمن أن يُعمل فكره في شيء.

افتتح الفرنسيون المدارس الابتدائية في كل المدن السورية وأجازوا لمن شاء أن يلحق أبناءه بها مجاناً دون تحديد السن. وكانت الدراسة فيها تبدأ مما كان يسمى «الشعبة الأولى والثانية» التي تهيىء الطفل أو التلميذ لدخول الصف الأول الذي يتدرج منه حتى يبلغ الصف الخامس فيقدّم إلى الامتحان الرسمي التحريري والشفهي لينال بعد نجاحه فيه الشهادة الابتدائية. ومن الطبيعي أن تكون

الشعبتان الأولى والثانية حينذاك مرحلة تمهيدية يمر فيها الذين لا يعرفون الفرق بين « الألف والمادنة » كما كان يقال لتعريف الذين لا يعرفون شيئاً عن الأحرف الهجائية .

وكان الأساتـذة في تلك المدارس يستحقـون كل الاحترام والتقديـر لإخلاصهم في رعاية تلاميذهم بعيداً عن كل تلاعب وتمييز . وكان التلميذ يتعلم كتابة الأحرف الفرنسية من الصف الأول ويتطور حتى الصف الخامس . أما اللغة العربية فكانت تعنى برعاية خاصة بحيث كان التلميذ المتفوق يحسن إعراب الجمل وبعض الآيات القرآنية وهو في الصف الثالث الابتدائي .

ولم تقتصر عنايـة الفـرنسيين على افتتـاح المدارس الابتدائيـة فالثانويـة « التجهيز » والجامعة في دمشق بل افتتحت مدارس خاصة يديرها رهبان وراهبات وقساوسة إضافة إلى البعثات المتخصصة « العلمانية » . وكان التسلسل في صفوفها يبدأ من الصف الثاني عشر وينتهي بالأول ، يمر التلاميذ خلالها بامتحان لنيل الابتدائية بعد إنهائهم الصف السادس ثم الكفاءتين في الصف الثالث فالبكلوريا « الفلسفة أو الرياضيات » في نهاية الصف الأول . ولم يتوقف قبول التلاميذ في هذه المدارس على طبقة معينة من الشعب بل كان كل قادر على دفع الأقساط المدرسية المقررة قادراً على إلحاق أولاده فيها . وهكذا نشأت طبقة اجتماعية جديدة تجمع بين أولاد الأكابر وأبناء المواطنين الطامحين إلى بلوغ مراتب كانت قاصرة على طبقة خاصة من المتميزين . ومن الطبيعي أن الدراسة في تلك المدارس كانت باللغة الفرنسية التي تعلم التلميذ تاريخ فرنسا وحضارتها وتطورها دون أي إشارة إلى الوطن السوري .

لكن هذه الخطا التي خطاها الانتداب الفرنسي لم تقض على الأفكار « الدينية » المزعومة التي كانت رائجة طيلة قرون قبل الانتداب لذا انقسم المجتمع إلى مؤيد للفكر القديم ومعارض له ، الأمر الذي أدى إلى خلق مجموعات تؤمن بأقوال « شيخها » وأخرى ترى في العلم سبيلاً للتطور المفيد . فالنظام القديم كان يوظّف من يحسن القراءة والكتابة في مختلف الدرجات التي لا تتجاوز مستوى

« الكبار » . لكن الشهادة الابتدائية ما لبثت أن أصبحت الطريق الممهد إلى التنعم بخدمة الدولة والحصول على دخل ثابت إضافة إلى التمتع باحترام أبناء الحي الذي يقيم فيه صاحبها . وظلت هذه الكفاءة ترتقي خلال عقدين من الزمن حتى انحصر التوظيف السامي في حملة « البكلوريا » والشهادات الجامعية .

هذه بإيجاز هي الصورة التي كان عليها المجتمع عندما أفل نجم الإمبراطورية العثمانية وحل محلها الاستعمار بعقليته التي فشلت الحروب الصليبية في تطبيقها قبل قرون والتي جاء الجنرال « غورو » القائد الأعلى للجيش الفرنسي يؤكد العودة إليها بذهابه إلى مثوى صلاح الدين الأيوبي وركله قبره كما أشيع حينئذاك وقوله : ها قد عدنا يا صلاح الدين : «Saladin, Nous Y Sommes».

بداية البداية

كنت طفلاً في مطلع الرابعة من عمري حين عهد بي والدي إلى الشيخ صادق ليعلمني في « كتّابه » قراءة القرآن وكتابة الأحرف الأبجدية . استثناني الشيخ من عقوبة « الفلقة » ــ الضرب على القدمين ــ إذا أخطأت في حفظ كلمة أو كتابة حرف لأن أبي كان يمثل الأمن في المدينة ، واتبع معي أسلوباً خاصاً نادر التطبيق وهو إغرائي بقطعة من السكاكر « الملضمينة » كلما حفظت ما أرادني أن أحفظه أو كتبت الحرف الذي أرادني أن أكتبه ، فاستجبت بشدة لهذا الإغراء حتى أنني لم أُنْهِ الرابعة من عمري حتى بتّ أقرأ سورة « يس » دون خطأ .

أقيم لي في البيت حفل أصغى فيه الحاضرون إلى قراءتي لسورة « يس » وأنا أتأرجح وأتمايل كما كانت العادة المتبعة في قراءة الكتاب الكريم حينذاك . وبديهي أنني ما كنت أفهم أي معنى لما كنت أقرأ . وبعد ذلك نقلني أبي إلى مدرسة ابتدائية قُبلت فيها في الصف الأول مباشرة متجاوزاً الشعبتين لأنني كتبت كلمة « مدرسة » بشكل صحيح بالكتابة الكوفية . ولمعت في اللغة الفرنسية بعد أن تعرضت لكثير من الخيبة في رسم البيضة التي تصبح حرف الألف باللغة الفرنسية بعد أن يُضاف إلى طرفيها العلوي والسفلي خط على شيء من الانحناء يجعلها على الصورة المقبولة «a» . وفي العاشرة من عمري حصلت على الشهادة الابتدائية فنقلني أبي إلى مدرسة الإخوان المريميين حيث قُبلت في الصف الثامن الفرنسي والسادس العربي . وكان تعليم اللغة العربية في تلك المدرسة قاصراً على حصتين بعد ظهر كل يوم بينما تدرس المواد الأخرى كافة باللغة الفرنسية . ويبدأ الدوام في تلك المدرسة في السادسة والنصف صباحاً حيث يدخل المبكرون من الطلبة إلى قاعة فسيحة للمطالعة ينتقلون منها إلى صفوفهم الرسمية في الثامنة ليعودوا إليها بعد ذلك في الرابعة والنصف ليكتبوا وظائفهم ويذاكروا ما تلقوه من دروس حتى السادسة والنصف وهو التوقيت الذي يعودون فيه إلى بيوتهم .

لبثت أتقدم في الدراسة حتى تجاوزت الكفاءتين إلى الصفوف العليا التي تعد الطالب لنيل « البكلوريا » فلسفة . وذات يوم أثير في حصة اللغة العربية موضوع عارض أدلى المدرس

رأيه فيه بشكل يخالف النص الصريح لآية قرآنية كنت أحفظها عن ظهر قلب فاعترضت بسذاجة على ما قاله المدرس مستشهداً بها ، فشعر المدرس بالحرج خصوصاً وأن الموضوع لم يكن في نطاق البرامج المقررة ، وأراد حسم الموقف فقال بحزم :
ــ سأرى هذه الآية فيما بعد .

ظنَّ المدرس أن الأمر قد انتهى عند ذلك الحد . لكنني ما إن عدت إلى البيت حتى أخذت أبحث عن تلك الآية الكريمة في كتابي المقدس . ولما وجدتها ، وضعت سهماً من الورق الملون بين الصفحتين لأستدل عليها ورحت أعد الدقائق بانتظار الغد .

ولسذاجتي البالغة ، خيل إليّ أن المدرس ما إن يقرأ تلك الآية حتى يخر ساجداً ويعلن إسلامه مستغفراً عن ضلاله السابق فيكافئني الله بقصر في الجنة لأنني هديت واحداً من الكافرين .

ولك أن تتصور يا عزيزي القارىء حالتي النفسية في الصباح بعد أن صعدت السلم إلى مكتب المدرّس وطرقت بابه حاملاً قرآني بيدي اليمنى كما تقضي عادة حمله ، وذهول المدرّس لما رآني أمامه معتزاً أقدم له دليل خطئه . تجلد وأخذ القرآن وفتحته حيث كان سهم الورق وقرأ ما قرأ ثم ألقى به على مكتبه شأن ما يفعل القارىء إذا فرغ من قراءة كتاب ممل .

تحولت فجأة إلى إنسان فاقد النطق والحركة . امتلأت عيناي بالدموع وهزت الرعشة كياني فرحت أغمغم بكلمات تقطعها الحشرجة دون أن أعي ما أقول . لقد أهان المدرّس كتابي الكريم بفعلته تلك فهوى بي من قمة الاستبشار والفرح إلى أعمق دركات الخيبة والاحتقار .

وشعر المدرّس بما أصابني فأخذ القرآن بيده وخرج من وراء مكتبه ليطوق كاهلي بذراعه الأخرى ويقول :
ــ إياك أن تظن أنني أهين كتابك المقدس أو أستخف به ، لكني أنصحك إذا ما شئت مناقشة إنسان في أمر ما تختلف معه فيه أن تستشهد بوقائع علمية معروفة يقرها الجميع لا بالمرجع الذي تؤمن به وحدك . تُرى لو جئتك بآيات من كتابي المقدس تنقض ما جئتني به ، أكنت تؤمن بما جئتك به ، وتغير عقيدتك التي نشأت عليها ؟

يومها خرجت من مكتب المدرس متعثراً لا أستطيع الاعتدال في مشيتي متمنياً أن تنشق الأرض وتبتلعني جزاءً وفاقاً على عجزي وتفاهتي . جلست على درجة السلم الأخيرة أحاول استعادة حواسي المضطربة . وبعد فترة طويلة من الضياع عدت إلى الاستقرار فوجدت

أن المدرس لم يكن مخطئاً فيما قال . فالقرآن الذي أومن به هو الكتاب الذي أنشئت على احترامه وتقديسه . وللمدرس كتاب يقدسه هو الآخر ويؤمن بما جاء فيه . أكان يصر على رأيه الذي انتقدته لو جاء مناقضاً لحقيقة علمية أكدتها التجارب واستوعبتها العقول ؟

تلك كانت بداية البداية . عدت إلى كتابي من هذا المنطلق الجديد أقرأه دون تأرجح ، أبحث فيه عن المدلولات وأتعمق في معانيها ومراميها بحياد وتجرد باحثاً عن كل ما جاء فيه مما يتفق مع قانون الحياة والوجود . وكم توقفت أمام آيات اختلفت فيها الصيغ أعيد قراءتها مرات ومرات لأجد الصلة المنطقية والمعنى السليم الذي يربط أجزاءها بمفهوم بيّن . وكلما ازددت استيعاباً وفهماً لما أقرأ ، ازدادت قناعتي بأن ديننا يصلح لكل زمان ومكان .

لم أجد صعوبة تُذكر في التعمق في الفهم ، فأنا « خريج » مدرسة ابتدائية تركز عنايتها على اللغة العربية التي كنت متفوقاً فيها ومتقدماً على زملائي كلهم في المدرسة الجديدة التي انتقلت إليها .

كررت القراءة مرات ومرات وفي كل مرة كنت أزداد فهماً وأخرج بنتائج بينة وواضحة لكثير من التساؤلات التي تثيرها مسيرة حياتنا اليومية . لكن حصيلة السنوات التي أمضيتها في هذه الدراسة ظلت شخصية لم أشرك بها أحداً لذا وجب عليّ أن أضعها موضع الاختبار لأتبين مدى ما فيها من إيجابية . والمخبر الوحيد الذي يمكن تحليل هذه النتائج فيه يملكه المتحدثون باسم الدين .

ومن الطبيعي أن ما غرس في العقول طيلة قرون لا يمكن محوه أو تعديله خلال عقدين من الزمن ، كما لا يمكن إضافة سعة له تتيح له إعمال المنطق مع العقل في المفاهيم التي توارثتها الأجيال دون تحليل . والجيل الجديد الذي كنت واحداً من أبنائه أدخل في دائرة فهم جديدة بات من الصعب معها التوفيق بين القديم والحديث إذا تمسك كل جانب بما يؤمن برجاحته وصحته دون مناقشة وتحليل . والمفهوم السليم لا يُدحض بالتزمت والتعصب ما دام قائماً على أسس راسخة لا مجال للتلاعب في مدلولاتها . والاختلاف في التأويل لا ضير فيه إذا لم يتنافَ مع تطور الفكر وتطابق الأسس مع الواقع . هذا ما بنيت عليه دراستي الطويلة لدستورنا العظيم . وقناعتي بصحة هذا المنطلق دفعتني إلى اختبار ما وعيته مع فقيه مرموق .

جاءت تجربتي الأولى مع معمم فاضل يلتف حوله عدد من المريدين الذين يحضرون بانتظام جلسات أسبوعية في قاعة مقامة في مدخل داره الواسعة يطلق عليها اسم « الحضرة » . وكانت المساكن حينذاك تبنى على رقعة من الأرض وفقاً لقدرة المالك المالية ، تبدأ بغرفة أو قاعة

بعد المدخل الرئيسي مباشرة يستقبل فيها الضيوف من غير الأقرباء، يليها باب يفصل بينها وبين أجزاء البيت الأخرى المقامة حول فناء مكشوف بحيث يتحرك أفراد الأسرة من نساء وأطفال بحرية دون أن يراهم الزائرون.

دخلت تلك «الحضرة» متطفلاً مساء يوم خميس فلم أجد لنفسي مكاناً إلا عند «العتبة» التي يخلع فيها الجالسون نعالهم وأحذيتهم فراحت عيون المريدين تلتهمني بنظرات التساؤل الحذرة وهم في مجلس التقابل على جانبي القاعة بينما كان صدرها يحفل بالفراش والوسائد المخصصة لفضيلة الشيخ وحده. رحت أردُّ باقتضاب على الأسئلة من بعض الجالسين حتى علا صوت جرس خافت عند باب القاعة فغمغم الجالسون: جاء الشيخ، جاء الشيخ، واتخذوا في جلستهم وضع المصلين قبل السجود.

ودخل الشيخ بطوله الفارع وثوبه الثمين الأنيق فتهافت المريدون كلٌّ يحاول لمس طرف الثوب وتقبيله. وبلغ فضيلته المكان المخصص له فجلس وقلب راحتيه فحذوا حذوه وراح بعد البسملة يتلو دعاء ويجيبه الحاضرون بكلمة «آمين» حتى انتهى فأعاد راحتيه إلى وضعهما الطبيعي ومسح وجهه ففعلوا مثله. وبعد أن انتهى من قراءة الفاتحة أجال بصره في أرجاء القاعة وقال بالعربية الفصحى:

ـ أرى بينكم غريباً.

قلت:

ـ أنا ياصاحب النيافة خريج مدرسة أجنبية خشيت أن يتزعزع إيماني بما تعلمته فجئت إليك لأبدد ما علق في نفسي من الشوائب بسؤالك عما لا أجد له رداً مقنعاً في حدود معرفتي وليس هناك أفضل من فضيلتك ملاذاً لمثلي.

استغفر الرجل الفاضل الله العظيم ولعن المدارس والتعليم الذي يبعد الإنسان عن الدين ثم سألني عما أريد. قلت:

ـ أنا حائر يا سيدي أمام مشيئة الله سبحانه. وسؤالي هو: هل يتصرف الإنسان على هواه أم أن هناك من يحدد له مسالكه؟ أعني هل الإنسان حر في تصرفاته؟

عاد فضيلته يستغفر الله ويلعن العلم والمدارس التي تملأ النفوس بالضلال ثم راح يتلو الآيات التي أعرفها والتي يؤكد ظاهر معناها أن الخالق العظيم يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنهى قوله بحديث عن النبي الكريم يقول فيه: إن الشقي شقي قبل أن يولد والتقي تقي، وما كنت أعرف ما إذا كان من أنصار مذهب الجبرية. قلت:

ــ أعتذر لفضيلتك عن ضعفي في التعبير عما أريد قوله وأرجو أن تسمح لي بإيراد فكرتي على شكل واقعي . هب أن فضيلتك وجدتني أتضور جوعاً وأنا قابع على رصيف الشارع أتسول بثيابي الرثة فأشفقت عليّ وجئت بي إلى بيتك العامر تغدق عليّ من نعمك وتعدني ببقائي في سعادتي الجديدة شريطة أن لا أخالف لك أمراً . وذات يوم أمرتني أن آتيك بكأس ماء فامتثلت ، وبعد أن شربت هنيئاً مريئاً استدرت لأعود بالكأس فاستوقفتني وأمرتني أن أضرب بها الأرض ففعلت وتحطمت الكأس فإذا بك تمسك أذني زاجراً وتقول : لمَ حطمت الكأس أيها الغبي ؟ ستعود إلى حيث كنت مذموماً مدحوراً .

أدرك فضيلته ما عنيت فقاطعني غاضباً وهو يقول :

ــ لا فائدة ... الزندقة متأصلة في نفسك أيها الكافر ... اخرج قبل أن أُحلّ دمك !

وصاح بمريديه يأمرهم بطردي . ولو لم أكن على حافة العتبة قرب الباب والمدخل الرئيسي للبيت لمتُّ من الضرب والركل . لكنني فررت تتبعني اللعنات والأحذية حتى الشارع العام .

تلك كانت عقلية بقايا قرون التجهيل مع أن الله سبحانه أتاح لعقل الإنسان أن يحسن التحليل ليدرك المدلول العلمي في آياته الكريمة وتعاليمه .

وتجربة أخرى أشد غرابة وقعت بشكل عفوي في مجلس سمعت فيه أن عدداً من الشبان يؤلهون شيخهم حتى أن أحدهم رآه في المنام جالساً إلى جانب الخالق العظيم يفتي نيابة عنه ، فروى تلك الرؤيا لشيخه الفاضل فربت على كتفه وقال له :

ــ بارك الله فيك يا ولدي ، استمر ، استمر !

كان ناقل هذه الواقعة في ذلك المجلس واحداً من أنصار ذلك الشيخ الفاضل ومريديه . لم أستطع مقاومة ما اعتراني من إثارة فتبادلت معه حديثاً طويلاً أتحت له فيه أن يستخلص ما يراه صحيحاً ومنطقياً استناداً إلى ما أدليت به من مقومات ، الأمر الذي جعله يحسّ لأول مرة بأنه « شيء » له حق الحكم والاعتراض والتحليل فراح يزورني بين الحين والحين مفاضلاً بين موقفه معي وواقعه مع شيخه الجليل وانتهى الأمر بدعوتي لمرافقته لزيارة صاحب تلك الرؤيا العجيبة .

استقبلنا الشاب استقبالاً « إسلامياً » . ولما استقر بنا المقام حدثته بما سمعت بلهجة لا تخلو من النقد لموقف شيخه فهب صارخاً مستنكراً محلاً دمي ودم كل من يمس مقام شيخه الجليل بكلمة وهو الذي يتفانى في سبيل إعلاء كلمة الله .

هدّأت الشاب وطيبت خاطره ووعدته بأن أرافقه إلى شيخه الفاضل لأقبّل حذاءه مستغفراً مقراً بألوهية مقامه إذا لم يقنع بما أقول. واستمرت الجلسة حتى أذان الفجر كان خلالها يهبط من التعنت والتعصب المطلق إلى مجال إعمال الفكر وانتهى الأمر بأن أعلن بصوت متهدج أنه يعطي شيخه كل شهر نصف دخله المحدود ويعيش مع أسرته بالنصف الباقي عيشة كفاف إسهاماً في إرضاء الله العزيز القدير وطمعاً بجناته.

هذا غيض من فيض مما لاقيته طيلة أعوام من محاولتي الجمع بين العلم والدين في دائرة العقل مما يؤكد أن الدين سلاح يمكن استغلاله على درجات تختلف باختلاف الجهات المستغلة والبؤر التي يُعدّ فيها ذلك النمط من الاستغلال.

الديـن أفيـون الشعـوب

عبارة شاعت في العقود الأولى من هذا القرن أُخذت على ظاهر معناها، فهاج المتدينون مستنكرين وجندوا المؤمنين لتكفير من يرددها رغم أنها عبارة صحيحة وصادقة ليس فيها أي مساس بالدين نفسه بل بأولئك الذين يسخرونه لخدمة مصالحهم وتحقيق أغراضهم ومصالحهم الخاصة.

ومصدر هذه العبارة العالم الغربي الذي جمع السلوك المريب لرجال الدين بدءاً من التنظيمات اليسوعية في غرب أوربا وحتى مذبحة البروتستانت في باريز التي سجل التاريخ وقائعها باسم مذبحة «سان بارتيلمي» في مطلع القرن السابع عشر والفضائح الراسبوتينية في روسيا القيصرية في مطلع القرن العشرين. فلم يجد تعبيراً أفضل وأدق للتعريف بسوء استعمال الدين من هذه العبارة.

وإنني لأذكر على سبيل المثال ما تعلمناه في مدارسنا الابتدائية على أيدي أساتذة الدين الأفاضل الذين عرَّفونا ببنية ديننا بقول مأثور حفظناه وآمنا بصحته وهو: بُني الإسلام على خمس: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر». أي أن على المسلم الحقيقي أن يؤمن بهذه المقومات الأساسية قبل أن يدخل في التفاصيل. لكننا فوجئنا بعد عقد من الزمن بإضافة ما استعمله الأمويون والعباسيون من قبل لتوطيد دعائم ملكهم: «وبقدره خيره وشره من الله تعالى». ولك أن تتبين خطورة هذه الإضافة التي راح الناس يرددونها دون تحليل أو فهم. فالخير ليس وحده من عند الله بل الشر أيضاً. وراجت هذه الإضافة رغم أن كتابنا الكريم ينفي الشر عن الخالق العظيم ويعزوه إلى الإنسان في آيات صريحة تؤكد أنه ما من خير إلا من عند الله وما من شرّ إلا من أنفسنا. ولو شاء بعضهم أن يأخذ الآيات ذات المعنى الذي يربط الحركة الحياتية بمشيئة الخالق فإن سوء فهم أبعاد المشيئة الإلهية والإرادة هو الدافع الوحيد لمثل هذا التقدير.

والسر في إحياء هذه العبارة الإضافية يكمن في رغبة المستعمر الذي خلف العثمانيين في بلاد المسلمين في إضفاء صفة إلهية على وجوده بحيث يصبح العاملون على طرده مخالفين لمشيئة الخالق الذي شاء وجوده فيها . بذلك يصبح وجوده قدراً مقدوراً من الخالق العظيم الذي لا مرد لحكمه فيضمن استقراره ويعمق جذوره دون مقاومة .

وشاعت هذه الذريعة في أوساط المجرمين فبات انتهاك الأعراض وقتل الأنفس وسرقة أموال الناس قدراً فُرض على الفاعلين . وردد المسلمون الآية الكريمة القائلة : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ٥ التوبة دون إحاطة بأسباب نزولها والظرف الذي أوجب ذلك التأكيد فباتت المبرر لكل ما يفعله الإنسان وما يلقاه حتى أن الفرنسيين إذا شاء أحدهم أن يسخر من مواطن ما ، مسح جبينه بأصابع يده ساخراً وقال بنطقه الركيك « ما كتوب » .

والتاريخ يؤكد لنا أن الشرفاء من المؤمنين حوربوا بضراوة ، حتى الأئمة أنفسهم لم يخلصوا من المهانة والتعذيب ، وما لقيه أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله ﷺ الذي مات في الصحراء ولم تجد زوجته ما تلفُّ جثمانه فيه لتواريه التراب ، صورة أليمة للامتهان الذي كان يلحق بكل من لا يسخّر الدين لخدمة المهيمن وتحقيق أغراضه . وأبو ذر هذا هو صاحب القول المأثور : «أخذت عن رسول الله ملء جرابين من العلم أفرغت لكم أحدهما ولو أفرغت لكم الآخر لقطعتم مني الوتين » . ألا يعني هذا القول أن ما كان في الجراب الآخر من العلم كان سيستعصي على أهل ذلك العصر فهمه لأنه فوق مستواهم الفكري ، وأن سوء فهمهم له سيجعلهم يعتبرونه مارقاً يستحق الموت ؟ إن الدين سلاح مدمر إذا استخدم بما لم يرد الله سبحانه أن يكون المؤمنون عليه في إقامة مجتمعهم الفاضل .

لعلك ترى فيما أقوله مبالغة . ليكن . أعرني انتباهك واقرأ الوقائع التالية واحكم بعد ذلك بما تراه .

سمعت فقيهاً بارزاً يقول في مجلس عام : إن أجساد الأنبياء لا تتفسخ في القبور ، وإن الله سبحانه قد أقام على قبر النبي المصطفى مَلَكاً كلما صلى عليه مسلم قال له : صلى عليك فلان ابن فلان . وسمعت فقيهاً آخر يؤكد أن النبي الكريم حينما بلغ المسجد الأقصى في إسرائه ، حشر له الله الأنبياء والرسل كلهم ليصلي فيهم إماماً قبل عروجه إلى السماء .

أنكون كفرة ومن حثالة الزناديق إذا لم نأخذ بهذه الأقوال ؟ إن كتابنا الكريم يؤكد لنا في آيات كثيرة أن النبي بشر مثلنا يولد ويشب ويتزوج ويتغذى ويتصرف كأي إنسان ولم نقرأ فيه تصريحاً أو تلميحاً عن بقاء جثث الأنبياء دون تحلل بعد أن ووريت التراب . وإذا كان

الملك مخلوقاً يمتاز بصفات خارقة زوده الله بها يستطيع أن يلمّ بما يدور في دائرة اختصاصه من أمور بشكل تعجز عن مضاهاته ذاكرة جهاز الحاسوب الذي يمد السائل بملايين المعلومات المختزنة خلال ثوانٍ معدودات، فهل يستطيع الإنسان، أياً كان، أن يستوعب تلك المعلومات بمثل هذه السرعة؟ فالمسلمون في عالم اليوم أكثر من ألف مليون إنسان، وإذا كان عُشر معشار هذا العدد يصلي على النبي المصطفى في صلواته وحديثه، فهل تستوعب عقلية النبي الإنسان أسماء أولئك المصلين وألقابهم خلال الوقت الذي تستغرقه كل صلاة؟ وإذا كان نبينا الكريم حياً في قبره فلمَ لا نتوسل إلى الخالق العظيم أن يعيده إلينا ونحن في مسيس الحاجة إلى وجوده بيننا بعد أن بلغ انحطاطنا الاجتماعي هذا الدرك المخجل المشين؟ والصلاة فيما نعلم لم تكن معروفة أو مفروضة قبل الإسراء على شكلها الذي نقله إلينا السلف الصالح. أليس في هذا القول ما يجعلنا نفكر في مرمى هذا الإعجاز؟

أقوال يرددها بعض «الفقهاء» ظناً منهم أنها ترفع شأن النبي وقيمته إلى ذروة التفوق والكمال متناسين أن الدين الذي أوحى الله به إليه يكفي وحده ليجعله على قمة الوجود التي لم يبلغها إنسان بعده. إن دستورنا العظيم وحده يتحدى كل عقل.وفكر أن يدحض بدليل قولاً واحداً مما جاء فيه. والدرع الوحيد الذي يحتمي به أمثال أولئك المؤمنين إذا ما خانتهم الحجة وأعيتهم الحيلة هو مشيئة الخالق العظيم وقدرته التي لا تحد والتي توجب على المؤمن الخضوع لها دون مساءلة.

و«فقهاء» يقولون: إن الله أخذ قبضة من نور محمد وقال لها كوني السماوات والأرض فكانت، وآخرون يلطفون هذه المبالغة بقولهم: إن الله أخذ قبضة من نوره وقال لها كوني محمداً فكانت. فهل تتفق هذه الأقوال مع أي نص من آيات قرآننا الكريم؟ سؤال لا بد من طرحه بانتظار الرد.

وإذا انتقلنا إلى الجانب الفكاهي من أقوال ذلك النمط من سلالة عصر التجهيل نسمع القصة التالية يرويها أحدهم بجدية شأن من عاش أحداثها. يقول لا فُضَّ فوه: كان جبريل في جلسة مع النبي فقال له: أرني يا جبريل كيف خلقك الله؟ فرد جبريل قائلاً: لن تستطيع احتمال ما ستراه. وإذا بصوت من الأعالي يقول: لا تغضب حبيبي محمداً! «وهذا دليل على أن الله كان يصغي لما كان يدور بينهما من حديث». عندئذ، انتفض جبريل امتثالاً لأمر الخالق العظيم وظهر على صورته الحقيقية فإذا به يغطي السماوات والأرض بجناحيه.. وصدق جبريل فيما توقعه إذ أغمي على النبي. ولما استفاق، قال والله يا جبريل ما أظن أن الله خلق أكبر منك خلقاً. فرد جبريل قائلاً: إن لأخي إسرافيل ألف جناح كل

جناح منها أكبر من جناحيَّ هذين بألف مرة ! ويختم المتحدث روايته قائلاً : إن بين جفني عين جبريل مسيرة ألف عام وفي قول آخر خمسمائة عام .

وذلك الذي رافق النبي في عروجه إلى السماء كما كنا نقرأ في كتاب كان يسمى « المعراج » يقول : خرج جبريل والنبي كل على براقه « المطية التي نقلت النبي إلى القدس ثم إلى السماء وهي شبيهة بحصان آلهة الإغريق « بيجاز Pigaze » باستثناء الرأس » وصعدا إلى السماء الأولى فقرع جبريل الباب ! فعلا صوت من الداخل يقول : من الطارق ؟ فيرد جبريل قائلاً : أنا جبريل . ويقول الصوت : ومن معك ؟ فيرد جبريل : معي الحبيب محمد . فيفتح الباب ويُستقبل النبي بعبارة : أهلاً وسهلاً بالحبيب محمد .

راح النبي يتجول في أنحاء كل سماء يصعد إليها ويرى الصور المروعة لعذاب الجحيم الذي فرضه الله على الكافرين ، فهذه امرأة معلقة من ثدييها ولهب النار يحيط بها وهذا رجل تدخل النار من دبره وتخرج من رأسه وفمه ، وعشرات من المناظر المروعة المخيفة التي شاهدها وكلها عقوبات لا يحدها الوصف ، حتى بلغ السماء السابعة .

ولنا أن نتساءل هل نقل ذلك الراوي تلك المشاهد للكاتب الإيطالي « دانتي اليجيري » ليوردها في كتابه « الجحيم » أم العكس هو الصحيح ؟ لن نتوقف عند هذا السؤال بل سننتقل إلى ثالثة الأثافي كما يقولون .

يقول الراوي : في السماء السابعة مثُل النبي أمام الخالق العظيم فأمره بإقامة خمسين صلاة كل يوم ففرح النبي بما منّ عليه الله وخرج مسروراً بالفضل الذي حباه الله به ، فلقيه النبي موسى وسأله عما تم في اللقاء . ولما بلّغه النبي بالصلوات الخمسين اليومية ذُهل موسى وقال : إن أمتي لا تقيم صلاتين كل يوم بانتظام . عد إلى الله وتوسل إليه أن يخفف هذا العبء عن المؤمنين فعاد النبي إلى حضرة الله فخفض له العدد خمس صلوات . لكن موسى أعاده مرة أخرى وفي كل مرة كان الله سبحانه يخفض خمس صلوات من العدد المقرر حتى استقر على العدد المعمول به اليوم بعد أن أكد له الله أنه لن يخفض من هذا العدد شيئاً . وهكذا عاد النبي إلى الأرض بخمس صلوات مفروضة !

ألا يجب بعد كل هذا أن نوجه الشكر العميق لموسى النبي في كل صلواتنا الذي لولا إصراره على تشجيع نبينا على مساومة الخالق ــ وهي خاصة يهودية معروفة ــ لما وجد المؤمنون وقتاً في يومهم لمزاولة أي عمل أو لتناول طعامهم وإراحة أجسامهم إذ لو استغرق أداء كل صلاة خمس دقائق فقط لوجب على المسلم أن يؤدي صلاتين على الأقل في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ويومنا على الأرض أربع وعشرون ساعة .

لقد أغفل الخالق العظيم هذه الحقيقة وهو الذي خلق الأكوان كلها وأقام فيها النظم التي تقوم عليها . لكن موسى انتبه مشكوراً لهذه الحقيقة فأنقذنا من هذا « البلاء » العظيم . أليس عقوقاً منا أن نغفل شكره في كل حين ؟ ولولا المصادفة التي جعلته يلتقي بنبينا عند خروجه من لقائه بالخالق لكان حالنا أسوأ كثيراً مما هو عليه الآن .

لكن راوي هذه الواقعة الجليلة لم يذكر لنا شيئاً في قصته عن جنات عدن التي يبدو أن نبينا لم يجد الوقت الكافي لزيارتها والتنعم بما فيها من مشاهد تتوق النفوس إلى الإحاطة بها .

هذا قليل من كثير مما كان سائداً في مجتمعنا من أساطير كانت تعتبر ركناً من أركان الدين . لكن هذا لا يعني أننا شذبنا ديننا اليوم من مثل هذه الأقاويل . فهناك متحدث مرموق يقول : إن الأرض كان يسكنها الجان ففسقوا فيها وأراقوا الدماء فأرسل الله ملائكته لحربهم فحاربوهم ودمروهم وألجأوهم إلى رؤوس الجبال وقعور الوديان ثم عادوا إلى السماء وعندئذ خلق الله الإنسان ليكون خليفته على الأرض .

كل هذا القول البليغ يرويه ذلك المتحدث تفسيراً للآية الثلاثين من سورة « البقرة » ونصها : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ . وفات صاحبَ هذا التفسير أن يضيف مؤكداً أن الملائكة أقاموا سدوداً لا يمكن تخطيها حول الأمكنة التي فرّ الجان إليها لكي لا يعودوا ثانية إلى حيث كانوا على الأرض وهم الذين يرون الإنسان ولا يراهم . ويتناسى كذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى إرسال ملائكة لمحاربة بعض ما خلق وهو الذي أكد في سورة « يس » أنه لا يحتاج إلى مثل هذا التصرف ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ ٢٨ ، ٢٩ . أيرسل الملائكة لحرب الفاسقين وهو الذي ﴿إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ ٨٢ يس ؟

هل أدركت الآن مدى الصحة في عبارة « الدين أفيون الشعوب » ؟ ألست معي بأن علينا أن نجتث الطفيليات القميئة التي تكاد تغطي تلك الزهرة النادرة التي جاءت بواسطة ذلك المختار لتكون متعة الحياة وزينة الوجود ؟ أترانا ملزمين بأن نصدق أن الملائكة دخلوا على أم نبينا يوم ولادته فأخذوه منها وفتحوا صدره وطرحوا ما فيه واستبدلوه بالأجزاء المختارة وأعادوه إلى أمه بدلالة قوله سبحانه : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ١ الانشراح مع أن هذه الكلمة جاءت في أربع آيات أخرى دون أن تكون لها أي دلالة على استبدال أعضاء الصدر ؟ فموسى

النبي سأل ربه قائلاً : ﴿ رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ﴾ ٢٥ ، ٢٦ طه ، وقال تعالى في سورة « الزمر » : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾ ٢٢ ، وفي سورة « النحل » : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ ١٦٠ ، وفي سورة « الأنعام » : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّـعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ ١٢٥ ، وقالوا : إن النبي معصوم عن الخطأ مع أن العصمة لله وحده ، وكتابنا الكريم يعلن في أكثر من آية الخطأ الذي وقع فيه . وقوله سبحانه : ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ٣ ، ٤ النجم ، يؤكد صحة ما ينقله النبي المصطفى من الآيات والتعاليم التي توحى إليه تكذيباً لما كان يقوله بعضهم من أن ما يبشر به إنما هو من تأليفه ولا علاقة للخالق العظيم بما يزعم أنه وحي يوحى .

وقد يقول قائل : إن الديار الإسلامية كانت منبع العلم والحضارة وإن بغداد والبصرة ودمشق وسمرقند والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة وغيرها كانت منهلاً للعلم والمعرفة عندما كان الغرب غارقاً في الجهل ، وإن تلك المعارف انتشرت منها إلى الأمم الأخرى وغنم منها الغربيون ما رفعهم من الحضيض إلى الذُرا في القرون الوسطى ، فكيف انقلب الحال وانتهى بنا الأمر إلى عصر الجهالة ، والخمود الفكري ؟

سؤال وجيه لكن الرد يتطلب العودة إلى التاريخ لنجمع بشكل مفصل العوامل كافة التي أدت إلى هذه النتيجة والتي ترتبط كلها بأساليب الحكم . لقد كان معاوية أول خليفة أقام دولة بمفهومها الحالي . لكن الذين جاءوا بعده حتى العهد العثماني لم يكونوا كلهم على مستوى مماثل من الكفاءة والإخلاص . والجهل أخطر سلاح يودي بحضارة أمة ودورها في الوجود .

الإنسان خلق الله

عبارة أخرى مروعة إذا أخذت بظاهر معناها راجت وشاعت عندما طرق العلم أبواب العقل بين المسلمين الذين عاشوا قروناً طويلة في درك التخلف والانحطاط حتى بات التعلم حراماً إذا خرج عن دائرة الفقه والشريعة.

ففي العصر العثماني، قمة التخلف والظلام، كان القادر على مجرد القراءة والكتابة مرجعاً يلجأ الناس إليه ويعاملونه بإجلال وتقدير ليكتب لهم رسالة بالسجع المقفى لديباجات حفظها من كتيب رخيص الثمن كان يباع في المكتبات. فإذا كانت الرسالة موجهة إلى كبير الأسرة بدأها بعبارة: من بعد تقبيل أياديكم الكرام والتماس صالح دعاكم على الدوام. وإذا كانت لشخص ذي مكانة استهلها بعبارة: أقدم لمعاليكم الإجلال والاحترام وأسأل الله أن يديمكم لنا ونحن عبيدكم على الدوام. وحامل الشهادة الابتدائية بات بعد ذلك علماً من الأعلام يصل إلى أعلى وظائف الدولة. هذا في مطلع القرن العشرين فكيف الحال بالنسبة لما كان قبل ذلك؟

الآلهة التي خلقها الإنسان منذ الحقبة الأولى من تسويته بعد خلقه حتى بلوغه مرحلة التطور الأخيرة منتقلاً من طور المخلوق الذي يتعايش مع أمثاله بين الحيوانات التي تحيط به، يتفاهم بالحركات والأصوات وحتى وصوله مرحلة الإنسان الناطق الذي يعبر عما في نفسه بكلمات اصطلح على مدلولاتها ومعانيها، تلك الآلهة كانت حصيلة طبيعية للمرحلة الأولى من حركة الفكر ومحاولة فهم الأمور بالتحليل والاستنتاج، وبديهي أن كل مفهوم يصل إليه الإنسان يرجع في تحديده إلى قدرته على تحليل الظواهر واستخلاص ما يقنعه من النتائج. من هنا ندرك أن أول ما شغل فكر الإنسان الذي تخطى البدائية إلى عتبة الإدراك والفهم في مراحلهما الأولية كان تلك الظواهر العجيبة التي يراها تتكرر دون أن تكون له أو لمن حوله يدٌ فيها. فهذه الشعلة المتوهجة التي لا تصل يده إليها حتى لو صعد إلى قمة الجبل أو أعالي الشجرة الفارعة، هذه الشعلة التي تظهر بانتظام من مكان معين وتسير ببطء في حركة ثابتة لتصل إلى حيث تختفي بوتيرية لا تتغير ولا تتبدل، تكوي جسده بنارها وترغمه على الاحتماء

دون أن يكون هناك سبب يعرفه لهذا « العداء » الذي لا دور له فيه . ما هي هذه الشعلة وماذا تريد ، من أين تأتي وإلى أين تذهب ، لماذا تحرقه بنارها مع كل من حوله من المخلوقات فلا يجد حلاً للتخلص منها إلا باللجوء إلى مكان يحميه منها يظل فيه حتى تخف حدة غضبها فيخرج سعياً لإيجاد قوته .

وذلك الشيء الغريب الذي يأتي زاحفاً من حيث لا يدري فيدخل في معركة مع تلك الشعلة ويحيط بها ويخفيها متحدياً قوتها وسلط مرسلها ، يصيح بصوت مرعب يجعله ينطلق فراراً مع كل من حوله إلى حيث يختبيء لينجو من غضبه ومن سهامه اللامعة الرهيبة التي يطلقها والتي إذا أصابت هدفاً أحرقته ودمرته وهي ترغمه على أن يغمض عينيه خوفاً ورعباً .

وتلك الخيوط الكثيفة من السوائل أو الحصيات القاسية التي تهبط بغزارة فتبلل شعره وجسده وتجعله يرتعد رغم احتمائه في أحجاره حتى تكف تلك العاتية عن الزمجرة والصياح بصوتها المرعب الذي يهز كل شيء حوله .

والأكثر غرابة من هذا كله ذلك الشيء الذي لا يراه والذي يأتي من حيث لا يدري فيدفعه ويلقيه أرضاً في بعض الأحيان كما يثير كل شيء من حوله حتى أن يقتلع الأشجار التي لا تنحني احتراماً له . هذه الأشياء الغريبة كلها ، من أين تأتي وكيف يستطيع أن يأمن شرها ؟

كانت هذه أوليات الظواهر التي أثارت انتباه الإنسان البدائي ذي العقل البسيط ـــ غير المركب ـــ لا ريب أنه حاول في بادىء الأمر مقاومتها لكنه فشل في محاولته فأقر بسلطتها العليا وخضع لها مرغماً ليتعايش معها .

هذه في رأيي الخطوة الأولى التي قادت ذلك الإنسان إلى الخضوع لما بات يعرف باسم الآلهة . ولا يستطيع أحد أن يحدد الجهة أو المكان الذي كان ذلك الإنسان الأسبق فيه إلى الأخذ بهذه « النظرية » ، وأعني الخضوع لسلطات مجهولة غامضة تثبت وجودها وقدراتها التي يعجز عن محاكاتها أو مقاومتها بل وفهمها أيضاً . لكن الواضح البين يؤكد أن هذه « النظرية » انتشرت في عالم الإنسان فبات لكل مجتمع يشغل حيزاً محدداً عدد من الآلهة التي تمثل تلك القدرات الخارقة مع اختلاف أسمائها باختلاف لغات تلك المجموعات مداركها . لكن أعدادها كانت متقاربة ومتشابهة في التخصص والسلطة والفعال .

وبدأ الإنسان يتعلم من التجربة ويطور سلوكه وفقاً لمقتضيات وجوده . انتقل من العري المطلق عندما كان الشعر يغطي كل جسده إلى التستر وحجب « عوراته » ومن

الشيوع إلى التخصص ومن مجرد الإبقاء على النوع إلى غايات يحققها ذلك الوجود. واستغرقت مسيرته تلك بلايين السنين.

ومن الطبيعي أن يختلف الفكر في مستواه عند بني الإنسان وأن تستفيد أمة من نتائج تجاربها بشكل أعمق مما تحققه أمة أخرى. والواضح أن الإدراك هو الذي يقود إلى التحليل واستخلاص النتائج. إنه أساس المعرفة. وكلما تابع الإنسان تسخير مداركه في الدراسة والاستنتاج ازدادت حصيلته العلمية ثراءً وارتقى في مضمار المعرفة. والمتعلمون المتقدمون في عالم اليوم يختلفون بأمر واحد عن المتخلفين، هو مرور هؤلاء على وقائع حياتهم مر الكرام دون محاولة فهمها والتعمق في مقوماتها بينما وقف أولئك عندها يتساءلون عن أسباب حدوثها وطرق تسخيرها لخدمتهم أو التخلص منها. ومن هنا نشأت البحوث التي أنجبت النظريات التي تحولت إلى طور التطبيق.

من هنا نستطيع القول: إن بداية تعامل الإنسان مع القوى «الخارقة» التي لازمت وجوده كانت الخطوة الأولى على طريق ربط الفعل بالفاعل وتحديد طبيعة ذلك الفاعل وقدراته وتعريفه باسم ينفرد به وبصورة تجمع بين الخيال والمحسوس تختلف من مجتمع إلى آخر باختلاف قدرات المبدعين وتفكيرهم.

وجاء بعد ذلك من عرفناهم باسم الرسل والأنبياء لتمييزهم عن سواهم من بني البشر لأنهم أثاروا موضوعاً كان نقطة تحول الإنسان من المفهوم الحسي إلى المفهوم الغيبي. أي من مجرد الاعتراف بدونيته وضعفه أمام الذين استوحى لهم أشكالاً من خياله تتفق وما عزاه لهم من قدرات إلى الاعتراف بهذه الدونية أمام قادر يعجز خياله عن تصوير شكله، قادرٍ يعزو إليه كل شيءٍ دون أن يدرك حقيقته التي تدل عليها أفعاله وحدها، قادرٍ يفعل كل شيء ويتحكم بكل شيء. يتصرف كما يشاء دون أن يدرك الإنسان الدافع لذلك التصرف.

ولقد ظهر أولئك الرسل في كل مجموعات البشر على اختلاف مواقعهم ومواطنهم وكان ظهورهم يهدف إلى غاية واحدة لا خلاف فيها رغم اختلاف المكان والزمان والأسلوب الذي كانوا يستعملونه، همهم أن يتحول الإنسان من الخضوع لهذا العدد الوفير من الآلهة على اختلاف صورهم وأشكالهم واختصاصاتهم إلى الخضوع لإله واحد يقوم وحده بكل ما عزاه الإنسان لأولئك الآلهة مجتمعين.

كانت حجة أولئك الرسل تقوم على المنطق وحده لأنهم ما كانوا يملكون بياناً لما يدعون إلا من واقع المجتمع الذي تعيش فيه الأقوام التي كانوا ينشرون رأيهم بين أفرادها. فبنو

البشر يتنافسون ويتناحرون ليستأثر جانب بكل سلطات الآخرين، فكيف لا يتنافس الآلهة ولا يتناحرون ليستأثر أحدهم بكل سلطات الآخرين؟

صحيح أن الإغريق أقاموا آلهتهم على درجات في أسرة واحدة يرأسها كبير الآلهة وكذلك فعل الرومان، لكن هذا التنظيم لم يمنع التناحر والتجاوز بل والفضائح بين أفراد تلك الأسرة الربانية، الأمر الذي أكد في كل المجتمعات أن الإله الواحد الذي يملك سلطات وصلاحيات كل أولئك الآلهة مجتمعين هو السر في استقرار الوجود وانتظام حركة تلك الظواهر المعجزة.

وتمضي السنون دون أن ينضب معين أولئك الدعاة فينتشر مبدأ الإله الواحد في كثير من الأصقاع ويزداد اعتقاد الإنسان بصحة وجود القادر الأوحد الذي ينفرد بكل السلطات فتبدأ المرحلة التالية من تطور الفكر البشري بظهور أنبياء يحملون تعاليم مكتوبة تحدد حركة الإنسان في مجتمعه وترفعه من مستوى العشوائية إلى مرتبة السلوك المنظم الذي قرره ذلك القادر الأوحد ليحكم حياة المؤمنين في تلك المرحلة من التطور.

ولم يكن الأمر سهلاً. فالقواعد المفروضة تحد كثيراً من «حرية» الفرد التي ألفها في حياته فكانت ركيزة لتحقيق متعته وإرضاء ذاته. كيف يرضى القوي المتجبر بما يفرضه أولئك الأنبياء من وجوب احترامه الإنسان الضعيف والاعتراف بحقوق متساوية معه في الوقت الذي كان إذلال الضعيف والسيطرة على مقدراته على رأس الامتيازات التي يتمتع بها ذلك القوي؟ كيف يتنازل عنها لمجرد أنها شرعة فرضها القادر الأوحد؟ ما هو المقابل الذي سيحصل عليه ثمناً لتنازله عما يملك وما يتمتع به كل يوم؟ أيهبط من عليائه إلى مستوى أولئك الحقراء التافهين دون مقابل يغريه بالامتثال لما يفرضه ذلك القادر الأوحد الذي يؤكد النبي وجوده؟ إن لكل شيء في هذا الوجود ثمناً. فما هو العائد الذي سيحصل عليه أولئك الأقوياء المستبدون إذا تنازلوا عن جانب من صلفهم وغرورهم؟ أيفعلون ذلك لمجرد إرضاء ذلك القادر الأوحد الذي يحتكر كل الطاقات والسلطات؟ أليس ظلماً أن يتنازل المرء عن جزء مما يملك لمن يعيش تحت إمرته كما تعيش الماشية دون أن يحصل على مقابل مغرٍ يعوضه عما وهب؟

تساؤل «منطقي» يطرحه الأقوياء المستبدون ويتمسكون به. يا لها من خدعة تلك التي يحاول بها أولئك الأنبياء المزعومون تأييد ما يبشرون به. إنهم يزعمون أننا سنعود إلى الحياة مرة أخرى لنتمتع بكل ما نتنازل عنه اليوم بل وبأضعاف أضعافه وأننا سنبقى بعد ذلك أحياء لا نموت! يا لمكرهم ودهائهم! لقد مات كل أسلافنا ولم نر أياً منهم يعود إلى الحياة! لو صح

ما يقولون لفعلنا كل ما يطلبونه وما يزعمون أنه سيكون ! يا للأكذوبة الصارخة ... سنموت ثم نعود إلى الحياة لنحاسب !

كان هذا هو منطق الكثرة الكاثرة من الأقوياء والمستبدين بينما استجاب جانب من الضعفاء سواء لأنهم ما كانوا ليخسروا شيئاً إذا اتبعوا ما يقوله الأنبياء أو لأنهم وجدوا في ذلك مخرجاً من اليأس والاستبداد الذي يعيشون فيه . وأي شيء أجمل وأطيب من وصولهم إلى تلك الحقبة التي يرون فيها أولئك القساة المستبدين يعاقبون بشدة على ما كانوا يلحقونه بهم من أذى جزاءً وفاقاً من الخالق الأوحد الذي سيعوضهم عما كانوا يعانون ؟ فحياة المرء على الأرض مجرد مرحلة إعداد سيضطلع المظلوم بعدها بالدور الذي يستحقه في عالم الخلود . وإذا صدق النبيون فيما يقولون وآمن بما يؤكدونه فإنه سيحصل على المرتبة السامية التي تتفق والجهد الذي سيبذله في الالتزام والتطبيق .

هكذا تحول الأمر من مجرد رسل يعملون على إقناع الإنسان بنبذ كل الأفكار التي توارثها عن أسلافه والإيمان بخالق واحد إلى أنبياء يحملون التعاليم المكتوبة التي يتوجب على المؤمنين التقيد بها ليكونوا صالحين وبذلك انتهت الحقاب الأولى التي اقتصرت على أقوال الرسل المتتالين السابقين بنزول أول قانون يلزم الإنسان بالتصرف وفقاً لأحكامه ليتجنب العقاب الذي سينزل بالمخالفين المنحرفين .

لكن مدارك الإنسان لم تتوقف عن التطور لأنها لم تكن قد بلغت حينذاك المستوى الذي قدره الخالق لها فكان لزاماً إدخال بعض التعديلات على النظام الأول بحيث يتفق مع واقع المجتمع الجديد بعد أن تجاوز الإنسان في مفهومه الحديث ما أوجب صدور ذلك التعديل . أدخلت بنود جديدة تصحح ما افتراه القائمون على تطبيق النظام الأول سواء بتحوير بعض مفاهيمه بحيث بات قاصراً عن معالجة ما بلغه الإنسان في واقع حياته من تطور أو بإلغاء ما كان يعيقهم في تحقيق أغراضهم الخاصة . وأهم ما أدخل من تعديلات كان ينقض ما يخدم مصالح الذين حولوه إلى أداة تدعم مراكزهم الاجتماعية ونفوذهم بشطب بعض النصوص أو تحريفها أو إضافة ما زعموا أنه جاء في جوهر القانون .

لم يكن هناك بد من التصحيح بعد كل الافتراءات التي أضافها المتسلطون إلى القانون الأول بحيث حولوه من دستور يحفظ مسيرة الإنسان في مجتمعه إلى نظام يلزم الإنسان بتقبل انحرافاتهم وربط مصيره بسلطانهم ورغباتهم التي باتت دعائم حياتهم .

لكن محاولات ذلك الجمع من المتسلطين لم تتوقف . صحيح أن التعديل الجديد خلق مفاهيم سامية وقيماً تؤكد الحقوق والواجبات وطبيعة المجتمع التي يلتزم العامة بها . لكن

طبيعة التسلط الغالبة على فئات من النفعيين ظلت تعيق رغبة الإنسان في إقامة دعائم لحياته تتفق وتطلعاته إلى الأفضل ، الأمر الذي استوجب صدور قانون جديد شامل يعالج كل الثغرات والأخطاء ويقدم الحلول لما تراكم من خلافات في أجوبة مقنعة لكل تساؤل . فهل توقفت تطلعات الإنسان وانحصرت أفكاره في دائرة القانون الأخير ؟ سؤال يجيب الواقع عليه بالنفي رغم توافر كل أسباب الاستجابة والقبول فيه .

والملاحظ أن علة الانحراف والتشويه كامنة في الإنسان نفسه منذ صدور القانون الأول وحتى عصرنا الحديث لأن الإنسان يخضع لنزعات تغريه على الانحراف وتسخير القانون لمصلحته الشخصية أو مصلحة فئة معينة تجد في انصياع عامة الناس لأحكامه سبيلاً آمناً يضمن لها السلطة والزعامة والتحكم .

واللغة التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية ، وهي لغة يحدها الزمان والمكان تبعاً لطبيعة الوجود ، هي التي استخدمتها فئة من بني الإنسان لتأويل نصوص القانون الأخير ومراميه وأسباب تطبيقه بحيث يخدم غاياتها ويدعم سلطانها . استعملت المجاز والاستعارة لتأييد ما تزعم أنه روح النص وغايته . من هنا قام ما نطلق عليه اسم الملل والنحل وهو انقسام الأمة الواحدة إلى فئات متنافرة تؤمن كل واحدة منها بصحة تأويل معين تنحاز إلى صاحبه وتتخذه قدوة وزعيماً ، تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه وتتصرف طبقاً لفتواه لتصل إلى جنات الخلد والنعيم الذي لا يفنى .

وقمة تفكك المؤمنين في أي من القوانين المكتوبة المعروفة تكمن في العداء والاستنكار اللذين تغذيهما كل واحدة من تلك النحل ضد الأخرى سواء بحكم القناعة أو بالانصياع المطلق . ولو اقتصر الأمر على تمسك كل جانب بما قنع به من اجتهاد وتأويل لعاش الناس في راحة واطمئنان . لكن سادة تلك الأفكار لا يقنعون بما جمعوا واستقطبوا من المؤمنين بفكرهم بل أفتوا بوجوب إرغام الآخرين على الأخذ بما هم به يؤمنون حتى ولو أدى ذلك إلى الاقتتال وإراقة الدماء وتدمير المجتمع . بذلك بات جوهر الاجتهاد والتأويل تسخير القانون نفسه للهيمنة باسمه على غير المؤمنين بما هم به يؤمنون لتحقيق أغراضهم ومطامعهم على حساب الإنسان البسيط الذي أعلن تمسكه بالقانون الأخير احتراماً لواضعه وتأكيداً لولائه وخضوعه له وانتمائه إليه .

إن كثرة كاثرة من أولئك الذين يزعمون أنهم المرجع الأمثل والأسمى في فهم هذه القوانين وتطبيقها هم شر البرية . فأقطاب اليهودية يرون أنهم وحدهم المؤمنون وأن الآخرين كلهم كفرة فاسقون ، ولا يختلف الحال في أي من الأديان الأخرى . والمضحك المبكي في هذا

كله أنهم يؤكدون جميعاً أن ما ينادون به إنما جاءهم من مصدر لا خلاف فيه هو خالق الخلق. أما كان حرياً بهم لو كانوا حقاً مؤمنين أن يتساءلوا عن سبب التعديل والإضافة في تلك القوانين ليخرجوا بالنتيجة الحتمية التي لا لبس فيها ولا غموض والتي تؤكد أنها تعذيلات اقتضاها تطور المجتمع الإنساني من حيث الفكر والمقومات الاجتماعية وأنه ما دام الخالق الأوحد هو مصدر القرار فلا سلطة لمخلوق في تعديله؟

هذا عن المؤمنين لكن هناك جهات أخرى ترى أن كل هذه القوانين التي يروجها الجانب الآخر ويزعم أنها أنزلت من السماء إنما هي في واقع الأمر من ابتكار أولئك الذين زعموا النبوة ومن نتاج أفكارهم وخواطرهم، صاغوها وعزوها إلى السماء ليجدوا المؤيدين من بني الإنسان الذين يستجيبون بما طبعوا عليه للقوة بزعمهم أنها وحي إلهي. فالإنسان يرفض الانصياع بسهولة لرأي إنسان مثله لكنه يخضع طائعاً إذا قنع بأن المصدر هو تلك السلطة التي خضع لها أسلافه فأقاموا لها التماثيل وقدموا لها القرابين وأقاموا لها المعابد قبل أن تتوحد في ذات واحدة باسم الخالق الأعظم.

وحجة هؤلاء فيما يؤكدونه تنحصر في مفهوم الاستيحاء. فكاتب القصة يستوحي والشاعر يستوحي والإنسان العادي إذا ما وقع في أزمة يستوحي الحل في حدود قدراته الفكرية.

وبين هذين النقيضين يعيش عامة الناس في متاهة لا يجدون منها مخرجاً إلا بواحد من سبيلين: إما الانصياع للفريق الأول الذي يرسخ في نفوسهم التعصب لفكر معين واستعداء كل الخارجين عليه وإما تبني اللامبالاة استخفافاً وتطبيقاً للمبدأ الشائع: عش كما يحلو لك وليكن بعد ذلك ما يكون.

ولولا فئة قليلة تحدد مسيرتها بين الخالق وتعاليمه وتطبق المبادئ الأساسية المتشابهة في تلك القوانين والمتعلقة بسلوك الإنسان وتصرفه مع مثيله، قانعة بأن ذلك هو النهج الوحيد الذي يرضي الخالق العظيم دون اهتمام بما ينادي به الجانبان وما يعمل كل منهما لدعم وتعميم ما ينادي به، لولا هذه الفئة القليلة لانهارت المفاهيم الأخلاقية التي نادت بها الأديان ولعاد الإنسان في سلوكه إلى البدائية التي هو اليوم في طريقه إليها.

وقد يقول قائل: أنت تقول: إن الأديان السماوية عُدلت وفقاً لتطور الإنسان فكرياً واجتماعياً، ألا يعني هذا أن الدين الأخير قد بات في حاجة إلى تعديل؟

سؤال وارد في كثير من الأذهان كما لاحظت. فنحن نقول: إن الدين يجب أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان وإلا اعتبر مستنفداً أغراضه فبات غير صالح يقتضي التخلي عنه واستبعاده. ووفقاً لهذه القاعدة أعلن على الملأ أجمعه أنه إذا جاءني أحدهم بقانون جديد يرفع المستوى الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والفكري إلى درجة أعلى مما أقره هذا الدين الأخير الذي أومن به وبوجوب تطبيقه دون تلاعب، فإنني سأكون أول الدعاة للدين الجديد وأقوى مناصريه والعاملين به. والتحدي سيبقى قائماً وأنا بانتظار الرد.

هذا الدين يقول في تعاليمه: إن الخالق العظيم جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف وإن أكرمنا عنده أتقانا. والتقوى تعني التمسك بما أمرنا الله أن نكون عليه مع أمثالنا من بني الإنسان. وقال: إن في أموالنا حقاً معلوماً للسائل والمسكين وإن علينا أن نعيد هذا الحق لأصحابه دون منّة أو فضل لأنهم شركاء فيه. وعلى الغني أن يحترم حقوق شركائه فيدفعها دون تردد. وقال: إنه رفع بعضنا فوق بعض درجات ليتخذ بعضنا بعضاً سخرياً ليكتمل البناء الاجتماعي، إذ لو كنا جميعاً أثرياء مترفين نترفع عن العمل لما وجدنا ما نأكل ولبتنا جياعاً عراة حفاة تقتلنا نفاياتنا وما يتراكم من أقذار حولنا. ولم نسمع حتى اليوم أن صاحب مليارات امتاز على جامع القمامة بيد ثالثة أو عين إضافية تميزه عن الفقراء التافهين. وقال بإيجاز شديد بوجوب التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وأن من آمن بالله وباليوم الآخر من كل المخلوقات المؤمنة بأديان أخرى وعمل صالحاً فلا خوف عليه ولا هو يحزن فمن يأتيني بخير من هذه الأسس لبناء مجتمع فاضل سيجدني أول المؤمنين به والتائبين.

إن ديني الذي أومن به وبكل ما جاء فيه يقوم على التواضع والمساواة الحقيقية في الحقوق الإنسانية، لم يأمرني واضعه بأي نفع يعود عليه حتى الصلاة ليست لصالحه، إنها مجرد تقرير أقدمه له وأنا أقف بين يديه أؤكد له فيه أنني متقيد بتعاليمه أنفذها بكل أمانة. والذين يؤدون الصلوات شكلاً دون جوهر إنما يسْخرون من أنفسهم ويخادعون.

أكرر القول بأنني بانتظار من يقدم لي الأفضل فهل لديك ما تقدمه؟ تأكد من أنني صادق فيما أقول.

وبهذه المناسبة أروي هذه القصة التي كنت طرفاً فيها في مدينة فرنسية: «دعتني سيدة إلى بيتها مع صديق قدمني لها لتطلعني على أطروحة انتهت من إعدادها لتقدمها للمناقشة أمام اللجنة التي ستمنحها درجة «الدكتوراه» إذا وجدتها تستحق ذلك لتكون متساوية مع زوجها الذي سبقها في نيل هذه الدرجة. كان موضوع الأطروحة: «حرية المرأة في المجتمع المتحضر».

جلسنا معاً حول مائدة أعدتها في غرفة المطالعة وجاءت بأطروحتها التي استغرق إعدادها وتدقيقها أكثر من ثلاثين يوماً وراحت تقرأ الفقرات الرئيسة فيها وتشرح ما ترى أنه قد يستغلق علينا فهمه . واستمرت القراءة والشروح أكثر من ستين دقيقة سألتني بعدها عن رأيي فيما سمعت . قلت بأدب الضيف :

ــ لن يفيدك رأيي في شيء يا سيدتي لأن ما أوردته في أطروحتك حول حرية الإنسان في المجتمع وعن حقوق المرأة في ممارسة تلك الحرية إنما استقيته من مراجع ومن قناعتك القائمة على الأسس العلمية والثقافية كما تؤكدين .

اعتبرت السيدة ردي تهرباً فأصرت بإلحاح على سماع رأيي حتى لو جاء مخالفاً لكل ما جاء في أطروحتها . قلت :

ــ سأكون صريحاً معك يا سيدتي فلا يصدمنك ما سأقول لأنه رأي إنسان متخلف . أنت تعرفين أن ممارسة الجنس عند الحيوان تقوم على غريزة المحافظة على النوع وأن ذكور الحيوان وإناثه يتعايشون بعد موسم السفاد وكأنهم من جنس واحد . وليس في مجتمع الحيوان ، إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير ، أي تنظيم عائلي ، فسفاد الأنثى يتم للسابق لذا لا يحتاج المجتمع الحيواني إلى ربط الوليد بالوالد . لكن الإنسان امتاز عن الحيوان بما أطلق عليه اسم « الحميمية Intimité » ليبقى الرجل والمرأة في علاقة خاصة تكوّن أسرة تعدّ أفرادها للقيام بدور في المجتمع . والفرق بين الإنسان والحيوان واضح في هذا المجال . فالذكر في عالم الحيوان يمارس الجنس علناً وعلى مرأى كل من حوله لأنه يقوم بواجب مفروض لا بد من القيام به . والابن يلقح أمه والأخ أخته والأب ابنته كما كان حال الإنسان البدائي . أما الإنسان فإنه جعل هذه العلاقة خاصة يمارسها بعيداً عن التدخل ، تربط الطرفين بالتزامات محددة لبناء المجتمع . وإذا كان الإنسان في عصرنا الحديث المتطور المتقدم يمارس الجنس علناً في الحدائق العامة بحيث تحجب الأم المنظر عن عيون أطفالها الصغار لأنهم لم يبلغوا بعد السنّ التي تؤهلهم للقيام بمثل هذا العمل ، فهل نعتبر ذلك رقياً إلى الأعلى أم هبوطاً إلى مستوى الحيوان ؟ دعك من « فرويد » ونظريته . إنه سليل أسرة من الشواذ كما تؤكد سيرته الذاتية التي تحفل بالانحراف والشذوذ حسب أقوال المراجع . أتوافقين على أن يأتي زوجك كل يوم بواحدة أو أكثر من طالبات المتعة وأن تفعلي مثل ذلك بموافقته وتأييده ؟ هل تتساءلين عما يكون عليه مصير الأطفال الذين لا يعرفون آباءهم ولا يرتبطون بأي علاقة ملزمة مع الأسرة ؟ ماذا سيكون عليه مصير الأمة التي تنسف هذه الحرية قانوناً أساسياً في تكوين الأسرة والترابط بين أفرادها بعد أن تفككت أواصرها وانقطعت الصلات الروحية والعاطفية بين الأولاد والآباء ؟ قد تستثنين من هذه

الحرية المنشودة الأزواج وتوقفينها على الناشئين ، لكنك بذلك تقيدينها وتقوضين قاعدة اجتماعية تقوم على أساسها الشعوب . فكيف يلتزم من سيتزوج من الناشئين بتقييد الحرية التي كان يتمتع بها ويمارسها قبل الزواج مع أن المثل يقول : من شب على شيء شاب عليه .

إن نتيجة هذه الحرية في رأيي يا سيدتي تقويض المجتمع والحد من تسلسل الروابط بين الشعوب بحيث ينتهي الأمر بانقراض ما نسميه « المجتمع المتحضر » .

ذهلت تلك السيدة بما قلت وأقسمت على إثارة هذا الموضوع في أطروحتها حتى لو أدى ذلك إلى عدم منحها الدرجة العلمية التي تنشدها مؤكدة أنها لم تسمع من قبلُ تحليلاً مماثلاً يعتمد على المنطق والواقع .

وأستاذة محترمة في مدينة في شمال ألمانيا مرموقة في الجامعة التي تدرس فيها قالت لي ذات مرة : « أتمنى أن يعود عصر الحريم الذي كنا نسخر منه لتعود المرأة إلى سيادة بيتها تُعنى بزوجها وأولادها ووضعها العائلي » . ولم تكن تقصد عصر الجواري والإماء والنساء اللواتي يشتريهن الأثرياء ، بل الزوجية وروابط الأسرة .

وقالت : « لقد خُدعنا في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي راح ضحيتها الملايين من الأيدي العاملة من الشباب وجيء بنا معشرَ الإناث للاستعاضة عن ذلك النقص فدمرنا وجودنا ! » .

فإذا وجدت في قولها عودة إلى الرجعية والتخلف ، فلا يزعجنك الأمر . إنها متخلفة مثلي وأمثالنا لا مكانة لهم في المجتمع المتحضر .

الندوة

فشلت كل محاولاتي في التفاهم مع من وقع عليهم اختياري من الفقهاء للاتفاق حول نقطة انطلاق مشتركة. وجدتهم يشهرون سلاحاً رهيباً في وجه كل متطلع إذا أعيتهم الحجة وخانهم المنطق. إنه الدرع الواقي الذي يحتمون به إذا وُضعوا في موقف يظهر عجزهم، باتهامك بالكفر والزندقة إذا لم تقر أن كل شيء لا يتم إلا بمشيئة الله. وليس أسهل على الإنسان من أن يعزو إلى الخالق العظيم كل معضلة يلقاها دون بيان دوره فيها أو دور مسببيها. وإذا سألت إيضاحاً كان الرد الشائع المتداول: إنها مشيئة الله فهل تشك في أن الله قادر على كل شيء؟ إن مجرد الشك كفر والعياذ بالله.

وأمام هذا السد المنيع لم أجد أمامي سوى اتباع واحد من سبيلين: إما أن أحذو حذو هؤلاء فأضيف إلى البائسين عنصراً جديداً، وإما أن أستمر في تعبيد طريق جديد بكل ما أستطيع بذله من جهد.

وتشاء المصادفة أن أتعرف على شاب حديث التخرّج من كلية الشريعة أُبعد بعد أن اختبر الحياة فكفر بكل ما تعلم. والسبب الوحيد فيما آل إليه حسب قوله كان عدم توافق ما تعلمه مع الواقع الاجتماعي، الأمر الذي دفعه إلى الانضمام إلى مجموعة من الشباب تتفق آراؤهم حول نقطة معينة تتعلق كلها بعدالة الخالق التي ينفيها الواقع الذي يعيشون فيه، فكانت تلك الخطوة الأولى التي خطوتها لإقامة ندوات حرة في بيتي يشارك فيها من يشاء ويطرح ما يشاء من الأسئلة ليحظى بأجوبة تقوم على المنطق والعقل والعلم، وهو الثالوث الذي أقامه دستورنا الكامل المتكامل الذي أنزله الخالق ليطبقه كل راغب في التفوق وإقامة المجتمع الفاضل.

اتفقنا على أن يتم الاجتماع مساء كل يوم خميس وأن يصحب كل فرد منهم عدداً من الذين اهتزت مفاهيمهم الدينية بحيث فقدوا كل ما يربطهم بدينهم فباتوا متشككين بل وآبقين منكرين قدسية الدين. وكانت الجلسات الأولى بسيطة وعادية نكرر فيها ما سبق أن

تداولناه . لكن عدد القادمين سرعان ما تضاعف بين متسائلين ومهاجمين ومستنكرين إضافة إلى بعض الفضوليين المتطفلين . وكنت أرد على الأسئلة بالمفهوم العلمي مستعيناً بآيات من كتابنا الكريم يساعدني في تلاوتها خريج كلية الشريعة الذي بات صديقاً حميماً وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب إضافة إلى بعض المراجع الفقهية ومنها «أسباب النزول» لنحدد صلاحية بعض الأحكام وفقاً للظروف التي دعت إلى صدورها .

لكن الظروف تغيرت بعد أن أصبحت تلك اللقاءات حديث المجتمع فإذا بوجوه وأشكال غير مألوفة وغير منتظرة تفد إلينا مزودة بأسئلة مفعمة بالاستفزاز والتحدي لإثبات ضعفنا وعجزنا أو لضمنا إلى الجماعات التي ينتمون إليها من أصحاب «الفكر الحديث» الذين يجارون المستشرقين في مبادئهم زاعمين أن قرآننا من صنع من زعم أنه نبي وأنه جمع فيه الأقوال المتناقضة التي تقفز لعيون كل مدقق بسيط وساذج ويثبت كذب النبوة . ولقد انطلت هذه الأقوال على كثير من البسطاء والسطحيين من الشباب بحيث انضموا بفكرهم إلى أولئك «المستنيرين» يؤكدون معهم أن هذا الدين لم يكن أكثر من وسيلة ابتكرها النبي المزعوم للوصول إلى الزعامة والتحكم . وزاد في الطين بلّة هجوم بعض الأحزاب السياسية التي تستخدم مبادئها التي كانت شائعة حينذاك كسلاح في حرب صليبية مبتكرة ضد الأديان والمؤمنين .

أما المستنفرون والمتحدون فكانوا من أنصار رؤساء الجماعات الذين قدروا مما نُمي إليهم أن ندواتنا تهدد مراكزهم وموارد رزقهم ومصادر قوتهم . ولقد دخل واحد من أنصار هؤلاء ذات مرة إلى مجلسنا واستمع إلى ما يدور من حديث ثم قاطعني بقوة قائلاً :

ــ ألا تؤمن بأن الله على كل شيء قدير ؟

أدهشني السؤال لأن ما كنا نبحث فيه لم يكن يمس قدرة الخالق بشيء . لكن السؤال كان يستدعي الجواب فقلت مسايراً :

ــ هذا لا يقبل أي جدل أو تساؤل لأن ما نراه في عالمنا وفي واقعنا لا يدع مجالاً للشك في قدرة الخالق العظيم .

عندها وقف الرجل ورماني بنظرات ازدراء وترفع وقال :

ــ إن كل ما تقوله يؤكد أنك جاهل ومنحط !

ثار بعض الحاضرين مستنكرين فهدأتهم وقلت للرجل :

ــ سأكون شاكراً لو تفضلت بمنحي بعض ما تنعم به من علم فالإنسان يبدأ حياته جاهلاً يتعلم ممن سبقوه إلى الوجود وفوق كل ذي علم عليم .

تلمس الرجل طريقه إلى باب الخروج ولما بلغه قال :

ـ ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ٧ ، ٦ البقرة ، .

والغريب أنه تلا الآية السابعة من سورة البقرة قبل الآية السادسة التي تسبقها وخرج لاعناً شاتماً . استوقفته مبتسماً وقلت له :

ـ دعني أتمم آيتيك اللتين تلوتهما دون تسلسل بالآيتين اللتين جاءتا بعدهما . يقول الله سبحانه : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ٨ ، ٩ ، .

فصاح وهو يغادر القاعة : ألا لعنة الله عليك وعلى كل من يصغي إليك ! وخرج مسرعاً تشيعه عاصفة من ضحك الحاضرين وسخريتهم .

وفي جلسة أخرى دخل عدد من الشيوعيين المتزمتين المعروفين بإخلاصهم لمبادئهم والدعوة لها واتخذوا مجلسهم قرب الباب وظهورهم إلى الجدار وراحوا يجيلون بأبصارهم متفحصين وجوه الحاضرين . كان تصرفهم ينبىء بأنهم جاءوا لإثارة مشادة وقتال خططوا له .

تجاهلنا وجودهم بانتظار ما سيقولون واستمر حديثنا حول عدالة الخالق وسلوك المخلوق وفجأة انتصب أحدهم واقفاً وقاطعني صائحاً يقول :

ـ لقد صدعت رؤوسنا بإلهك هذا . أين هو ؟ أنا لا أراه ، ليظهر ، ليثبت وجوده ... ألا تقول إنه في كل مكان ... أين هو ؟

وراح يلوح بذراعيه حوله ليثبت فراغ المكان من أي وجود . ساد هرج شديد في القاعة ووقف بعض الحاضرين وكاد الأمر أن يتحول إلى معركة فمجزرة لو لم أهدىء الساخطين بصوت حاد قائلاً :

ـ هدوء من فضلكم ... اهدأوا ... لقد طرح الرجل سؤالاً ومن حقه أن يتلقى الرد .

دهش المنفعلون والسامعون بما أقول . فالرجل يسأل عن مكان الله وليس في مقدرة مخلوق أن يحدد ذلك المكان لذلك اتفق المؤمنون على أنه في كل مكان مع ما في هذا القول من مرونة وغموض . والرجل يريد أن أحدد له المكان ليراه فيه ...

هدأ الحاضرون مترقبين وشخصت أبصارهم إلى وجهي فقلت للسائل :

ـ أنا يا سيد ، أعتمد في ردي على مرجع تعتبره تافهاً يزعجك مجرد ذكر اسمه إنه القرآن الذي ترى أنه لا يستحق أي رعاية أو احترام . لكنني وللأسف لا أملك سواه مرجعاً ...

همّ بمقاطعتي فأشرت إليه أن يهدأ وينتظر وقلت :

ــ دعني أتمم قولي ثم تصرف بعد ذلك كما يحلو لك . قلت إنني لا أملك مرجعاً سوى الكتاب الذي لا تحترمه . وفي هذا المرجع يقول ربي : ﴿إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ . فلو تفضلت بعلمك الغزير ومراجعك العلمية الراقية بتحديد الكوكب أو النجم الذي يعادل يومه ألف سنة من سني أرضنا ، قمت بدوري بإعطائك توصية خطية لتذهب إليه هناك وستجده جالساً وراء مكتبه بانتظار قدومك !

صعق الرجل وهلل الحاضرون وصفقوا فانسحب السائل ومجموعته مزمجرين شاتمين . ولما ساد الهدوء ، قلت لإخواني الحاضرين :

ــ لو أننا اشتبكنا معهم في عراك لحققنا لهم ما جاءوا لتحقيقه ولكان الصراع دليلاً على عجزنا عن مناقشة ما أثاروه ، ولو حققنا لهم ما كانوا يبتغون لأثبتنا لهم أنهم على حق فيما يزعمون .

وجامعي مهذب في سنته الدراسية الأخيرة قال ذات مرة :

ــ أنا لا أعترض على ما تقول . لكنني أتساءل عما كان قبل أن يكون الله . وأنا أعتذر لك إذا كان في سؤالي هذا أي حرج أو شذوذ .

طمأنت الشاب وقلت مجيباً :

ــ إن « قبل » و« بعد » يا عزيزي ظرفا زمان فرضهما علينا واقعنا الحياتي لنحدد بهما أحداثاً معينة فنقول : قبل الميلاد وبعد الميلاد ، قبل الهجرة وبعد الهجرة وقبل الطوفان وبعده وبذلك نحدد نقطة معينة يدور حديثنا حولها . ولو استطعنا أن نحدد متى كان الله بات من السهل علينا تحديد ما كان قبله . وقصورنا هذا معروف لدى الخالق ذاته لذا نراه يقول : ﴿هو الأول والآخر﴾ . وهذا تعريف نستعمله اليوم في الرياضيات فنقول : إن كل نقطة في دائرة ما يمكن أن تكون الأولى كما يمكن أن تكون الأخيرة . ولقد اعتمد رجال السياسة على هذه النظرية فأقاموا المائدة المستديرة التي يحق لكل من يجلس حولها أن يعتبر نفسه على رأسها وبذلك استبعدوا كل حساسية في تقدير مستويات الجالسين .

قال الشاب مبرراً :

ــ لا اعتراض لي على ما تقول ، إنه صحيح ومعقول .. لكننا نتفق على أن لكل مصنوع صانعاً ولا شيء حولنا يشذ عن هذه القاعدة لذا فإن سؤالي سيبقى قائماً .

ــ صحيح إلى حد معين . صحيح أن لكل مصنوع صانعاً لكننا لا نؤله ذلك الصانع ولا نعبده لأننا نعرف أنه صنع الشيء من الموجود وأنه هو نفسه مصنوع قبل أن يكون

صانعاً . ولو كان للصانع الذي نعبده صانع لما قدسناه وعبدناه ، وما دامت عقولنا عاجزة عن خرق حاجز « القبْلية » هذا الذي نعتمد عليه في منطقنا فلا بد من أن نقف أمام هذا العجز لنختار واحداً من سبيلين : إما أن ننحو نحو من نسميهم بالماديين الملحدين فننكر وجود خالق ، وهو أمر يتنافى مع الواقع ، وإما أن نؤمن بهذا الصانع الذي نطلق عليه اسم الله لأننا عاجزون عن تحديد هوية الذي صنعه . وثق أنني سأعفي نفسي من الإيمان به ومن عبادته حالما يكتشف عقل الإنسان ما خفي علينا حتى الآن . وبانتظار ذلك ، لا بد أن نؤمن بهذه القدرة الخارقة التي لا تحدها العقول ، والتي خلقت ونظمت كل ما حولنا مما نرى وما لا نرى وما لم يقع بعدُ في نطاق المعرفة .

بدت بوادر الحيرة فالتردد فالقناعة على وجه السائل فقلت :

ـ تذكر أن الخالق الذي نتحدث عنه كان يتوقع مثل هذا السؤال من قبل أن يخطر على بال المخلوق فأشار إلى ذلك بقوله في آية « الكرسي » من سورة « البقرة » : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ كما أشار إلى الموضوع نفسه في آية من سورة « يس » فقال : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ وبذلك نبهنا إلى أننا سنظل نجهل كثيراً من الأمور المتعلقة بمصادر خلقه فكيف نتجاوز بجهلنا حدود الوجود إلى ما لا قِبَل لنا بإدراكه ؟ من السهل أن أقول لك : لم يكن قبله شيء ولكن هل يمكنك تحديد ما تعنيه هذه العبارة ؟ وهل تمنعك من أن تعقب بسؤال آخر تقول فيه : إذا لم يكن هناك شيء فكيف كان إذن ؟ علينا أن نتقيد بحدود مدارك عقولنا . وإذا كان هذا السؤال قد طرحه عليك آخرون فعليك أن تفحمهم بالرد المعجز بقولك : حددوا لي متى كان لأحدد لكم ما كان قبله .

وشاع ذكر تلك اللقاءات المفتوحة في أوساط مختلفة وتغيرت الوجوه التي كانت تأتي بين حين وآخر يحمل أصحابها أسئلة محرجة طامعين في الحصول على أجوبة مقنعة يتحول معظمهم بعدها إلى مؤيدين مناصرين بينما يخرج الآخرون وملء أفواههم اللعنات والوعيد .

كنت أحارب على جبهتين الأولى أتعرض فيها لهجوم عنيف من قبل أولئك الذين كانوا يرون فيما أقوم به إحياء لأساطير خرافية تُخدع بها الإنسان المتخلف وتوارثتها الأجيال التي عاشت في دياجير الجهل والتخلف والثانية مجموعة من « فقهاء » ذلك العهد الذين يرون في أفكارنا خروجاً على الدين « الحنيف » وتشويهاً لصورته وحطاً من قدسيته لأن المؤمن لا يحق له إثارة مثل هذه الأمور . وكان سخطهم يزداد احتداماً بازدياد أعداد المؤيدين الذين استطعنا إعادتهم إلى السبيل القويم بالنقاش المتعقل .

وذات أمسية دخل علينا رجل تجاوز الأربعين من عمره مع شاب في أوائل العقد الثالث فحيانا وقدم لي نفسه ومركزه والدرجة العلمية التي يحملها والوضع الاجتماعي الذي يتميز به وقدم رفيقه الشاب بوصفه ابنه الذي ينهي سنته الجامعية الأخيرة .

أثارت بياناته الحيرة في نفوس الحاضرين وجعلتهم يتساءلون عن سبب قدومه لأن أمثاله لا يتنازلون بزيارة أمثالنا لأنهم قادرون على حل كل مشكلة تعترضهم بالاتصال المباشر بأي مسؤول .

جلس الرجل مع ابنه حيث أشرت وأصغى فترة لما نتداوله من حديث ثم استأذن بلطف وتأدب ليطرح الموضوع الذي جاء بسببه . فصمت الجميع وأعاروا السمع والانتباه لما سيقول . قال الرجل :

ـ السؤال المطروح الذي لا يجد جواباً شافياً ومقنعاً والذي يبرز في حياة الإنسان في كل حين ويؤرقني ويعطل حركة تفكيري متحدياً كل منطق وتحليل هو : إن الوجود يدل على واجد وهو أمر لا يحتاج إلى تدليل . وهذا الواجد الذي هو الله تعالى ، وهو الاسم الذي عرّفناه به عبر الأجيال والعصور بحيث اختلف الأمر بالتسمية دون الفعل لدى مختلف الشعوب التي توارثت الأسماء من أسلافها وحتى أولئك الذين أنكروا المسميات ومدلولاتها ولم يخرجوا عن دائرة الفكر التي سبقهم إليها الماديون .

وتوقف الرجل برهة ليتأكد من شدة إصغاء السامعين ثم أردف مسترسلاً :

ـ الخلاف إذن ينحصر في طبيعة هذا الخالق وفي علاقته بما خلق . لكن من يجيل الفكر فيما حوله بشيء من التعمق يخرج بنتيجة تضفي على الخالق صورة مذهلة . فالجماد الذي يملأ كل ما حولنا يتفاعل بسكون فيتسلط بعضه على البعض الآخر في معركة أزلية بدأت مع وجوده أطلقنا عليها اسم التفاعل والنبات يبني وينتج فيدمره الطقس والحيوان ويتلفان إنتاجه . والحيوان نفسه في صراع أزلي مع بعضه يقتل القوي الضعيف بقسوة وشراسة مستهيناً بما نطلق عليه اسم « حق الحياة » . والحيوان السامي الناطق يستبيح حرمة كل من حوله فيقتل هذا ويستعبد ذاك ، يسخّر ويذل ، ويدفعه الهوى والغرور إلى حد تعميم مظالمه وعنته على الضعفاء من بني جنسه ومن خلائق الطبيعة كلها . فكم دمر من غابات وكم استأصل من أنواع الحيوان وكم غيّر من أشكال الجماد . وفوق كل هذا وذاك ، القوى الخارجة عن نطاق طاقة الإنسان نفسه تدمر ما أقامه وتقضي على الوجود بطريقة عشوائية لتدلل على قوتها وتفوقها واستهتارها بكل ما هو دونها قوة وأضعف خلقاً . فهذا زلزال هنا وعواصف وفيضانات هناك وبراكين تثور وأوبئة تنتشر وجفاف وقحط يهدد

الحياة ونيازك تدمر الأرض إذا ما اصطدمت بها . كل هذا لإرضاء سادية تلك القوى المجهولة المصدر التي تتلذذ بآلام الملايين الذين يموتون ضحايا نزواتها الطارئة . إنها سلسلة مروعة من تنظيم عجيب يكرس شعار البقاء للأقوى .

وصمت الرجل برهة والتفت إلى ابنه الجالس إلى جانبه وكأنه يسأله عما إذا كان أحسن في طرح الموضوع ثم استأنف قائلاً :

ــ والمتحدثون باسم الدين يخفّفون وقع هذه المصائب في نفوس الناس مستعملين تعبيراً لا ينفي الواقع ولا يفسره بل يعلله وحسب . إنهم يقولون : إن الله سخر كل شيء على الأرض لخدمة الإنسان وصالحه . فإذا سألتهم عن السر في تلك القوى الخفية المدمرة الخارجة على مصلحة الإنسان والتي تسبب قتل وتشريد ملايين البشر وتقوض كل ما أقامه الإنسان قالوا : إنها حكمة الله . وعلى ذلك يكون القتل والإبادة والتشريد والجوع والأوبئة حكمة من حكم خالق الكون ، فكيف يستقيم هذا المنطق ؟ تعطيني ما لا أملك فتكون كريماً ثم تسحقني وتعذبني وتنكل بي فتكون حكيماً ؟ أو ليس الأكثر حكمة وعدلاً والأدعى إلى الشكر والعرفان أن لا تجعلني ألعوبة تعرضني لما لم أُخلق لمعاناته ؟

وصمت الرجل برهة يلتقط أنفاسه ثم أضاف :

ــ هذا في حقيقة الحال الموضوع الذي طرحه عليّ ابني ولم استطع أن أجد له جواباً مقنعاً . أنا لا أريد أن ينحرف ابني فيصبح مادياً أو طبيعياً . وقد نصحني صديق له أخ يحضر جلساتكم ويشيد بها بأن ألجأ إليكم لمناقشة هذه الظاهرة ليكون ابني طرفاً فيها .

قلت للرجل الفاضل :

ــ يسعدنا حضورك يا سيدي وأرى من الأفضل أن أتوجه بالحديث إلى ابنك بوصفه صاحب السؤال . أنا أرى على وجهه أمارات التحفظ ولعل سبب ذلك هذا الجمهور الغفير من الإخوة الحاضرين من مختلف الأعمار . نحن هنا إخوة متساوون جمعتنا الرغبة في المعرفة لذا فإن السؤال لا يعيب صاحبه أياً كانت طبيعته لأن الغاية من وجودنا معاً هي إيجاد التعليل المعقول لما كنا نراه لغزاً غير مفهوم . والحاضرون كما ترى متلهفون لسماع الرد .

والتفتُّ إلى الابن وأضفت :

ــ الموضوع الذي أثاره والدك المحترم دقيق وعلى جانب كبير من الأهمية يمكن تلخيصه في أن النظرة المتفحصة لهذا العالم تنبىء بأن القوي يدمر الضعيف بشتى الوسائل وأن الأمر لا يقتصر على علاقة المخلوقات فيما بينها فقط بل يتعداها إلى الخالق الذي يفاجىء

مخلوقاته بالأوبئة والزلازل والأعاصير والقحط فيبيد العدد الذي يريده مع أن ذلك ليس من العدل في شيء . فكيف يكون الرحيم العادل وهو مصدر هذه الفعال البعيدة عن الرحمة والعدل . أليس هذا هو جوهر الموضوع ؟

أومأ الشاب برأسه بحركة إيجابية وفي عينيه نظرة حذر وترقب . قلت :

ــ ليس من السهل مناقشة هذا الموضوع في جلسة واحدة والرد على كل ما فيه من تساؤل ، لذا سأبدأ بالمخلوقات لننتقل بعد ذلك إلى الخالق . وما سأقوله هو موجز المقومات الأساسية أما التفاصيل فسنناقشها بإسهاب إذا تفضلت بزياراتنا مرة أخرى لنسترسل في البحث من حيث انتهينا .

هزّ الشاب رأسه دلالة الاستجابة مؤكداً أنه سيحضر مرة أخرى . قلت :

ــ المفروض أن طبيعة الوجود تتحكم بالموجود . وقد ترى في قولي هذا شيئاً من الغموض لذا سأشرح لك ما قصدته بهذا التعبير . أقول : نحن خلقنا على هذه الأرض ومن موادها ومقوماتها لذا فإننا ملزمون من حيث التكوين أن نتوافق معها وإلا استحالت علينا الحياة فهل في قولي هذا شيء من الغموض ؟

قال الشاب بشيء من التردد والحذر :

ــ لا . إن ما تقوله لا يحتمل أي نقاش ، إنه مفهوم علمي لا لبس فيه .

ــ عظيم . وهذا التوافق يعني أن بنية وجودنا قائمة على أساس ما تحويه هذه الأرض من قدرات . والقرآن الذي نؤمن به دستوراً وضعه الخالق لتنظيم سياق حياتنا نصَّ على هذه الحقيقة في أكثر من آية . وواقعنا الحياتي يؤكد أن وجودنا يعتمد على ما في هذه الأرض فإن استنفد ما فيها مما يقيم أَوَدنا ويحقق استمرار وجودنا كان في ذلك نهاية لنا . وتأكُدُنا من صحة هذا الاستنتاج يحملنا إلى المرحلة التالية وهي ما سميته بتدمير المخلوقات بعضها بعضاً بحيث يكون البقاء للأقوى .

قال الشاب متشجعاً :

ــ وهذه هي النقطة التي تثار في أحاديث الزملاء في كل لقاء .

ــ وهذا ما سأشرحه لك بإيجاز اختصاراً للوقت الذي قد تزعج إطالته والدك المحترم . هب أنك أردت إقامة مصنع لإنتاج سلعة معينة فإنك ستبدأ ولا ريب باختيار المكان المناسب لإقامة البناء عليه كما ستختار المواد الأولية اللازمة لبنائه . ومتى تحققت هذه المرحلة الأولية ستنتقل إلى الدراسة الموضوعية للآلات والأدوات والمواد الخام اللازمة للإنتاج ومصادرها ثم

الأسواق المستهلكة وعوائد البيع والتوزيع لتنتقل بعدها إلى تحديد الأعداد اللازمة من الأيدي العاملة وكفاءاتها المطلوبة . فإذا فرغت من كل هذا درست عوائد المبيعات وفائض الدخل بعد تغطية النفقات الضرورية والطارئة ، فإذا كانت دراستك سطحية كان مصير المصنع التوقف فالإفلاس أليس كذلك ؟

هزّ الشاب رأسه مؤيداً بينما ارتسمت أمارات الاهتمام على وجه والده . قلت :

ــ ولكن ، إذا كنت تملك مئات المصانع بحيث لا يمكنك تركيز اهتمامك على واحد منها دون سواها فماذا تفعل ؟ لا ريب أنك ستضع نظاماً أساسياً لكل منها يطبقه العاملون وستقيم جهازاً خاصاً يراقب تصرفاتهم بدقة . ولكي تشجعهم على العمل بإخلاص لتطبيق النظام الأساسي ، تَعِدُ المتقيدين المخلصين بمكافآت مجزية في نهاية العام وتتوعد المخالفين بالعقاب والطرد بسبب ما يُلحقونه من إضرار بالإنتاج وبسير الأمور .

قال الشاب :

ــ فهمت ما تعنيه . تقول : إن الله خلق الأرض وما فيها وخلق الإنسان ليعمل في حدود ما قدره له من تنظيم . هذا مقبول ومعقول . لكن الإنسان هو الذي يدمر ويخرب . أما كان من الأفضل أن يخلق الإنسان المستقيم المتقيد بالنظام ؟ هذا هو السؤال .

ــ لن أتهمك بالزندقة كما يفعل الكثيرون عند مجابهتهم بمثل هذا التساؤل ولن أقول لك تلك مشيئة الله ومن يعترض عليها كافر زنديق ، سأقول لك : إن سؤالك وجيه لكنه سطحي . هل سمعت حتى الآن بإنسان عاش خالداً على هذه الأرض دون أن يموت ؟ إن ديننا وكل الأديان تؤكد أن وجودنا على هذه الأرض مرحلة اختبار تجري بعدها مجابهة كل إنسان بما فعل خلال وجوده بحيث ينعم المحسن المتقيد بالنظام الذي قرره الخالق بالمكافأة والثواب والمسيء بما يستحقه من عقاب . وأذكرك بأن الله سبحانه حدثنا في كتابه الكريم عن علم النفس والتكوين النفسي الذي كان أسلافنا لا يعرفونه والذي أصبح يدرّس اليوم في الجامعات . قال سبحانه في سورة « الشمس » : ﴿ونفسٍ وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دسّاها﴾ ٧ ، ١٠ ، ولو خلق الإنسان خالياً من النوازع والرغبات كالإنسان الآلي لما كان هناك مجال للتمييز بين الصالح والطالح ، الجيد والسيّء لأن سلوك الجميع سيكون متماثلاً ولا مجال للتفضيل . لقد خلق الإنسان من مواد الأرض لينسجم معها وهي مواد تفعل وتنفعل كما يؤكد العلم لتستمر وتبقى وإلا لاضمحلت وتناثرت وبادت . أي إن التفاعل ضرورة للوجود . والاختبار هو الطريقة الوحيدة التي تجعل الخالق محقاً في اختيار الجانب الذي يستحق المكافأة والاضطلاع

بدوره المقرر في العالم الآخر. من هنا يمكننا القول: إن ما يفعله الإنسان من سوء ليس ضعفاً من الخالق. وعمّالك في مصانعك التي بدأنا بحثنا بهم هم الذين سيحددون العائد الذي سيوزع عليهم فإن دمروا المصنع الذي يعملون فيه فلن يجدوا مورداً ينفقون منه على ما يبقيهم أحياء في وضع محترم. إن شباب اليوم وللأسف يأخذون ظواهر الأمور ذريعة للاعتراض ويغفلون الجوهر. أليس من الأجدى والأصح أن تدينوا هذا التصرف المشين من جانب إنسان اليوم الذي يتمتع بالوعي والإدراك بدلاً من أن تربطوا بين تصرفاته وما أودعه الخالق فيه من قدرة التمييز بين الجيد والسيىء أرأيتم جماعة من الحيوان تعقد جلسة في مكان ما لمناقشة إجراءات تضمن تغيير الواقع؟ لقد قال ربنا الكريم في سورة «التين»: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ ٤، ٦.

استغرق الشاب برهة في التفكير ثم قال:

ــ فهمت ما تعنيه، فهمت.

ــ وهذا ما أريدك أن تَعِيَهُ، فلو خلق الله الإنسان غير متفاعل وجعله بعيداً عن النزوات والتأثر بالأفعال وردودها لما تطور عالم الإنسان من جهة ولما كانت هناك حاجة لبعثه ومحاسبته بعد اختباره. نحن يا عزيزي في مدرسة ابتدائية ومصيرنا متوقف على مجموع علاماتنا التي سنحصل عليها في نهاية العام. فإذا نجحنا ارتقينا إلى المرحلة الأعلى وإذا فشلنا أُهملنا وبقينا في الحضيض. ومن أقوال الله في آياته التي تلوتها عليك نستنتج أن ما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان من ظلم وعدوان لا يدين الخالق في شيء ولا يدل على ضعف النظام أو عدم صلاحيته كما يحلو لبعضهم القول، بل يدل على خطأ الإنسان نفسه إذ لو كانت فترة وجودنا مقتصرة على ما نسميه بالحياه الدنيا لكان الله ظالماً إذا لم يتدخل على الفور لمعاقبة المعتدي وتعويض المعتدى عليه ولتغيرت طبيعة الحياة ومراميها.
يبقى أن نرد على سؤال شائع يردده البسطاء والكثير ممن لا يعملون العقل فيما يرون والسؤال هو: ما ذنب الإنسان الضعيف ليعاني الظلم والذل طيلة وجوده على الأرض؟ والجواب هو أن الله لم يفرض على الإنسان في عالم اليوم شيئاً مما يعود على جلاله بالنفع أي أن «مصلحته الشخصية» إذا جاز استعمال هذا التعبير لا تتأثر بما يفعله الإنسان مع أنه يثيب المحسن لأخيه الإنسان. ومن هنا ندرك أن سكوت المظلوم على الظلم خطأ عليه احتمال تبعاته. ولو كان الإنسان الضعيف مؤمناً بعدالة الخالق ورحمته وبأنه يمر في فترة اختبار على هذه الأرض، لما استكان على الظلم. والله سبحانه قال ذلك بصراحة في الآية

الحادية عشرة من سورة «الرعد» : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ . وهذا القول الصريح في سياق هذه الآية يؤكد أن الاتكالية خطأ سائد في مجتمع المتخلفين الذين يعزون إلى الله كل ما يصيبهم ويتذرعون بقوله سبحانه : ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ **٥١ التوبة** . ولو قرأوا الآية التي جاءت قبلها وموقف المؤمنين من المشركين لأدركوا أنها جاءت لتشجيع النبي والمؤمنبن على مواصلة الكفاح لدعم الدين لا للاستكانة وقبول الواقع . والظالم نفسه من بني الإنسان لو كان مؤمناً حقاً بتعاليم هذا الدين الحكيم لما ظلم لأن وجوده محدود زمنياً ولأن الله يقول بصراحة ووضوح : ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ **٤٦ فصلت** ، إضافة إلى عشرات الآيات التي تشجع على العمل الصالح . ولو تدخل الله مباشرة لمعاقبة الظالم ومواساة المظلوم لانتفت الحاجة إلى فترة الاختبار ولما كانت هناك حياة أخرى يعيشها المؤمنون جزاءً على ما فعلوا .

هنا التفت الأب إلى ابنه وفي عينيه نظرة تساؤل قابلها الشاب بابتسامة مطمئنة وقال يخاطبني :

ـــ هل أستطيع حضور مجلسكم مع من يريد من زملائي كلما أردنا الحضور .

ـــ نحن لا نمنع أحداً من المجيء إلينا حتى لو جاء بسوء نية كما حصل أكثر من مرة . والإخوة الحاضرون هنا جاءوا قبل ذلك مستطلعين مختبرين ثم تجاوبوا معنا وباتت العلاقة بيننا لا تنفصم . ويبقى الجانب الآخر من سؤالك الذي تفضل به الوالد وأعني موضوع الزلازل والأوبئة والأعاصير الذي أثير فإنني سأجيبك عنه علمياً إذا تفضلت بالحضور مرة أخرى وسنقدم لك الحلول الجذرية التي تدعمها نصوص من كتابنا المقدس وبذلك لن تجد نفسك في موقف الحائر المتردد ولك أن تختار السبيل الذي يرضيك .

وانتهت المقابلة بعد أن استأذن الأب وابنه بالانصراف وغادرا المجلس شاكرين ممتنين واعدين بتكرار الزيارة كلما سنحت الفرصة وكان لزيارتهما تلك الأثر في زيادة عدد الوافدين إلى مجلسنا وزيادة عدد الخصوم .

أول الغيث

كنت في مكان عام مع بعض المعارف ، نناقش موضوعات حساسة ، حينما فوجئت باثنين من الرجال الغلاظ ، بملابس مدنية يقفان أمامي متحفزين ، ويسألني أحدهما بغلظة :

ــ أأنت فلان ؟ فلما أجبت بنعم قال آمراً :

ــ قم معنا ... أنت مطلوب .

كان واضحاً ــ أنهما من رجال ــ ما كان يعرف حينذاك « بالتحري » ــ وما بات يسمى اليوم بالمباحث . ولن أورد هنا كل التفاصيل ، لأنها تعطي صورة بشعة عما كان المواطن يلقاه من أولئك المتوعدين ــ حينذاك ــ إضافة إلى اسم رئيسهم الذي كان يثير الخوف في نفوس السامعين .

ذهبت معهما إلى مديرية الشرطة ، التي لم تكن بعيدة عن المكان الذي كنت فيه . وكان قسم التحري في الجزء الخلفي من البناء ــ فأدخلاني إلى مكتب رئيسهما الذي كان يبعث الرعب في القلوب . وبعد أن قدما التحية ، قال أحدهما :

ــ أتينا به يا سيدي .

حدّق حضرته في وجهي بازدراء وتهديد وقال :

ــ أنت أستاذ ؟ أنت زبالة الأساتيذ . سوف أشنقك بيدي في ساحة « المرجة » ــ وهي الميدان الذي كانت عقوبة الإعدام العلنية تتم في جانب منه قرب نهر بردى .

رفع سماعة الهاتف وراح يتكلم بأدب شديد قال :

ــ أحضرناه يا صاحب السعادة ... إنه أمامي هنا ... أنتظر أوامر سعادتك . حاضر يا سيدي ... حالاً

وأعاد السماعة إلى مكانها ، والتفت إليّ وقال بلهجته المهذبة :

ــ ستذهب إلى فوق ، لتأخذ نصيبك هناك أولاً ، وعندما تعود ستجدني قد هيأت لك ما يلزم لاستقبال أمثالك !

والتفت إلى اللذين جاءا بي وقال لهما آمراً .
ــ خذوه لفوق .

« وفوق » هذه تعني الجزء الأمامي من دائرة الأمن ، التي تشرف على الطريق العام وفيه مكتب المدير العام ومكاتب رؤساء الإدارات الأخرى التابعة له .

دفعاني أمامهما حتى وصلنا إلى السلم فصعدناه حتى بلغنا المكتب المنشود ، عندئذٍ راح أحدهما يرتب ملابسه ثم قرع الباب بلطف . ثم دخل وعاد بعد قليل يشير لزميله أن يدفعني إلى الداخل .

كان المدير العام يجلس وراء مكتبه البالغ الأناقة في غرفة زاخرة بفاخر الأثاث . وقفت أمام المكتب ، بينما وقف المرافقان ورائي ليحولا دون فراري إذا سولت لي نفسي بذلك .

حدجني سعادة المدير العام بنظرة متفحصة قاسية ثم قال :
ــ أنت أستاذ أنت ؟ يقولون أنك أستاذ ، لكن معلوماتنا تقول أنك دجال !

قلت بهدوء :
ــ إذا كان اللقب يزعج سعادتك فإنني أتنازل عنه وأحمد الله على أنني أقف في حضرة شخصية تحمل إجازة عليا في القانون وهذا يشجعني على السؤال عن التهمة الموجهة إليّ ليكون من حقي الدفاع عن نفسي في حدود القانون قبل أن أعامل معاملة المجرمين .

والحقيقة أن مدير الشرطة العام كان يحمل شهادة « دكتوراه » في القانون كما كان شائعاً حينذاك . تغيرت قسمات وجه سعادته ، وخفت حدة نظرته ، فأشار بيده إلى رَجُلَيّ « التحري » بالخروج فحييا بأدب وتراجعا إلى الباب وخرجا .

ولما أغلقا الباب خلفهما ، أشار إلى مقعد قرب مكتبه ، ودعاني إلى الجلوس فامتثلت ، بينما لبث يتفحص وجهي بنظراته ثم قال :
ــ أنا لا أتصور أن تكون أستاذاً وملحداً عدواً للدين بآن واحد .
ــ قلت : ما زلت في غفلة من أمري يا سيدي .

فمد عطوفته يده إلى أحد أدراج مكتبه الأنيق وأخرج لفافة ضخمة من الورق ، راح يبسطها على مكتبه مستعيناً بيده الثانية وقال :
ــ هذه عريضة موقعة من أكثر من مائة من « المشايخ » يتهمونك فيها بأنك تحرض الطلبة على عقوق الوالدين ، وعدم احترامهما ، إضافة إلى ما تجمعه في بيتك من السذج المساكين ،

الذين تلقنهم المبادىء والمفاهيم المنافية للدين الحنيف ، وتشجعهم على الكفر بالله . فماذا تقول ...؟ لا تنسَ أن هذه التهمة ــ إن صحت ــ ستعود عليك بعواقب وخيمة جداً .

ــ قلت : ــ غريب جداً ــ أن يرتكب مثلي هذا الإثم ، في حين قال ربي الذي أومن به وأعبده : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما﴾ **٢٣ الإسراء** ، وقضى ــ كما تعلم سعادتك ــ تعني حَكَمَ ، أي أنه أصدر حكماً يلزم المؤمن باتباعه والتقيد به . وإذا كان ربي قد جمع بين عبادته والإحسان للوالدين ــ في آية واحدة ــ فكيف أخالف حكمه وأنا المؤمن بتعاليمه ؟ ومن جهة أخرى ، أحمد الله على أنني لست القائل « إن الفتى من قال هاأنا ليس الفتى من قال كان أبي » وإلا لطالب الموقعون على العريضة التي أمام سعادتك أن أجلد حتى الموت ، أو أرجم . أؤكد لعطوفتك أن مقدمي هذه العريضة قد شوّهوا الحقيقة وحرّفوا الواقع ، لتأتي شكواهم وفق ما أرادوها أن تكون عليه .

تغيرت نظرات سعادته ، فباتت معجبة ومتفهمة فأضفت :

ــ إن مجتمعنا يا صاحب السعادة ، غارق في مفهوم الطبقية ، التي تحول دون تطورنا ، كشعب خليق بالحياة ، والواقع الذي يقوم عليه مجتمعنا اليوم ، مخالف لتعاليم ديننا العظيم . لقد قال الخالق في قانونه : إنه رفع بعضنا فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضنا بعضاً سخرياً لا ليحتقر الغني الفقير ، بل ليكتمل بناء المجتمع ، وأنا أقول للشباب : إن الأبناء غير مسؤولين عن أخطاء الآباء ، وإن عليهم أن يعدوا أنفسهم ليصبحوا بعد حين آباء يتشرف الأبناء بالانتساب إليهم .

قال عطوفته متسائلاً :

ــ لِمَ هذه الشكوى إذن ؟

ــ إنها تجاوب واضح مع الواقع الاجتماعي الذي يسيء فيه فهم ديننا القويم . ولو سمحت لي عطوفتك لرويت لك وقائع حادثة غريبة ، حدثت منذ أسبوع تقريباً ، تؤكد ما أقول . هناك اجتماع موسع رفيع لرجال السياسة الذين تنادوا لتشكيل حزب جديد ، يجمع الأحزاب القائمة الآن كافة . كنت في عداد المدعوين ، رغم أنني لست على مستواهم الاجتماعي ، ولا ريب أن النبأ قد بلغ عطوفتك .

ابتسم عطوفته وقال :

ــ أهو أنت الذي نسفت ذلك الاجتماع ؟ آه .. آه ... قل لي ماذا حصل .

ـــ وجهوا إلي الدعوة فلبيتها، ولمّا اكتمل العدد قام « .. بيك » وعطوفتك تعرفه ولا ريب وتعرف أسرته التي شاركت في الحكم في العهد العثماني، وكانت من المقربين، قام سعادته وقال بلهجته المترفعة: «لعن الله هذا الزمان الذي أصبح فيه ابن الزبال وابن العتال وابن السمان «البقّال» طبيباً ومحامياً ومهندساً. يا ليتهم ماتوا ولم يشهدوا هذه الأيام!» لم أستطع السكوت أمام هذه الغيبوبة العميقة التي يعيش فيها مع أمثاله. فقاطعته قائلاً: «الأفضل أن تقول يا ليتك متّ، ولم تشهد هذه الأيام».

وساد الهرج والمرج في ذلك البهو الفسيح ـــ وانقسم الحاضرون إلى لائمين ومستغربين ـــ فخرجت قبل أن يتطور الأمر، فأضطر لسحق رأس هذا البيك، الذي يرى أن ابن الزبال يجب أن يبقى زبالاً وابن العتال عتالاً بالوراثة، بينما تبقى أسرته وأسر أمثاله المصدر الوحيد للشخصيات التي تحكم وتسود. فإذا كان الله قد رفع البشر درجات ليتعاونوا في المجتمع، لا ليزدري بعضهم بعضاً، فكيف نتقبل من مواطن يزعم أنه مسلم أن يحصر العلم والرقي في أصحاب المعالي والأكابر كما كان الحال في عصور التجهيل وهم الذين محوا من تاريخهم ما كانوا عليه، قبل أن يصبحوا حكاماً، ومن ذوي الألقاب؟

عندئذٍ قال عطوفته وهو يمزق عريضة المشتكين:

ـــ إن أفكارك يا أستاذ، تسبق زمانك بمائتي عام. تلطف في مسيرتك وليوفقك الله.

إن هذه الواقعة، تعطي صورة واضحة للرؤية السطحية التي سادت مجتمعنا وللتزمت الذي ورثه المتدينون من العصور المظلمة السابقة وهو تزمت يحجر على العقول ويحيلها إلى جماد مطلق. وهذا التخلف الفكري كشف عن ظاهرة أشد خطراً. إنها الحرب الضروس التي يشنها بعض المستشرقين الذين تدفعهم جهات معينة للحط من قيم ديننا وقدسيته، وحث الشبان الناشئين على اعتناق مذاهب ومبادىء تخدم المصالح التي خطط لها، فجندوا لتحقيقها رجالاً على مستوى عالٍ من الثقافة، لاستغلال جمود الفكر الديني، إزاء موجة الوعي التي حركتها بعنف المعطيات العلمية الحديثة، والمبادىء الجديدة التي راحت تكتسح أوساط المتعلمين.

وقاعدة تلك الحرب رجال درسوا اللغة العربية فاستشرقوا و«تعمقوا» في دراسة القرآن فجمعوا الآيات التي تدعم مزاعمهم بفساد هذا الدين، وجاؤوا إلى بلادنا يبثون سمومهم في جلسات ينظمونها على شكل حوار، تاركين الشبان المستمعين يتخبطون بين «الحقائق العلمية» التي يثيرونها بمكر ودهاء وذكاء وما يقابلها من تعصّب أعمى يعم المتكلمين باسم

الدين الذين كانوا يوالون مسيرتهم على مبدأ «من تعمق كفر» مع أن ديننا لا يخاطب إلا العقول .

واللقاءات المفتوحة التي أقمتها حينذاك كانت أشبه بهجوم مضاد أو إعداد لجيش مدرب قادر على مجابهة المعتدين والحد من الآثار السلبية التي يخلفونها في النفوس حيث كانوا . كانت لقاءات حرة ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، يحضرها من يشاء ، بصرف النظر عن هويته ومعتقداته ، يطرح ما شاء من أسئلة ، ويحصل على أجوبة لها ، بأسلوب يجمع بين العلم والمنطق السليم .

ولم يكن الحاضرون كلهم من المسلمين ، فقد اكتشفت ذات مرة ــ وبشكل عفوي ــ وجود اثنين من غير المسلمين ، أرسلتهما جهة معينة ، لينقلا لها ما يدور في كل جلسة من نقاش وتحليل . جاء الاكتشاف عفوياً كما ذكرت ، عندما طلب الشابان طرح أسئلة ، ظلا يكتمانها ، خشية أن يتعرضا للأذى ، وأدهشني طلبهما لأننا ما كنا نعترض ، من حيث المبدأ ، على أي سؤال ، لكن الدهشة سرعان ما اتخذت صورة أخرى ، عندما قال الأكبر منهما أنهما ليسا مسلمين وأنهما جاءا متعمدين ليتأكدا من حقيقة ما قيل بأننا نحرض المسلمين على غير المسلمين .

لكن الجلسات العديدة التي حضراها لم يتم فيها تعرض من قريب أو بعيد للأديان الأخرى لذلك تغيرت وجهة نظرهما ، وأصبحا يحضران بدافع شخصي لأنهما باتا معجبين بمفهومنا للدين .

قلت مستفسراً : هل هو متأكد من أننا ما كنا نعرف أنهما غير مسلمين ؟ فردّ بإصرار أنه متأكد تماماً وأن هذا التأكد هو الذي دفعه إلى إعلان حاله وأردف قائلاً .

ــ تأكد لو كان مفهوم الدين الإسلامي لدى كل المسلمين متفقاً مع ما تقولون وتشرحون لاختلف الحال في بلادنا .

سألته عما دفعه إلى إعلان هذه الحقيقة الآن مؤكداً أنها لن تغير من الأمر شيئاً وأن الأخوة والزملاء الحاضرين يرحبون بوجودهما بينهم ، فرد قائلاً :

ــ أنا معجب بكم وكذلك صديقي . وهناك مستشرق هولندي سيصل يوم السبت المقبل ليثير موضوع الدين معك . لن أقول من الذي استقدمه لأنني شخصياً لا أعرفه ، لكنني أعرف أن الغاية هي محاربة اعتدالكم في مفهوم الدين لأنها قد تدفع ببعض الشبان إلى تغيير معتقداتهم !

عمت الدهشة وجوه الحاضرين فقلت :

ــ وهل هذه دعوة رسمية كلفت بنقلها إليّ أم هي مجرد اقتراح من جانبك ؟

ــ بل هي إحاطة بعلم من جانبنا ، لأن أشخاصاً معينين ، سيحضرون لدعوتك إلى تلك الجلسة وتأكد من أننا سنكون معك بين الحاضرين وسنجمع عدداً من رفاقنا ليحضروا اللقاء معنا .

وحان الحين . وجاء وفد يغدق الثناء والمديح ويدعوني إلى لقاء « قمة » في العلم والفكر لأتعرف فيه على دكتور لاهوتي جاء خصيصاً لمناقشتي في موضوعات شديدة الأهمية أعدّ لها في بيت واحد من الشخصيات المرموقة من الذين أسميهم « قادة حرب التهديم » .

وهناك مثل فرنسي يقول : « رجلٌ مُنْذَر ، يعادل رجلين » وقد جاءت الدعوة إنذاراً . فاتفقت مع أربعة من الزملاء بينهم خريج الشريعة الذي كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وثلاثة جامعيين ، كانوا السبب الأول في إقامتي تلك اللقاءات المفتوحة ، وأعددنا جهاز تسجيل يحمله واحد منهم ، وجهازاً ثانياً مع آخر على سبيل الحيطة ، بحيث نكون على أهبة الاستعداد إذا ما حل الموعد ، وجاء الداعون ليصحبونا إلى اللقاء المبين .

اللقاء الأول

أُدخلت مع الزملاء إلى بهو فسيح يعج بالحاضرين، فاستقبلنا صاحب الدار، وقدمنا لضيفه الذي وصفه بأنه شهادة عليا في اللاهوت من جامعة أوربية معروفة وأنه يلم باللغة العربية إلماماً كاملاً، يعينه على النطق السليم والكتابة دون صعوبة أو عائق. ولما تمت مراسم التعارف ابتدرني الرجل «القمة» قائلاً:

ــ سمعت أنك متخصص في الشؤون الدينية، وهو أمر لا يخرج عن دائرة اختصاصي، فأردت أن نتعارف لنتبادل وجهات النظر لصالح الحق.

كان يتكلم بلغة سليمة مع لكنة بسيطة في بعض الأحرف. قلت:

ــ وها أنذا أمامك لبحث أي موضوع تطرحه.

قال بمكر ودهاء وبلهجة المشفق:

ــ لكنني أخشى أن تغضب من صراحتي لأن الموضوع حساس جداً ولا بد من معالجته بكثير من التسامح.

أجبته مبتسماً:

ــ الغضب في أي مناقشة دليل على قصور المناقش وعجزه. اطمئن.

قال بلهجة مفعمة بالاستفزاز:

ــ حتى لو قلت: إن نبيكم كان مريضاً بداء الصرع، وكان عمه يستخدمه كغلام في رحلاته التجارية إلى بلاد الشام، وكان يحط رحاله في موقع فيه صومعة عابد مسيحي يبقي الغلام عنده حتى عودته. وإن بقاء الغلام مع العابد كان المعين الرئيسي لما علق في ذهنه من شذرات من الدين المسيحي كان يرددها العابد في صلواته، وإنه لما اشتد به المرض دفعه خياله المريض إلى المناداة بما علق في ذهنه من أقوال ذلك العابد زاعماً أنه دين جديد يوحى إليه من السماء؟

صمت برهة وراح يرقب آثار قوله على وجهي ثم أضاف بمكر :
ـــ معذرة عما قُلت . إنها خلاصة ما جاء عن دينكم في المراجع .

قلت مبتسماً ومتحدياً :
ـــ ليس في ذلك ما يغضب أو يزعج ، ولو شئت أضفت ما أغفلت ذكره مما جاء في تلك المراجع . أتغضب مثلاً لو قلت لك : إن من تزعم أنه ابن الله هو في الحقيقة ابن سفاح زنت به أمه كما يزعم اليهود فحملته وفرت به إلى مصر تخلصاً من العار الذي لحقها وإنه شب هناك وانتقل إلى « التيبت » حيث تتلمذ على يد الدالاي لاما « اللاما الأعظم » كما يقول مرجع بريطاني منع من التداول وإنه عاد إلى موطنه يبشر بما تعلمه انتقاماً من الذين أذلوه مع أمه في طفولته من بني جنسه اليهود ؟ لو غضبنا يا سيدي لقذف كل منا الآخر بما تصل إليه يداه ، ولانفض المجلس دون نقاش أو تفاهم .

رد الرجل بشيء من الانفعال :
ـــ يعجبني ردك رغم أن ما تقوله عن السيد المسيح هو محض افتراء وكذب بدليل ما جاء في قرآنكم .
ـــ تقصد القرآن الذي ابتكره ذلك المريض بالصرع ثمرة لما أوحى له به خياله المريض ! هل يجوز الاستشهاد بباطل لدعم حق؟ لو جاز ذلك لكنت مديناً لنبينا المريض الذي خدعنا فجعل للمسيح مقاماً مرموقاً في نفوسنا بفعل دينه المزعوم الذي ادعى أنه وحي سماوي والذي أحاط فيه المسيح بآيات الاحترام والتقديس . ولولا انطلاء خدعة نبينا المزعوم علينا لوجدتني أردد هذه الأقوال حيث أكون بثقة وجدية ، وتأكد أنني لو فعلت ذلك لوجدت آذاناً صاغية كثيرة .
ولولا القرآن الذي ابتكره نبينا المصروع وصدَّقه الناس ، وأنا منهم ، لما وجدت ما يمنعني من تصديق تلك الأقوال هذا عني أنا ، أما أنت فإنك لا تستطيع أن تأخذه سنداً لنقض هذه المزاعم ونفيها إلا إذا كنت مؤمناً بصحة ما جاء فيه .

أُرتج على الرجل ، فصمت لحظات ، وأجال الطرف من حوله ثم قال مبتسماً مخاطباً الحاضرين :
ـــ ستكون الجلسة ممتعة مع الأستاذ وأنا شاكر لكم أن عرفتموني به .

أردفتُ معقباً :
ـــ حكاية الصرع والنقل والتحريف سأوردها لك كما عرفتها من مصادرها لنخرج بعد ذلك متفقين على رأي معين نبدأ منه حوارنا .

حدّق في وجهي ملياً ثم قال :

ــ أنا موافق بالطبع لأن هذا سيجعلني أحيط برأيك الصريح على الأقل .

ــ هذا التعريف وارد في موسوعاتكم عن نبينا ، وأياً كانت الجهة التي وضعته ، ورروجت له وكل ما قيل عن علاقة الغلام محمد بالناسك الذي عرّف باسم « مار بحيرة » والذي كان يُؤويه ويعطف عليه حتى عودة عمه ، ويلقنه مبادئ المسيحية ، فإنني على استعداد لتقبل هذا النص على عُجره وبُجره كما يقال ، شريطة أن نحدد موضوع النقاش . فمحمد إنساناً ما كان ليعنيني بشيء لو لم يسخر بي وبالملايين من أسلافي وأقنعنا بترهاته تلك وجعلنا نعتبرها ديناً منزلاً من السماء مع أنها منقولة عن تعاليم السيد المسيح . أكان موسى النبي يشغل فكرنا لولا التوراة والمسيح لولا الأناجيل؟ إن أي شاعر أو مفكر أو بطل قصة شعبية خرافية كان سيشدنا إليه أكثر منهم مجتمعين لولا اعتقادنا بصحة ما جاءوا به .

وإزاء سكوت الرجل والفضول الذي ارتسم على وجوه الحاضرين على وفرة عددهم قلت مسترسلاً :

ــ محمد هذا ، كان مريضاً بالصرع والوهم ، اتخذ مما رسخ في ذهنه من أقوال « مار بحيرة » سبيلاً لتأليف ما زعم أنه دين ، فهل من نقطة أخرى نبدأ منها بحثنا ؟

قال الرجل بمكر المحترف ودهائه :

ــ يعجبني حماسك وأحسدك على سعة صدرك . نعم هناك نقطتان أخريان ، هما الشبق الذي كان يعيش فيه مع قومه ، وما زالوا عليه حتى اليوم ، الأمر الذي جعله يكرس المتعة الجنسية ، ومضاجعة النساء اللواتي يشترونهن بأموالهم تطبيقاً لهذه المتعة المحللة بنصوص القرآن . والنقطة الثانية : استرضاء اليهود بتمجيدهم في آيات معينة ليحظى بتأييدهم ، فلما خذلوه تحول إلى محاباة النصارى . وهناك عشرات الآيات تؤكد صحة ما أقول .

هتفت مشجعاً :

ــ مرحى محمد هذا مصروع وملفق وشبق ، ومُحلّ للجنس سبق « فرويد » الذي جاء بعده بقرون ، عول على الجنس لإمتاع المسلمين ، منافق حاول استرضاء اليهود ولما فشل تحول إلى المسيحيين ، كل هذا يؤكد أنه دعيّ لا نبي ، فهل نبدأ بمناقشة هذه النقاط الآن أم تراك تفضل تحديد موعد آخر لتكون أكثر استعداداً لتأييد أقوالك ؟

كنت متأكداً من أنه سيحدد موعداً آخر لأنه فشل في إثارتي بأقواله المهينة الساخرة ليجعلني أشتمه وأنسحب من اللقاء غاضباً لاعناً كما يفعل الكثيرون في مثل هذه المواقف .

كان يتوقع أن أنصرف ساخطاً أغرقه باللعنات والشتائم وأصفه بالكافر وبذلك أحقق ما كان يتوخاه وما كان يعتمد عليه لتأكيد تفوقه. وصح ما توقعته إذ اقترح أن نلتقي مساء غد الأحد في المكان نفسه الساعة السادسة مساءً.

خرجت مع زملائي بكل هدوء وأدب بعد أن ودعنا صاحبَ الدار والحاضرين، ولما أصبحنا خارج المنزل قال زميلي خريج الشريعة بلهجة تغلي بالغضب:
ـــ والله لولا هدوء أسلوبك لحطمت رأس هذا الكلب الحقير.

فقاطعته معقباً:
ـــ ولأعطيته بذلك الدليل الناطق على عجزنا ونجاحه فيما خطط له. كلا يا عزيزي لقد وجدت نفسي في مثل هذا الموقف مرتين من قبلُ وتعلمت درساً لا يُنسى. كان نبينا الكريم يواجه أقوالاً أسوأ من تلك التي قالها هذا الحقير، لكنه كان يجابه القائل بهدوء يؤدي إلى اندحار المفتري أو قناعته بالرسالة، ألم تقرأ حادثة رجمه بالحجارة، وإصابته في قدمه؟ لو عاد على الفاعلين بعدد من مؤيديه وهو في بداية الطريق لحلت الكارثة ولتحقق ما كان يريد المشركون. الرجل كما رأيتم وسمعتم يعتمد على المعنى السطحي للعبارات التي يقرأها ويتخذها حجة ودليلاً وسوف نلقنه درساً مفيداً يظهره على حقيقته بعيداً عن مفهوم الدين.

وفي اليوم التالي وقبل الموعد بسويعات جاء أحد الشابين المتعاطفين معنا، وكان حاضراً اللقاء مع مجموعة من رفاقه، ينقل إلينا دون علم من جماعته ما قاله ذلك اللاهوتي بعد انصرافنا. اعترف للحاضرين بأنني من طراز مختلف عن المسلمين لم يسبق أن التقى بمثله من قبلُ لكنه لن يعدم الوسيلة التي يلحقني بها بمن سبق له الالتقاء بهم من أتباع خرافة محمد لأن الثغرات في ذلك الدين المزعوم كثيرة وكلها تؤكد بطلانه!

اللقاء الثاني

في الموعد المحدد دخلت مع زملائي ، ومعنا أجهزة التسجيل فقدمنا التحية للموجودين الذين زاد عددهم بشكل ملحوظ ولذلك المستشرق العتيد ، وجلست قبالته في المكان المخصص لي وحولي الزملاء بعيداً عن كتلة الحاضرين . ولما استقر بنا المقام ، فتح اللاهوتي حافظته ، وأخرج منها مصنفاً راح يقلب أوراقه . قلت متسائلاً :

ـــ هل من جديد نضيفه إلى ما حددناه بالأمس ؟

ـــ ليس بالضرورة ، لكنني جمعت هنا ما استطعت جمعه من آيات قرآنكم الذي صنفه نبيكم وكلها تشير إلى أن الله ربكم كان ديكتاتوراً يتحكم بكل حركة من حركاتكم كما يشاء ، فلا تقدرون على عمل شيء إلا إذا حاز على موافقته المسبقة ، لكنه يناقض نفسه بعد ذلك ويهدد بالعذاب والنار أولئك الذين فعلوا ما وافقهم على فعله ومن هنا نستخلص أنه إله ديكتاتور ظالم كما قلت يتصرف على هواه ويتلذذ بتعذيب المخلوقات ، كما هو واضح في هذه الآية . . .

وأدنى من عينيه ورقة أخرجها من المصنف وراح يتلو ما فيها :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ ١٦ الإسراء فهو كما ترى أراد تدمير تلك القرية ، فأمر مترفيها كما يعترف أن يفسقوا فيها ، ولما امتثلوا لأمره اتخذها ذريعة لتبرير فعلته بتدمير القرية عن آخرها ، ولو كان نبيكم على اتصال بالسماء حقاً لما كان يقول مثل هذا الكلام ، إله يتذرع بحجة يختلق ليدمر ويرضي ساديته . وهمّ بقراءة آية أخرى مما جمعه في تلك الورقة فاستوقفته بحركة من يدي قائلاً :

ـــ رويدك لا تخلط بين جانبين رئيسيين . نحن الآن أمام مشكلتين مختلفتين :

الأولى ذلك النبي المريض بالصرع ، الشهواني الشبق الذي جمع ما تعلم عن رجل دين مسيحي وأضاف ما استوحاه من خياله المريض فجعله قرآناً وديناً .

والثانية هي هذا الإله الديكتاتور السادي الذي يستهويه تدمير مخلوقاته فيفتعل المبرر ليرضي ساديته والأمر لا يسمح بمناقشة المشكلتين معاً . بمثل هذه البساطة . والأفضل في

رأيي هو البدء في مناقشة مشكلة هذا النبي المهووس. فإذا أثبت أقوالك عنه، كانت الآيات التي نسبها إلى إلهه المزعوم غير ذات قيمة لأن النتيجة ستدلك على بطلان ما زعمه بشكل تلقائي لأنها ستكون حصيلة عقلية مريضة وشاذة لا يُعتدُّ بها. ألست معي في ذلك؟ ستكون مجرد سفسطة من نتاج عقل مريض بقي صاحبه طليقاً حتى مماته لأن مشافي الأمراض العقلية لم تكن قد أقيمت بعدُ في ذلك العصر، ولو كانت قائمة لأودع في الحجر فيها، ولجنبنا هذا الهراء الذي خدعنا به.

حدق الرجل في وجهي برهة ثم قال:

ـــ موافق لنبدأ بالنبي المزعوم.

ـــ حسناً ـــ هذا النبي المريض اليتيم ـــ الذي تقول مراجعك عنه: إن عمه كان يستخدمه غلاماً في رحلاته التجارية إلى الشام، هل تقول مراجعك: إنه كان متعلماً يحسن القراءة والكتابة أم تراه تعلم على يد «المار بحيرة»؟

ـــ ليس هذا فيما أعلم. لكنني لا أرى أي أهمية لهذه النقطة في بحثنا.

ـــ أعني أن الذين وصفوه بالأمية لم يفتتنوا.

ـــ لا خلاف في ذلك.

واستدرك قائلاً وهو يرفع يده!

ـــ لعلك ستتخذ أميته حجة فيما تقولونه عن الفصاحة في القرآن. كان معظم شعراء العرب أميين لكنهم لم يكونوا أنبياء رغم بلاغتهم وفصاحة معظمهم؟

ـــ لا تظنن ذلك. لكن اعترافك بأمية هذا النبي المزعوم يثير سؤالاً هاماً هو: هل ورد في أي من الأناجيل التي ألغيت والخمسة المعتمدة الآن ذكر للطريقة التي خلق الله العالم والإنسان بها؟

ـــ ورد بعضها في أسفار التوراة.

ـــ أنا لم أقرأ شيئاً بيناً في سفر التكوين أو سواه مما اطّلعت عليه فهل جاءت طريقة خلق الإنسان؟

تضاحك الرجل وقال ساخراً:

ـــ تقصد حكاية آدم والتفاحة. لقد أوردها نبيكم في قرآنكم.

ـــ دعنا من هذه الأسطورة المضحكة. إن اسم حواء لم يرد في قرآننا. ولا شك أن نبينا المزعوم قد نسيه ففاته أن يورده في آياته المختلفة. أنا أعني بدء خلق الإنسان الأول.

ازدادت السخرية في لهجته وهو يقول :

ــ يقول شيوخكم : إن ربكم جمع كمية من التراب جبلها بالماء حتى صارت طيناً فسوى منه شكل آدم ثم نفخ فيه فتحول إلى إنسان لكنه نسي أن يصنع حواء الزوجة التي قررها له فأخذ بعض أضلاعه وحولها إلى الأنثى المطلوبة .

ــ دعك مما يقول شيوخنا . لقد سمحوا بهرائهم لأمثالك بالظهور ليتطاولوا على الدين . وشيوخي كما ترى ليسوا طرفاً في المناقشة .

علت وجهه أمارات الارتياح فقال مبتهجاً :

ــ أرى أنك قد غضبت .

ــ مطلقاً أبداً كل ما في الأمر أنني أود أن أجعل المناقشة بيننا على ما يقوله أحدنا ، رداً على ما جاء به الآخر ، لا على ما يقال في الأوساط الأخرى خارج هذا المكان .

ــ أفهم من ذلك أنك لا تؤمن بما يقوله شيوخكم . أنت لست مسلماً .

ــ أمرك عجيب يا سيد . هل قُدمت لك بصفتي ممثلاً لشيوخ المسلمين أم بصفتي الخاصة ؟ أنا مجرد إنسان مسلم أناقشك في أمور الدين بعيداً عن المهاترات التي تعتقد أنك ستستفزني بها .

قال باسماً :

ــ لم أقصد إثارتك وإغضابك ليكن ما تريد . ماذا تقصد بسؤالك عن بدء الخليقة ؟

ــ أقصد أنني سأورد لك الآيات التي ابتكرها نبينا المريض حول هذا الموضوع حسب تسلسل نزولها أعني حسب تسلسل ابتكارها من قبل نبينا هذا لنرى ما إذا كانت منقولة عن التوراة أو الإنجيل ، أم هي جديدة عليك !

ــ أنت بذلك توجه المناقشة إلى الوجهة التي تريدها .

ــ غريب أمرك يا سيد . ألست القائل : إن نبينا هذا نقل ما حفظه من أقوال المار بحيرة وأضاف إليه ما ابتكره خياله المريض ، وجعله موحى إليه من الله الديكتاتور ؟

وإزاء سكوته وتردده أردفت قائلاً :

ــ لقد ابتكر نبينا المصروع عدداً من الآيات حول هذا الموضوع الأساسي سأوردها لك حسب تسلسل ورودها ، وعليك أن تنبهني إذا كانت قد وردت من قبل تلميحاً أو تصريحاً في كتبكم المقدسة وبذلك تؤكد صحة وجهة نظرك .

ــ لا اعتراض لي على ذلك ، لكن هذا يحتاج إلى تحضير لأهميته في بيان الحقيقة .

ـــ لا أمانع أن نرجىء البحث في هذا الموضوع إلى جلسة قادمة . لننتقل الآن إلى موضوع الشبق وإهدار حقوق المرأة ، وتحويلها إلى أداة متعة باسم الدين . هل يحتاج هذا الموضوع إلى تحضير كذلك ؟

فكر الرجل قليلاً ثم قال :

ـــ لا بأس ، فكل الطرق تؤدي إلى روما . كما يقول المثل .

ـــ حسناً . أعتقد أن حرية الجنس كانت شائعة في وسط بني الإنسان ، منذ أن كانت الغريزة تتحكم في الإنسان البدائي ، وحتى عصر الإدراك ، وخير دليل على ذلك متحف روما الذي يذخر بالمنحوتات والصور وكلها تظهر ما نطلق عليه اليوم اسم العورات سواء للنساء أو الرجال . في هذا المتحف نرى كيف تعالج المرأة عضو الرجل والعكس كذلك ! ولا ننسَ أيضاً ما ورد في بعض مراجع العهد القديم من أن كلاً من دواد وسليمان كان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة عشيقة .

حاول مقاطعتي ، فأشرت له بالتريث وأضفت :

ـــ أنا لا أقول إنها كتب مقدسة اطمئن وأذكرك كذلك بما كان يطلق عليه في عصر الرومان اسم المقيأ Vomirum وهو الحوض الذي كان يستعمله المترفون لافتعال التقيؤ ليعودوا مجدداً إلى تناول ما لذَّ من الطعام . وهذا كان يؤكد أن الإنسان كان ينقاد لغرائزه ، حتى آلهة الإغريق والرومان لم يترفعوا عن لذائذ الجنس . أليس صحيحاً ما أقول ؟

ـــ إنه صحيح ، لكنني لا أرى أي علاقة لما تقول بما نحن فيه .

ـــ رويدك لو تفضلت . أردت أن أبين أن المتعة كانت غاية الوجود لدى الإنسان في عصور البدائية والإدراك ، والأقوامُ التي كانت تعمر هذه المنطقة قبل الإسلام لم تكن مختلفة بشيء فلما جاء نبينا المريض بالصرع ، نسج من خياله قانوناً لا يمنع التمتع بالنساء دفعة واحدة بل يحمل المتمتع مسؤولية متعته ، أي يجعله مسؤولاً عن المرأة التي يتمتع بها وعما تنجبه من أطفال . جعلهم يحملون اسمه ، بعد أن كانوا مجرد أدوات يستخدمها مالكها ، ولو شاء أن يقتلهم لفعل دون أي مساءلة لأنه يمتلكهم . ومالك الشيء حر التصرف فيه ، وأي امرأة يود أن يتمتع بها الرجل عليه أن يتحمل كامل مسؤوليتها ، سواء بإعالتها أو إيوائها ، أو تبني أبنائه منها . ألا ترى معي أنه بهذا الحكم المبتكر قد حول المرأة من مرتبة المتعة الرخيصة الشائعة إلى مستوى الحلم المبتكر ، وقد حول المرأة من مرتبة المتعة الرخيصة الشائعة إلى مستوى الوجود المحترم والمشاركة في الأسرة والمجتمع؟ ألا ترى أنه بذلك قد حول المرأة من مجرد متعة مباحة لكل قادر إلى متعة قاصرة على صاحبها لا يشاركه فيها أحد

ما دامت في عهدته ؟ ألا تعتبر هذا الابتكار من جانب نبينا المريض تطوراً اجتماعياً تقدمياً أم تراك تراه إفساداً للحياة العامة وإغراقاً في الإباحية ؟ ولم يكتف نبينا بهذه الخطوة بل فرض عقاباً صارماً على الزاني والزانية أي على الذين يتمتعون دون تحمل المسؤولية .

والتفتُّ إلى الحاضرين موجهاً السؤال :

ــ ما رأيكم أيها السادة السامعون ؟

وقبل أن يبدي أحد رأيه قاطعني الرجل قائلاً :

ــ هذا الذي قلته لا يغير من الأمر شيئاً . فالمرأة كانت متعة وظلت متعة . كانت تشرى بالمال وظلت تشرى كذلك .

ــ غريب أمرك صدقني . أراك تعتبر مناقشتنا معركة حياة أو موت ، إذا انتصرت فيها توجت رأسك بأكاليل الغار وعلوت فوق الرؤوس ، وإذا هزمت خسرت كل شيء وأصبحت مذموماً مدحوراً . إنه لأمر مؤسف أن تكون هذه قناعتك كإنسان مثقف عالم في بحث ذي مساس بالإنسان والمجتمع .

قال متوتراً :

ــ أنا لست كما تقول إلا إذا كنت تريد أن تظهرني على هذه الصورة لغاية في نفسك .

ــ ثق أني لا أهدف إلى ذلك ، لكنك تصرُّ على أن المرأة كانت متعة تُشرى وظلت متعة تشرى باسم الدين ، وتجاهلت الفارق الواضح بين الفوضى التي كانت عليها في المجتمع ، وبين ما حباها به الدين برفعها من مرتبة السلعة التي تلقى كل احتقار إذا استنفد مشتريها غاياته منها ، دون أن يحتمل أي مسؤولية ، فيبيعها لمن يرغب في شرائها ، وبين المرأة ذات الوجود والحقوق التي تشترى بموافقتها ، وتعامل كمؤسس للأسرة يَسأل عنها مشتريها كما تسأل عنه ، ويُسأل عن نسلها شاء أم أبى . تناسيت أن الطفل كان قبل ذلك ابن الفراش بينما جعله الدين معروفاً باسم أبيه الذي يلتزم بإعالته وتربيته ، وأن الدين الجديد خلق مفهوماً لا سابق له ، يقوم على أساس الأسرة المتكافلة المتضامنة التي تحفظ لكل فرد حقه بالنسب وبالمال .

ــ أنا لا أعترض على ما تقول ، لكنني أعترض من حيث المبدأ على ما جعله نبيكم قاعدة مطلقة . ألم يحلّ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع إضافة إلى ما ملكت أيمانكم ؟ ألم يُبقِ بذلك على تجارة الرقيق الأبيض إرضاء لشبق أبناء جنسه ؟!

ــ غريب ما تقول وأقسم لك أن قولك هذا أشبه بمن يروي واقعة ساخرة عن مضيف قال

لضيفه وهما على مائدة حافلة بلذيذ الطعام : لا تأكل وسكت عن بقية العبارة التي هي « إلا أفضل ما على المائدة » بسبب غصة في حلقه .
إن لدى المسلمين طرفة مماثلة في آيتين متواليتين : الرابعة والخامسة من سورة « الماعون » تقول الأولى : ﴿ فويل للمصلين ﴾ ٤ الماعون والثانية ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ٥ الماعون فيقول الأولى ويسكت لإبراز التلاعب في أقوال المتحدث .

قال بشيء من الغضب :
ــ أنا جاد فيما أقول لا أتلاعب . أليس هذا من صميم قرآنك ؟
ــ إنه من الصميم . لكنك أغفلت التتمة وحذفتها . إنها الآية الثالثة من سورة « النساء » ونصها ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألّا تعولوا ﴾ والعدل ــ كما تعلم ــ موقوف على الرجل نفسه تبعاً لمفهومه للكلمة . هناك من يرى أنه إذا ما ساوى بين نسائه في النفقات كان عادلاً . وهناك من يعتقد أن ميله لواحدة منهن أكثر من الأخرى خروج عن دائرة العدل ، فلا يتزوج إلا واحدة للتقيد بأحكام الآية .
ــ وعلى فرض صحة ما تقول فكيف تفسر ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ ٣ النساء أليس هذا القول تشجيعاً للرق الأبيض باسم الدين ؟

قلت ملاطفاً لأخفف الحدة التي بدت في لهجته :
ــ رويدك . نحن لا نتكلم بالفرضيات . إما أن يكون ما قلته صحيحاً فنأخذ به ، وإما أن يكون خطأ فنناقشه . لنتفق على صحة ما نتوصل إليه . هل هناك لبس في كلمات الآية ؟ أنا لا أريد ربطها بما قبلها ، وإثارة السبب الذي أدى إلى هذه النتيجة كي أتجنب توسيع رقعة النقاش . لكنني أصر من حيث المبدأ على أن أتلقى جواباً صريحاً على سؤالي : هل يؤكد معنى كلمات هذه الآية صحة ما ذهبت إليه ؟
ــ أكرر ما قلته المعنى واضح ، ولكن أليست عبارة ﴿ ما ملكت أيمانكم ﴾ ٣ النساء إبقاءً للرق وتشجيعاً على ممارسته ؟
ــ أراك تكرر هذا المقطع دون أن تنتبه إلى ما يعنيه ، إن كلمة « ملكت » : فعل يدل على ما مضى من الزمان لا على ما سيكون ، وعندما أنزلت هذه الآية أو صنعها نبينا المزعوم كان الرقيق شائعاً وكانت النخاسة مصدر رزق وفير ، وكان الأثرياء القادرون يملكون أعداداً كبيرة من الإماء والجواري لذلك حدد نبينا الأمر بما كانوا يملكون ، عندما زعم أن هذه الآية أنزلت إليه من السماء وهذا يعني بوضوح أنها تسمح بما هو كائن لا بما سيكون .

ولو أمر نبنيا المزعوم بطرد ما يملكون من الجواري والإماء لازداد عدد المتشردات اللواتي لا يجدن ملاذاً ولا طعاماً زيادة مخيفة . والآية في معناها العام لا تسمح لأي كان بعد نزولها أن يبيع الإماء أو يشتريهن أو يتاجر بهن ، بل أن يبقيهن المالكون حيث هن حتى نهاية أعمارهن . ضع نفسك في مكان هذا النبي المريض بالوهم والصرع وتصرف وأنت الذكي العاقل الأريب . ماذا تفعل في مجتمع يملك القادرون فيه عشرات الإماء ، والأسواق حافلة بالرقيق الذي يعود على المتاجرين به بموارد مغرية وهم المتخصصون في صيد الإماء والعبيد .

ماذا تفعل حيال هذا الانحراف الذي يقوض دعائم المجتمع ؟
أقول هذا انطلاقاً من قناعتك بأن نبينا المريض بالصرع والوهم هو مبتكر هذه الأحكام وليس الخالق الذي لا حدود لحكمته وإدركه . أتبقي علاقة الرجل بالمرأة علاقة السيد بإمائه اللواتي يشتريهن ويبيعهن ويتصرف في مقدراتهن؟ أم تلزمه بالمسؤولية بحيث يقتصر في متعته على من هن رهن تصرفه دون أن يزيد في أعدادهن ؟ ولو حرّم نبينا ما يملكه بنو قومه منهن لامتلأت الأصقاع بالمشردات ولعم الفسق الخاصة والعامة من الشعب ، ألا ترى ذلك ؟

قال وهو يهز سبابته التي رفعها لمقاطعتي :
ــ المشكلة أنك تفسر الأشياء على هواك لتخرج بالنتائج التي ترضيك والتي تخدم وجهة نظرك .
ــ هذا ما تراه . فلنسأل السادة الحاضرين هل فيما أقوله ما ينافي المنطق السليم ؟
ــ لا علاقة للسادة الحاضرين بذلك . النقاش بيننا وليسوا طرفاً فيه .

قال عبارته بشيء من التذمر والغضب بعد أن علت همهمات بين الحاضرين ، وبصورة خاصة بين المجموعات التي استقدمها ذلك الشاب المتعاطف معنا مع زميله . قلت متلطفاً :

ــ شاركني الرأي إذن لنخرج بنتيجة مقبولة ، لنفرض جدلاً أننا نمثل ذلك المجتمع الذي جاء فيه ذلك النبي المريض بقانون من وحي خياله المريض أيضاً يحرم علينا الاستمرار في اقتناء السبايا والإماء اللواتي كنا نحصل عليهن ، سواء في غزواتنا أو بشرائهن من النخاسين ، ويفرض علينا التزامات ومسؤوليات إذا حولناهن إلى زوجات شرعيات . أترى أن هذا القانون يشجع أبناءنا وأحفادنا على الإبقاء على ما كان نهجاً شائعاً بين الأثرياء والقادرين أم تراه يدخل تعديلاً جوهرياً على النظام الاجتماعي ؟ المنطق يقول إنهم ما كانوا ليضيفوا إلى مسؤولياتهم المقننة حيال زوجاتهم مسؤوليات جديدة مرهقة ، أليس كذلك ؟

عاد يهز سبابته مشيراً بها نحوي ويقول :

ــ أكرر القول بأنك تفسر الأشياء على هواك لتخرج بالنتائج التي ترضيك وأظن مخلصاً أن التلاعب في تفسير كلمة « وما ملكت » هو الذي جاء بهذه النتيجة . لكن الحقيقة غير ذلك . إن كلمة « ملكت » تعني ما تملكون لا ما كنتم تملكون كما تريد أن تفسرها . وخير دليل على صحة ما أقول ما يفعله ملوككم وأمراءكم المسلمون والأثرياء فيكم . إنهم يشترون النساء بأموالهم بل ويتمتعون بهن فترات محدودة باعتبارهن أصبحن حلالاً لهم بحكم الدين . ألم تسمع بفضائحهم في أوربا وأمريكا وفي البلاد العربية ؟

قلت موجهاً كلامي للحاضرين :

ــ أنا أقبل حكم الحاضرين وهم ليسوا مسلمين كما أعلم لا تربطهم بي أي علاقة خاصة تدعوهم إلى مجاملتي . أقول للسادة الحاضرين وكلهم من المتعلمين هل تعني كلمة « ملكت » ما كنتم تملكون ، أم ما ستملكون وتصبحون له مالكين ؟

علت همهمة بين الحاضرين فاستأنفت القول :

ــ ألا تدل هذه الآية على تطوير مفهوم اجتماعي سائد بأسلوب يراعي مقتضيات الزمن؟ هل سما أي مجتمع من الحضيض إلى الذروة بقفزة واحدة أم تدرج بهدوء وتؤدة ؟

قاطعني الرجل بصوت مرتفع قائلاً :

ــ المناقشة محصورة بيني وبينك ، فلماذا تثيرها بين الحاضرين؟ إن ملوككم وأمراءكم وأثرياءكم يشترون النساء والبغايا في أيامنا هذه ويكدسونهن باسم الدين في قصورهم باعتبارهن ملكاً لهم . ولو كان النص الديني يحرم ذلك لما فعلوه ، وهم مسلمون !

قلت بشيء من الحدة :

ــ ما هو عدد هؤلاء الملوك الأمراء الذين تستشهد بهم والذين يفعلون ذلك باسم الدين؟ وهلا حددت لي مكاناً أو سوقاً للرقيق تباع فيه الجواري والإماء في العالم الإسلامي ؟ دعنا نلق نظرة سريعة على مجتمع الغرب المتحضر المتدين . المرأة هناك تضاجع من تشاء مرة أو مرات باسم الحرية . وكثير من الأزواج لهم عشيقات وأمرهم معروف والتاريخ يؤكد أن ما كانوا عليه من قبل ازداد في انحطاطه في العصر الحاضر . ورجال الدين أنفسهم لم يترفعوا عن هذا المستوى كما تؤكد المراجع التي قرأناها . فهل جاء في تعاليم السيد المسيح شيئاً من ذلك يحل مفهوم الحرية هذه وهو القائل من تزوج مطلقة فقد زنا ! فكيف بالزاني نفسه ! هل يدل هذا الانحطاط على سوء الدين المسيحي مثلاً ؟! لقد شاهدت بنفسي في مدن أوربية شهيرة نساء يعرضن أنفسهن عاريات تماماً وراء حواجز زجاجية كما

رأيت العشرات منهن في الشوارع العامة ينتظرن أن يخاطبهن الراغب ليتفاهمن معه على الثمن . ورأيت نساءً ورجالاً يمارسون الجنس علناً في الحدائق العامة على مرأى من الكبار والصغار . أنشتم السيد المسيح عليه السلام ونحط من قيمته استناداً على هذا الكمّ الهائل من المسيحيين المستهترين بدينهم؟ نحن نبحث في القانون نفسه ، ولا نبحث في تطبيقه . لقد أثرتني فعلاً بأسلوبك الذي لا سلبية فيه ولا إيجابية . والتفتُّ إلى الحاضرين وقلت :

ـــ أقسم لكم أنني عرفت في مدينة أوربية كبرى فتاة آية في الجمال في بيت للدعارة ذهبت إليه متطلعاً بناءً على توجيه من صديق . جلست إليها ، وأعطيتها مبلغاً من المال دون أن أمسها وقلت لها بأسىً : أنت جميلة جداً ، يتمنى أي شاب أن يفوز بك زوجة له ، فأجابتني بعد أن أكبرت سلوكي بعبارات بريئة أنها حديثة في هذا المكان ، وقد جاءت إليه بموافقة خطيبها لتجمع بعض المال الذي يسمح لهما بإعداد بيت الزوجية . وفي مدينة أوربية أخرى وجدت سيدة تخرج من سوق الدعارة بثياب مغرية فدنوت منها لأسألها ، فرفعت يدها بلطف وقالت : أنا لا أعمل هنا أكثر من ساعتين كل يوم لأساعد زوجي على الإنفاق على طفلينا لأن دخله وحده لا يكفي . ألا يعني هذا أن المرأة في الغرب المتمدن قد انحدرت إلى أسوأ مما كان عليه حال الإماء قبل رسالة نبينا المريض؟ هل يعني هذا أن الدين هو الفاسد أم أن التابعين له هم الفاسقون؟ لقد بات هؤلاء وللأسف الشديد وصمة عار تلطخ صورة الدين!

ثارت همهمات بين الحاضرين وأصوات تؤيد وجهة نظري ، والرجل يحاول تهدئة الحال بذراعيه . فاستأذنت غير مبال بما يفعل :

ـــ جاء في الإنجيل على لسان السيد المسيح قوله : من طلق زوجته فقد زنى ، ومن تزوج مطلقة فقد زنى . ومن هاتين الآيتين نستنتج أن السيد المسيح قد حرم تعدد الزوجات ، وألزم الزوجين بالبقاء متلازمين لضمان سلامة الأسرة والروابط الاجتماعية . لكننا نسمع كل يوم حالات مخالفة لهذه التعاليم السامية . فهل يجوز لي ولغيري أن يزعم بأن تعاليم الدين المسيحي فاسدة ، أم أن هناك من يخالف تعاليم الدين منساقاً وراء مغريات الانحراف التي تستأثر به ؟.

لمس الرجل تجاوب الحاضرين فقال متبرماً بصوت مرتفع :

ـــ هل انتهيت من محاضرتك ، أم تراك تحاول الاستمرار في قلب أوجه النقاش بإقحامك الدين الذي جاء به الرب لتثير عواطف الحاضرين ، فننتقل من موضوع اتفقنا عليه إلى موضوع جديد تحاول إثارته لتستعين به في دعم وجهات نظرك؟ ليس هذا ما نبحثه . وإن شئت أن نوقف اللقاء فلن أعارض رغبتك !؟

قلت مستغرباً تشجعني همهمات الحاضرين وحركاتهم ونظراتهم :

ــ غريب أمرك يا سيد ! أإذا استشهدت بانحراف المنتمين إلى المسيحية أكون قد هاجمت السيد المسيح الذي ما كنا لنجله ونحترمه ونقدسه لو لم نكن مؤمنين بما ابتكره نبينا من خياله المريض ؟! لقد استشهدت بانحراف بعض ملوك وأمراء المسلمين وأثريائهم لتؤكد فساد الإسلام ديناً فأردت أن أرد عليك بدليل قاطع على أن الدين شيء وسلوك أتباعه شيء آخر .

وإزاء سكوته وما علا وجهه من أمارات النفور قلت :

ــ لا يجوز أخذ انحرافات الناس دليلاً على فساد دينهم . ورجال الدين المسلمون ليسوا أفضل من أمثالهم المسيحيين . المهم في موقفنا أن نتفق على رأي واحد حول الشبق والجنس لدى المسلمين ، والنظام الذي ابتكره نبينا من خياله المريض للحد من اعتبار المرأة أداة للمتعة . سأتغاضى عن إثارة الجزء الأخير من الآية وفيه يقول : ﴿ وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ ٣ النساء والذي جعل الزوج هو الذي يفسر معنى العدل ، أتغاضى عن إثارة هذه النقطة الجوهرية وأكتفي بالسؤال :

هل خدمت تلك الآية التمتع بالجنس وإباحة الرق ، أم حدّت من الانغماس فيهما ؟

قال بعد تفكير :

ــ أرى أن الخروج عن النظام دليل على ضعف النظام نفسه .

ــ في هذه الحال تكون الأديان كلها ضعيفة وفاسدة ، رغم أنها تقوم على أسس سامية . إن إغراءات الحياة وهي ما تلخصه الأديان بكلمة الشياطين هي التي دفعت الضعفاء إلى اتباع ما تفرضه أهواؤهم ، وهم بذلك يقدمون الدليل على أنهم ليسوا من الصالحين الذين يمنيهم الخالق بوافر الرعاية في الحياة الأخرى .

والتفت إلى الحاضرين وقلت متسائلاً :

ــ ما رأيكم أيها الإخوان ؟

عادت الهمهمات وعلت أصوات كثيرة تؤكد أنني على حق ، الأمر الذي أرغم الرجل على اتباع طريقة جديدة في الهجوم . قال وهو يرفع يديه مهدئاً اللغط والمناقشات الجانبية بين الحضور :

ــ إذا فرضنا جدلاً صحة وجهة نظرك ، فإنها لا تدلل حكماً على أن محمدكم هذا كان نبياً كما تزعمون !

قلت ضاحكاً :

ـــ أنا لم أزعم بعدُ أنه نبي لقد عرفته لي بأنه مريض بالوهم والصرع ، فاستعملت كلماتك هذه في وصفه كلما جاء ذكره . وبذلك لم أنسحب كما كنت تتوقع ! لكننا لا نستطيع أن ننكر ذكاءه وحنكته فيما ابتكره من وحيه المريض من إشارات واضحة إلى ما جعل الناس يصفونه حينذاك بأنه ساحر أو مجنون ، لكن أحداً لم يذكر اسم « مار بحيرة » في حينه كما حددت في أقوالك . وسأظل أستعمل أقوالك في مناقشتنا ولن أكفَّ عن ترديدها إلا بعد أن تتفق معي على أنه كان نبياً حقاً . أما إذا أثبتت المناقشة صحة وجهة نظرك ، فإنني سأكون شاكراً لك مدى الحياة لأنك ستنقذني من الضلال الذي وقعت فيه مع أسلافي منذ مئات السنين ، وأعدك أن أضم جهدي المتواضع إلى جهدك العميم في كل المحافل مندداً بذلك الدعيّ المصروع . ولعلك تشرفني حينذاك باتخاذي كزميل متواضع يعينك في مهمتك السامية !

علت الضحكات وهتافات بين السامعين ، وتبادل بعضهم إشارات تدل على إحساسهم بحرج موقف ذلك اللاهوتي فقال متضاحكاً :

ـــ أنا أترك لك زمام المبادرة لتثبت صحة نبوة محمد هذا .

ـــ موافق . لكن علينا أن نخرج أولاً بنتيجة محددة حول هذا الموضوع ، فأنا أقول : إن انحراف المسلمين والمسيحيين والمسيحيات في الأحداث التي أوردتها لا تعني فساد الدين المسيحي والإسلامي ، فهل نعفي المسيحيين من تهمة فساد دينهم ونلصقها بالمسلمين وحدهم ؟ إن القيم الأخلاقية الدينية لا يمكن لأحد أن يأتي بدليل على فسادها ، وإلا لكانت الجريمة في حياتنا الاجتماعية ، دليلاً على أن القانون هو الذي يحث على ارتكابها . وإذا عمد البعض إلى التحايل على تحليل بعض المفاهيم وتفسيرها ، فإن ذلك لا يعني بالضرورة فساد المبادئ والأهداف . ومن هنا نستنتج أن نبينا المريض ، كان موفقاً فيما أوحى به خياله المريض إليه فهل توافقني على هذا الرأي ؟

ـــ أود أن أسألك أولاً عن السبب أو الأسباب التي تبرر بها هذا الانحراف .

ـــ أظن أن الجواب واضح ، لا يحتاج إلى تمحيص وتدقيق . خذ على سبيل المثال لا الحصر مذبحة « سان بارتيلمي » التي قام بها الكاثوليك ضد البروتستانت في فرنسا . لقد وضعوا علامات مميزة على أبواب مساكن البروتستانت تظهر في الظلام ، ولما سجى الليل هاجموا السكان الآمنين وقتلوهم . ولم ينج منهم إلا القليل القليل ! ترى من ذا الذي حرض المسيحي على قتل المسيحي ؟ أهو السيد المسيح الذي قال : « أحبوا أعداءكم » أم هم الناطقون باسمه ؟

ـــ ها أنت تعود مجدداً إلى مهاجمة الدين المسيحي .
ـــ اهدأ . أنا أورد واقعة تاريخية يشمئز من ذكرها كل فرنسي مثقف .
ـــ أليس في الإسلام مثلها ؟
ـــ وهل يخلو دين سواء كان سماوياً ، أو غير سماوي من هذه التصرفات التي تنافي كل مفاهيم الأخلاق ؟ لقد أوردت لك هذه الواقعة لأثبت لك أن الدين ، أي دين ، غير مسؤول عن انحرافات التابعين . وإن ما قلته عن شذوذ الملوك والأمراء والأثرياء المسلمين لا يحط من قيمة الدين الإسلامي ، بل يظهر انحراف التابعين .

رفع الرجل يده مقاطعاً وقال :
ـــ لا بأس سأتفق معك من حيث المبدأ على أن انحراف الإنسان عن قواعد الدين لا يعني بالضرورة فساد الدين نفسه ولكن يبقى أن تثبت لي أن محمدكم كان نبياً .
ـــ سأفعل : لنطرق أولاً باب الخلق ، خلق الأرض وما عليها حسب ما ابتكره نبينا من خياله المريض .
ـــ موافق . ولكن لنؤجل البحث إلى جلسة مقبلة . أنا أحسدك على جلَدك وقوة احتمالك ! أما أنا ، فقد تعبت !

وانتهى الأمر بتحديد موعد جديد استجابة لرغبته ، وتجاوباً مع الأصوات التي علت بين الحاضرين مطالبة بإنهاء الجلسة .

حيينا الموجودين ورب البيت ، والرجل الذي جاء به لغاية في نفس يعقوب ، وخرجنا متمهلين . وفي الطريق قال الزميل خريج الشريعة :
ـــ إنه خبيث حقير محترف ، لكنك أفحمته ، وسنعيد غداً سماع التسجيل عندك لنحضر الآيات التي ستكون عماد النقاش .
ـــ لا عليك ما دمت معي ، فإني سأسألك ـــ إذا ما دعت الحاجة ـــ أن تذكر الآيات التي يتوجب الاستشهاد بها في تهجمه المرتقب . المهم أننا ضبطنا أعصابنا وأخمدنا الانفعال الذي كان يحاول إثارته ، لنبدو في موقف ضعيف !.

اللقاء الثالث

في اليوم التالي زارني نفر من الشبان المتعاطفين الذين كانوا حاضرين جلسة الأمس، ليبدوا إعجابهم وقناعتهم بصحة الحجج التي أوردتها، وليعدوا بحضور الجلسة المقبلة، والاشتراك في اللقاءات المفتوحة التي أقيمها في بيتي مساء كل خميس. ولما ذهبت مع زملائي الثلاثة إلى اللقاء وجدتهم منتشرين في القاعة بين الحاضرين على وفرة عددهم.

بدأت الحوار مع اللاهوتي قائلاً:

ـــ سنناقش الآن صحة نبوة نبينا كما اتفقنا، وسيتضح لنا إذا كان ما نادى به زاعماً أنه وحي سماوي وحياً حقيقياً، أم هو ما علق في ذاكرته من أقوال «مار بحيرة» التي سمعها قبل ثلاثين عاماً تقريباً خلال الأيام القليلة التي كان عمه يبقيه هناك في صومعته حتى عودته من رحلته التجارية إلى الشام.

فرد متحدياً:

ـــ موافق. ولديَّ الكثير مما يؤيد وجهة نظري.

ـــ جميل جداً. لقد سألتك من قبل عما إذا جاء في الأناجيل ذكر لكيفية خلق الإنسان والعوامل التي نراها، فقلت: إنها واردة في «سفر التكوين» وسأورد لك الآن الآيات التي جاءت في قرآن نبينا المريض لتثبت أنها منقولة من التوراة وبذلك تؤكد أن محمداً نقلها لأنه سمعها من قبل يقولها الناسك فعلقت في ذاكرته، ولو لم يكن أمياً باعترافك لا يعرف القراءة والكتابة، لقلنا إنه سجلها سواء بالعبرية أو اللاتينية، أو العربية.

قال وهو يحرك يديه متعجلاً:

ـــ لا بأس دعنا نر آياتك تلك.

قلت متجاهلاً لهجة الترفع التي خاطبني بها:

ـــ إن أول آية زعم نبينا أنها أوحيت إليه حول خلق الإنسان تقول: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾ ١، ٢ العلق.

فقاطعني قائلاً :

ــ وهذه وحدها تكفي لتؤكد وجهة نظري . إنها تعني أن الإنسان لم يخلق من طين كما كرر أكثر من مرة في قرآنه ، بل من حشرات خلقت قبله .

قلت ضاحكاً :

ــ أنا أشك في أتكون جاهلاً وأنت العالم اللاهوتي ، وأرى أنك تحاول اختبار معلوماتي لقد اعتُبر قولك هذا مجرد نكتة عابرة أردت أن تلطف بها جو المناقشة .

قال بجدية متحدياً :

ــ بل أعني ما قلت ! وأنا بانتظار تفسيرك لهذا التضارب في أقوال نبيك ، خصوصاً إذا جمعنا بين ما استنزل بعد ذلك من آيات تقول إن الإنسان خلق من طين ثم من صلصال ثم من حمأ مسنون وبين خلقه من حشرة أو حشرات العلق .

قلت مستغرباً :

ــ لم يكن ما قلته نكتة إذاً ، بل رأياً تعتمد عليه ، ويؤسفني أن أعلن على مسمع من الإخوان الحاضرين . أنني بدأت أشك في مستوى علمك .

كاد الأمر أن يتحول إلى مشادة لكنني حسمت الأمر قائلاً :

ــ أنت تخلط عامداً ــ أو غير عامد ــ بين قوله على لسان ربه أنه خالق بشراً من طين وقوله : خلق الإنسان من علق . وأنا أعذرك ، لأن اللغة العربية غنية جداً بالمجاز والتشبيه والاستعارة والمرادفات ، ولا يمكن لمستشرق أن يحيط بدقائقها إلا إذا قضى أجلاً طويلاً في دراستها والتعمق في دقائقها .

ــ تعني أن هناك فارقاً بين الإنسان والبشر .

ــ رويدك ، ودعني أشرح لك الأمر . سأقدم لك مثالاً بسيطاً لشرح المستغلق .

عم القاعة الصمت والترقب انتظاراً لما سأقول ، بينا عقد الرجل ذراعيه على صدره واستقام في جلسته . قلت :

ــ إذا جئنا بطفل صغير يتكلم ويعرف أسماء الأشياء لكنه لا يعرف القراءة والكتابة وأردنا أن نعلمه ، فسنقدم له على سبيل المثال صورة لقطٍ ونسأله ما هذا ؟ فيقول قط . عندئذ نقول له : إن اسم القط يكتب هكذا . ونرسم له الحرفين لكن لا نشرح له شيئاً عن المجموعة القططية بأشكالها وأسمائها ومختلف أنواعها وسلالاتها ، وإلا لأرهقناه وهو في مرحلة من العمر لا تساعده على استيعاب تلك البيانات ولنفر من التعلم بمجابهته بكل تلك التفاصيل .

قال مقاطعاً :

ــ ما علاقة هذا المثال بأقوال نبيك ؟ أنا لا أرى أية علاقة بينهما .

ــ العلاقة واضحة . هاتان الآيتان اللتان استنزلهما نبينا زاعماً أنهما من وحي السماء ، كانتا أول ما زعم أنه أوحي إليه لينشرها في مجتمع أفراده في أعمق درجات الجهل والانحطاط الفكري ، لا يعرفون شيئاً عن ماضيهم ونشأتهم . كل ما يعرفونه هو أن وجود الإنسان يرجع إلى العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى . والقلة القليلة التي كانت على شيء من المعرفة كانت ترى في هذا القول دلالة مقبولة على بداية تخلق الجنين في رحم أمه . لم يكن المجهر وعلم التشريح قد عرفا بعد ، لكننا اليوم نعرف بفضل تجارب العلماء الذين سبقونا إلى الوجود ، وما حفلوا به من أجهزة أن ما يقذفه الذكر في رحم الأنثى يحوي أعداداً لا تحصى من الحيوانات المنوية التي تتسابق ليصل الأقوى منها إلى البويضة ، فيلقحها ، وإن هذا الحوين في شكله العام يشبه حشرة العلق التي نراها على حجمها الكبير في المياه الضحلة . لقد توصلنا إلى هذه المعرفة بفضل العلم الذي لم يكن معروفاً حينذاك في ذاك المجتمع الجاهل .

وقوله ﴿خلق الإنسان من علق﴾ ٢ **العلق** . يعني الإنسان الذي كان ذلك النبي واحداً منه ، لكنه لا يشير إلى بدء خلق الإنسان الأول . وكلمة « البشر » التي أوردها في آيات أخرى ، تعني الإنسان الأول الذي مرّ بأطوار مختلفة خلال ملايين السنين ، انتهى بعدها إلى مرحلة النطق والإدراك والعقل ، بحيث امتاز عن الحيوان بالوعي والإرادة . هذا بالإضافة إلى الفارق الكبير في المعنى بين قوله : خلق الإنسان من علق ، وقوله إني خالق بشراً من طين و . . . .

قاطعني الرجل مستنكراً بصوت مرتفع :

ــ تعني أن نبيك كان يعرف وجود الحوين المنوي قبل أن يعرفه الطب الحديث .

فأجبته بمثل لهجته :

ــ بل نقل هذه المعلومات من أسفار العهد القديم .

ساد الهرج والمرج في القاعة ، وانقلب الأمر إلى مناقشات بين المتعاطفين مع اللاهوتي والمؤيدين لأقوالي ، وكاد الأمر أن يصل إلى حد الخصومة .

فقلت مستدركاً بصوت مرتفع :

ــ أراك اليوم متوتر الأعصاب ، خلافاً لما عهدتك عليه منذ لقائنا الأول ومن الأفضل فيما أرى أن نرجىء البحث إلى جلسة مقبلة .

فرد معانداً ومتحدياً بلهجة الواثق من نفسه .

ـــ لا بل نستمر .

ـــ كما تشاء . دعني أقدم لك أولاً الآيات التي جاء بها نبينا حول خلق الإنسان حسب تسلسل ورودها . لمناقشتها ، باعتبارها الركن الأساسي في أقواله عن الخليقة . إذ لا يجوز الحكم على أول آية استنزلها نبينا في محاولته الأولى ليفرض نفسه نبياً على مجتمعه . لكنني سأثير ملاحظة صغيرة حول آيته الأولى هذه وهي : إذا كان العلم لم يكن يعرف حينذاك الحوين المنوي ودوره في لقاح البويضة ، وكان ذلك النبي المزعوم أمياً وجاهلاً كما تشهد كل المراجع ، أليس من حقنا أن نقف حائرين أمام ما قاله مما بات العلم الحديث يؤكد صحته ، إذا لم يكن قوله ذاك وحياً من الخالق العظيم ؟

علت أصوات في القاعة تؤيد ملاحظتي ، وكان أكثر الحاضرين إثارة للجدل والنقاش ، أولئك الذين زاروني في بيتي قبل اللقاء مؤيدين .

قال الرجل متجاوباً مع الأكثرية المؤيدة :

ـــ الأكثرية موافقة ، ولا بد من قبول رأي الأكثرية ، وأنا أهنئك على أسلوبك الناجح في إثارة المشاعر وتحويل المناقشة بيننا إلى مناقشة عامة يشارك فيها السامعون ويدلون بأصواتهم .

قلت متجاهلاً ما ألمح إليه :

ـــ لقد جاءت آيات خلق الإنسان في مواضع كثيرة ، وعلى فترات متباعدة ، لأنها لم تكن القاعدة الأساسية للدعوة . وكان إيرادها بين الحين والحين ، يأتي بمزيد من الإيضاح بحيث يتفق مع استجابة أفراد ذلك المجتمع لها .

وأكرر القول : إن القرآن الذي ابتكره نبينا لم يكن كتاباً يبحث في خصائص أي علم من العلوم التي باتت اليوم معروفة كمناهج علمية مستقلة ، تدرس خلال سنوات . إنه نظام عام يبحث في كل مقومات الحياة الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية . لذا نرى في السورة التاسعة حسب ترتيب النزول تلميحاً لا يتوقف عنده غير المعنيين . لقد قال في مطلع سورة الليل : ﴿والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى﴾ ١ ، ٤ **الليل** . فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن كلمة « ما » هذه تشير في لغتنا إلى غير العاقل ، فإن المعنى الذي حملته تلك الآية أقره العلم الحديث من حيث العناصر المكونة لجسم الإنسان والمتحكمة في حركاته وتصرفاته ، ولا يمكن بحال أن يكون نبينا المريض الجاهل الأمي قد اكتشف حينذاك حقيقة مكونات جسم الإنسان فأشار إليها بتلك الطريقة التي جعلها العلم الحديث أمراً مسلماً به لا يحتاج إلى مناقشة .

قال الرجل مقاطعاً بلهجة لا تخلو من السخرية :

ــ هذا يدل على أنه كان يعرف كل العناصر التي تكوّن جسد الإنسان لكنه لم يشأ بيانها بشكل مفصل لسبب في نفسه ، بل اكتفى بأن أشار إليها بكلمة « ما » هذه .

ــ لو صح زعمك وكان هو مبتكر هذه الأقوال ومنظمها زاعماً أنها من وحي السماء لوجب أن يعلن أسماء تلك العناصر وتفاعلاتها ليذهل الناس من حوله وليخلق لنفسه مقاماً سامياً متساوياً مع السمو الذي بلغه بين أتباعه ومؤيديه .

ــ لقد قالها دون وعي ومعرفة ، فجئت أنت اليوم تحدد أبعادها .

ــ لا بل كان يعرف أن إنساناً مثلك على درجة عالية من الثقافة والمعرفة سيتطوع ذات يوم ليتجاهل مدلول كلمة « ما » في اللغة ، وإنني من جانبي سأتطوع لتصويب الخطأ .

صاح الرجل حانقاً :

ــ أنت تتعمد إهانتي لتحول النقاش إلى مشادة وعراك .

ــ بل أحاول أن أستجير بعقلك ليحول بينك وبين الانفعال وليدعوك إلى الرجوع إليه في القرار الذي تتخذه ، حتى يبعدك عن الانفعال العاطفي . أنت تكره الإسلام وهذا شأنك ، ولكن ليس من حقك أن تخرس المنطق وأن تجمد العقل بسبب كراهيتك وإلا استحال النقاش .

وعلت أصوات في القاعة ، واحتدمت مناقشات بين مجموعات متعددة ، حتى كاد الأمر أن يتحول إلى تناحر بين الحاضرين .

ــ هات بقية آياتك وسنناقشها بتعقل . تفضل .

ــ قال في السورة الثالثة والعشرين حسب تسلسل النزول : ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تُمنى﴾ **٤٥ ، ٤٦ النجم** ، وبذلك خف التساؤل عن العلق الذي خُلق منه الإنسان كما جاء في الآية الأولى ، وفي السورة الثامنة والعشرين قال : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ **٤ التين** ، ثم زاد الأمر إيضاحاً في السورة الحادية والثلاثين بقوله : ﴿ألم يك نطفة من منيّ يمنى ، ثم كان علقة فخلقه فسوى﴾ **٣٧ ، ٣٨ القيامة** ، ونلاحظ هنا أنه يرد على التساؤل عن صحة قوله : ﴿خلق الإنسان من علق﴾ بشرح موجز لمصدر العلق الذي جعل فيه الخالق العظيم كل قدرات التحول ، ثم يعود إلى تأكيد هذه الواقعة بشكل أكثر وضوحاً في السورة الثانية والثلاثين بقوله : ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم﴾ **٢٠ ، ٢٢ المرسلات** ، وبذلك ربط الحوينات المنوية برحم المرأة وبالمكونات التي يتشكل منها جسم الجنين خلال وقت سبق تحديده لتطرحه الأنثى لا إرادياً في الوقت المعلوم .

قال الرجل مقاطعاً :

ــ هل يأخذ رجال الدين المسلمون بتفسيراتك هذه ، أم هي من اجتهادك الشخصي ؟

ضحكت وقلت :

ــ لكنني للأسف لا أستطيع أن أدعي النبوة لأنني متعلم ، ولأن ما أقوله سبقني إليه علماء من الشرق والغرب .

فضحك عدد كبير من الحاضرين وعلت بعض الملاحظات . قلت :

ــ لم يكتف نبينا بهذا الإيضاح بل تعداه إلى بيان مصدر ذلك الماء المهين في جسم الذكر فقال في السورة السادسة والثلاثين : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ٥ ، ٧ **الطارق** ، ولقد ثبتت صحة هذا التعريف في علم الطب . فالترائب فيما نعلم هي عظام الصدر والقلب يحتمي بها في مكانه الذي يقوم فيه بتنظيم الدورة الدموية . وبعد أن ترسخت هذه الحقيقة في أذهان الناس عاد نبينا يلمح إلى أصل نشوء الإنسان في إشارة موجزة كعادته . يعود إلى شرحها بعد ذلك بالتدرج . بدأ بإثارة واقعة جديدة ، ليركز عليها الأذهان ثم يشرع في شرحها بطريقة سهلة تتفق ومدارك المتسائلين ، بدأ بالقول في السورة الثالثة والأربعين : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ﴾ ١١ **فاطر** ، وبذا ألمح إلى بدء نشوء الإنسان الذي كان من تراب ثم تطور بعد ذلك إلى النطفة ، ولكي يجيب على ما يمكن أن يثار من تساؤل قال في السورة الرابعة والأربعين بإيجاز غني عن التفصيل : ﴿ أوَلا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئا ﴾ ٦٧ **مريم** .

قاطعني الرجل متبرماً قائلاً :

ــ أنت ترتب الأمور على هواك كعادتك لتخرج بالنتائج التي تريدها . ها هو قرآنك في يدي ، ولم أقم أنا بطباعته . أنت تعدل ترتيب السور على هواك لتجعلها متناسقة في أقوالك ، بحيث تبدو آياتك التي تذكرها متتالية متوالية حقاً ، مع أنها في الحقيقة مبعثرة بشكل يدل على العفوية والتناقض . إن السورة الأولى في قرآنك هي الفاتحة والتاسعة هي التوبة والثالثة والعشرون هي المؤمنون ، ألا يدل هذا على أنك تتلاعب حتى في ترتيبها على هواك لتجعل أقوالك التي رتبتها متفقة مع ما توحي إليه ؟!

حدقت في وجه الرجل بحدة لا تخلو من الدهشة وقلت :

ــ أتعني أنك لم تطلع في أبحاثك عن مثالب ديننا على تسلسل نزول السور وآياتها ؟ إذا كان الأمر كذلك كانت معلوماتك الأساسية بحاجة إلى مزيد من المعرفة .

قال معترضاً وهو يشير إلى القرآن الذي يحمله بيده ويلوح به .

ـــ أليس هذا هو القرآن الذي تؤمن به ، أم تراني قمت بتصنيفه كما أشاء ؟ ثق أنني لم أطبعه في بلدي . أنت تقول : إن سورة العلق هي الأولى وها هو قرآنك يشهد بأنها السادسة والتسعون . إن هذا يعني أنك تمثل جماعة من المسلمين تختلف عن الذين يؤمنون بهذا القرآن .

ـــ أهنئك يا سيد على سعة علمك . لكنني سأبين لك أن حجتك هذه التي تعتمد عليها ليست إلا مجرد ذريعة تثيرها مع السطحيين في شؤون الدين لكنها لن تجديك نفعاً معي . لا ريب أنك تعرف كما أعرف أن تنسيق سور القرآن لم يتم وفقاً لتسلسل نزولها .

قال بصوت مرتفع محاولاً أن يستقطب بنبراته انتباه السامعين :

ـــ لماذا غيرتم وبدلتم في كتابكم المقدس ؟ أتعتبرون التلاعب والتبديل من مقومات التقديس ؟

هنا خرجت عن هدوئي دون أن أشعر وصحت في وجهه قائلاً :

ـــ رويدك يا رجل . إن إعادة الترتيب ليست تلاعباً ، التلاعب كما تعلم ويعلم الجميع ، هو أن تحرف الآيات فتحذف منها أو تضيف إليها من نسجك ما يتفق والغاية التي تنشدها بعيداً عن المقومات الأساسية . ثم تمالكت نفسي فأضفت بصوت هادئ :

ـــ أعتذر عن خروجي عن هدوئي ، وهذه نقطة تسجل لصالحك في هذه المباراة !

ضحك الحاضرون جميعاً ، بينما ارتسمت آيات الراحة والرضا على وجه الرجل . قلت موجهاً الكلام إلى الحاضرين :

ـــ أيها الإخوة ، لقد قسّم الفقهاء الأقدمون القرآن إلى ثلاثين جزءاً ، وصنفوا السور وفقاً لعدد آياتها دون مراعاة ترتيب النزول ليسهلوا على المبتدئين تعلم قراءته وحفظ آيات قصار السور . إن عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة بما فيها الفاتحة التي جعلوها في مطلع الترتيب لأنها تتلى في كل ركعة صلاة . النصف الأول من هذه السور في أجزائها الثلاثين يضم ثماني عشرة سورة منها فقط بسبب عدد آياتها الكبير ، بينما يضم النصف الثاني ستاً وتسعين سورة ، وهذا يؤكد أنهم رتبوا السور بدراية وذكاء حسب أحجامها لييسروا قراءتها وحفظها على المبتدئين ، إذ لا يعقل أن يبدأ طفل بقراءة سورة « البقرة » مثلاً وهو الذي لا يكاد يميز بين الأحرف والكلمات . إن عدد آيات هذه السورة مائتان وست وثمانون آية في حين تتألف سورة « الصمد » من أربع آيات ، فهل هذا تلاعب ؟ إن الجزء الثلاثين من القرآن يضم ستاً وثلاثين سورة ، في حين أن سورة « البقرة » وحدها تشغل ثلاثة أجزاء . والتفت إلى اللاهوتي وأضفت :

ــ هل أقنعك هذا الرد الواضح ، أم تراك لا تزال مصراً على استعمال كلمة تلاعب ؟

قال مبتسماً مستسلماً لما تعالى في القاعة من أصوات مؤيدة :

ــ استمر يا سيدي . إن لك في النقاش طريقة تمكنك من امتلاك زمام الأمر وفقاً لما تريده أن يكون عليه ، وأنا المخطىء في هذا لأني تغاضيت عن مناقشة مقدماتك التي أدت إلى هذه النتيجة .

ــ وهل أستمر في سرد آيات الخلق حسب تسلسل نزولها لنخرج بنتيجة لهذا البحث ؟

ــ بل نرجىء الأمر إلى جلسة مقبلة لأنني متعب ومنهك .

كان واضحاً أن الرجل ، قد بدأ يضيق بي ، خصوصاً وأن جانباً من الحاضرين بات يؤيد ما أذهب إليه من تفسير ما يثيره ، وهو أمر لم يكن يألفه من قبل على ما يبدو ، لذا قررت في سري أن أشرك السامعين في مناقشتنا بحيث يحزب الأمر على ذلك اللاهوتي المستشرق فلا يجد بداً من سلوك واحد من سبيلين : إما الانسحاب وإما الإقرار بصحة ديننا وسمو مركز نبينا .

خرجنا نتشاور فيما بيننا عما سأثيره في الجلسة القادمة ، بعد أن بتنا على جانب كبير من الثقة بأن الجهة التي استقدمت ذلك الرجل أو دُفعت إلى استقدامه ستشعر آخر الأمر بأن سعيها لم يُجدِ نفعاً ، وأن هذه الحرب الصليبية الجديدة التي تعجز عن جمع كل المسيحيين في معسكر واحد ضد مواطنيهم من المسلمين لم تعد كافية لتحقيق مآرب الذين يجهزونها في السر والعلانية مستعينين ببعض النفعيين ذوي المصالح الخاصة وضحالة مفاهيم السطحيين من المتكلمين باسم الدين .

زيارة مفاجئة

بعد يومين على ما فات، فوجئت بزيارة ثلاثة من الشبان، ممن لمحت وجوههم في الجلسة السابقة. كانت تصرفاتهم لا تخلو من الارتباك. استقبلتهم مرحباً، ولما استقر بهم المقام قال أحدهم:

ــ نحن نعتذر لمجيئنا دون موعد لكن حديثك خلال الاجتماع الفائت الذي حضرناه بدعوة من رفاق لنا كان مقنعاً، يعتمد على المفاهيم العلمية السائدة والمنطق السليم ولم يكن فيه شيء من التعصب أو التزمت. وهذا ما دفعنا إلى التطفل بهذه الزيارة.

قلت ملاطفاً:

ــ إنني يا عزيزي أستقبل في بيتي كل من يشرفني بالحضور، ولا أتقيد بما يعرف اليوم باسم البروتوكول الذي يحدد قواعد الزيارات والأحاديث. نحن إخوة فلا حرج ولا تثريب. وإذا كانت لديكم أسئلة تودون طرحها أو استفسارات أو ملاحظات فإنني أرحب بها.

قال الشاب:

ــ رأينا من خلال حديثك أنك تدافع عن الإسلام بلغة علمية مقنعة في حين أننا سمعنا في بعض المجالس قبل ذلك أننا معشرَ النصارى كفرة مشركون يحل للمسلمين قتلنا. واعذرني، أرجوك أن تجيب عن السؤال التالي: كيف تكون مسلماً تناقش الدكتور المستشرق دون أن تغضب أو تثور رغم أنه يهاجم نبيكم بهذا الأسلوب الوقح العنيف؟

طمأنت الشاب بحركة من يدي وقلت:

ــ في الآية الثامنة والأربعين من سورة المائدة يقول سبحانه وتعالى في آخرها مخاطباً النبي: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ ومن هنا يتضح أن الخالق هو الذي أراد أن لا نكون أمة واحدة ليجعلنا في فترة اختبار يحصل المتقيدون بتعاليم دينهم على درجات تؤهلهم للمرحلة التالية والله هو الذي يقرر في النهاية، أما نحن فإن واجبنا أن نحافظ على

تعاليمه المنزلة إلينا . ولم نؤمر في قرآننا سواء بالتلميح أو التصريح بأن نقتل المسيحيين لأنهم كفرة . لسنا نحن أصحاب الحكم . هذا عما تقولون أنكم سمعتموه في مجالس أخرى ، أما عن موقفي من هذا اللاهوتي المستشرق المزعوم ، فإنه يريدني أن أغضب وأثور ليبرهن للحاضرين أنه على حق وأنني المخطىء ، وبذلك يحصل على سلاح إضافي يستعمله في مهمته الوضيعة المنافية تماماً لجوهر الدين المسيحي . وبهذه المناسبة اسمحوا لي بأن أطرح عليكم سؤالاً بسيطاً : هل في هذا الكون إله واحد أم عدد من الآلهة ؟

وإزاء ما بدا من الارتباك على وجوههم الناجم عن عدم فهمهم الغاية من السؤال قلت مفسراً : أعني أنه لو كان هناك عدد من الآلهة ، خلق كل واحد منهم مجموعة من البشر ووضع لها النواميس الخاصة به فإننا في هذه الحالة نكون معذورين لو اقتتلنا فيما بيننا في محاولة من كل فئة دعم مركز ربها وسلطته ، ولكان من حق البوذيين مثلاً محاربة الذين لا يؤمنون بأفكارهم انتصاراً لخالقهم ، ولما اختلف الحال بين أنصار موسى وأنصار المسيح ، ومؤيدي هذا النبي الأخير الذي وصفه المستشرق بالمريض بالوهم والصرع ، ولكان الآلهة من جانبهم في صراع واقتتال كذلك ، يتبادلون الركلات واللكمات ، ليستقل كل منهم بالسلطة المطلقة كما يفعل الزعماء من بني البشر . أليس كذلك ؟ هل ينفي المنطق السليم هذا التحليل ؟

فكر الثلاثة قليلاً وتبادلوا النظرات ثم انبرى أحدهم متسائلاً :

ـــ لكن سؤالاً آخر مربكاً سيطرح نفسه إذا سلمنا بالإله الواحد هو : ما دام الخالق واحداً . فلماذا أنزل هذه النواميس المختلفة ؟

ـــ أحسنت جداً بسؤالك . إنه وجيه وقيِّم . والجواب بسيط ومنطقي هو الآخر .

تعالوا نتصور معاً الإنسان البدائي الذي كان يعيش على غرار الحيوانات الأخرى عارياً ، يستر الشعر الغزير جسده ، يعيش على مثل ما يقتات به الحيوان من حوله . لقد زعم دارون . أن الإنسان من سلالة قردية ، وهو قول لا يستقيم إذا أخذ بمعناه الحسي ، أما إذا كان القصد أنه كان شبيهاً بالغوريلا وأنه كان يتصرف تصرف تلك السلالة فإن قوله لا يخلو من الصحة . وهو مؤيد بآيات كثيرة في قرآننا الذي سبق نزوله دارون بمئات السنين . لنتصور موقف هذا المخلوق عند وميض أو برق يراه أو سماعه هزيم الرعد لأول مرة ومشاهدته خيوط المطر تنزل من فوق دون أن يعرف المصدر أو يكون له أو لسواه يد فيما يرى . هل تتصورون موقف هذا الإنسان عند مشاهدته أول غمامة قاتمة تغطي الشمس تمشي دون قوائم وتأتي من حيث لا يعلم وتمضي إلا حيث لا يعلم ؟

لقد أعطى ربنا في قرآننا صورة عن موقف الإنسان المفكر المتطلع الذي ينتقل من إيمانه بعدد من الآلهة إلى البحث عن إله واحد. جاء ذلك على صورة ما فعل إبراهيم عليه السلام عندما أخذ على قومه عبادتهم للأوثان، وراح ينهاهم عما يفعلون ويدعوهم إلى عبادة الخالق، أي أنه كان الوحيد بينهم الذي سما في إدراكه فراح يبحث عن الله. رأى كوكباً فقال: هذا ربي فلما أفل قال: لا يمكن أن يغيب الله. ولما رأى الشمس قال: هذا ربي، ولما غابت رفض عقله صحة هذا الاعتقاد فتوسل إلى الخالق أن يهديه إلى معرفته، فهداه.

هذه الصورة تدل على أن الله لم يخلق الإنسان على شكله الحالي بما بات يملكه من وعي وإدراك وفكر، بل جعله يتطور خلال ملايين السنين كما يقول العلم الحديث ليتفاعل مع طبيعة الكوكب الذي يعيش عليه، ومن هنا نستنتج أن النواميس المتتالية جاء كل منها للشعوب التي كان وعيها قد بلغ مستوى يمكنه من استيعاب ما فيها من تعاليم، ثم راح يضيف تفاصيل جديدة، تتفق مع المستوى الذي بلغه الإنسان، لكن الأسس الرئيسية في تعاليمه الثلاث لم تتغير. حرم فيها القتل والسرقة والكذب والعدوان والتجاوز على حق الآخرين وأمر بمساعدة الضعفاء والمعوزين، أما الإضافة فقد جاءت في الأحكام التي تتفق مع ما بلغه الإنسان من وعي بحيث يمكنه بتطبيقها إقامة المجتمع الفاضل.

استأذن الشاب بإشارة لطيفة من يده أن أتوقف وقال:

ـ عفواً. ما تقوله صحيح وعلمي، فهل يمكنني سماع الآيات التي وردت حول محاولة إبراهيم البحث عن الخالق الأوحد؟

التفت إلى زميلي خريج الشريعة وطلبت إليه أن يتلوها فقال:

ـ إنها خمس آيات في سورة الأنعام تبدأ بالرابعة والسبعين التي جاء فيها: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي. فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ **٧٤، ٧٩ المائدة**.

فأعقبت قائلاً :

ــ هذه الآيات ــ كما قلت لكم ــ تصور تسلسل البحث الفكري حسب مستوى الوعي المكتسب .

ــ لكن العلم الحديث يقول : إن الكون كان كتلة واحدة انفجرت وتناثرت فكان بذلك بدء الخليقة .

ــ لقد وردت حكاية الانفجار في قرآننا بإيجاز ودون تفصيل لسببين جوهريين :

الأول أن إنسان ذلك العصر ما كان ليفهم تلك الواقعة لو جاءت مفصلة ، لأنه كان في درجة عميقة من الجهل بالكثير مما يجري حوله من أمور . والسبب الثاني أن القرآن كما سبق لي القول ليس كتاباً علمياً يبحث في اختصاصات علمية مختلفة بحثاً مفصلاً . ولو جاء على غير ذلك لكان أضخم من موسوعات عالم اليوم . والآية الثلاثون وما بعدها من سورة الأنبياء تقدم هذه الواقعة فتقول :

﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كلٌّ في فلك يسبحون﴾ **٣٠ ، ٣٣ الأنبياء** .

والرتق الذي جاء في الآية الأولى يعني أنها كانت ملتصقة بعضها ببعض ، والفتق يعني الفصل بين الأجزاء الملتصقة . والرواسي التي جعلها في الأرض كي لا تميد هي الجاذبية بعلم اليوم ولقد أودعت في كل كوكب ، وفي نجم الشمس نفسه ، بحيث يبقى كل كوكب حائماً في مداره لا يخرج عنه . أما حكاية الشمس والقمر والأرض التي يسبح كل منها في فلكه ، فإنها معلومة جغرافية أقرها العلم بعد نبينا بمئات السنين ، جعلت الإنسان ينبذ تلك الأسطورة التي تقول : إن الأرض محمولة على قرن ثور .

ضحك الشبان الثلاثة واستقروا في مجالسهم بشكل مريح .

قال أحدهم :

ــ لكن السؤال يبقى قائماً يا أستاذ ، إذا كان الخالق واحداً ، فلم جاءت الأديان مختلفة ؟

ــ كنت أظن أنك ستستنتج الرد تلقائياً بعد الذي شرحته . قلت لك : إن الأسس في الأديان الثلاثة واحدة تقريباً ــ لا تتغير من دين إلى آخر ــ فالزنى والقتل والسرقة والظلم والعدوان وما إلى ذلك كلها أمور محرمة ، أما التفاصيل الأخرى المتعلقة بطبيعة تكوين المجتمع ، فإن اختلافها طبيعي لأن القرون الطويلة التي تمر على مجتمع ما لا بد وأن تظهر ثغرات في تطبيق النظام ، قامت بسبب التطور الفكري ، فيبعث الخالق رسولاً جديداً

يكلفه بإعلان التعديلات التي رآها واجبة ، ليستقيم النظام الأساسي الذي حدد مقوماته ، يلغي بعض التفاصيل ويضيف تعاليم تطبيقية جديدة . خذ على سبيل المثال موضوع الطلاق . لقد كان محللاً في الدين اليهودي فألغته الديانة المسيحية بعد مئات السنين ، ثم جاء الإسلام بعد ستة قرون ، فأحله بشروط تضمن حقوق المطلقة وأطفالها . والمجتمع العصري بات يأخذ بما جاء في تعاليم الإسلام حول هذا الموضوع ، بحيث أصبح الطلاق ضرورة عصرية ملحة في المجتمع المسيحي ، والأخذ به لا يعني فساد الدين الذي حرمه لأنه ليس ركيزة من ركائز العبادة الأساسية وأعني علاقة المخلوق بالخالق ، بل هو مجرد تعديل فرضته الضرورة الاجتماعية .

ــ طيب . لكن هذا يعني أن رسلاً آخرين سيرسلون لإدخال تعديلات جديدة .

ــ الواقع ينفي هذا الاحتمال تماماً لأن مجتمع اليوم بات يستوحي نظمه من كتبه الدينية حتى المجتمعات التي تنكر وجود خالق ، تتكلم عن الفضائل والأخلاق والقيم ، وهي أسس استمدتها من الكتب السماوية ، سواء اعترفت بها أو أنكرتها ، ثم إن الاجتهاد مع عدم الخروج عن جوهر النظام مسموح به وإن كرهه بعض المتزمتين . أضف إلى كل هذا أن المجتمع البشري قد بلغ مستوى لا يحتاج فيه إلى تعديل أو تبديل ، بل إلى العودة إلى القواعد الأخلاقية التي أرساها الدين . إن ما يجري الآن في الغرب المتحضر المتطور من تصرف وسلوك كالقانون الذي يسمح بالشذوذ الجنسي في بريطانيا مثلاً وهو سلوك لُعن ومُحق من عهد لوط والقانون الذي يحمي المرأة الغربية من تدخل الآخرين أياً كانوا في سلوكها حتى الوالدين ويعطيها حرية التصرف الجنسي ، يدمر مفهوم الأسرة الذي أرست دعائمه الأديان . والقوانين التي تحمي الفكر المادي بحيث باتت القيم كلها منحلة في المجتمع الذي يبيح كل شيء في سبيل الحصول على المال الذي أصبح غاية الوجود كل هذه التطورات المخيفة ، تدل على أن أصحاب النظريات والمبادىء اليوم رسل من نوع خاص ، مهمتهم تدمير المجتمع وإعادته إلى البدائية التي تحجبها الإنجازات العلمية ، فإنسان اليوم بات يعمل على تدمير وجوده لأنه فسد وانحدر وابتعد عن كل القيم التي كانت السبب في تطوره .

ــ لكن هذا يعني أن ديننا لا يخلو من شوائب عدلها الدين الإسلامي ، واستمرارنا في التمسك بمبادئه يعني أننا متخلفون .

ــ من قال هذا ؟ هل سمح دينكم بالقتل والسرقة والزنى والعدوان ، فجاء الدين الإسلامي يحرم ما سمح دينكم به ؟ إن الأسس واحدة في كل الأديان كما سبق لي القول . وهي كلها تحمي الإنسان وتحدد علاقاته الاجتماعية . خذ على سبيل المثال القانون المدني الذي يمنع

قتل الإنسان. لقد أدخلت تعديلات على هذا القانون، بحيث انقسم إلى القتل الخطأ، والقتل العمد، وأدخلت تعديلات تشرح وتعدل المفهوم الإجمالي، فهل يعتبر مجرماً من تمسك بالنص الأساسي الذي يحرم القتل بصورة عامة دون أن يبحث في التعديلات؟ التعديلات كما ترى لا تلزم الإنسان بشيء، ما دام يتقيد بالأصل. قرآننا مثلاً يصف السيدة مريم بالعذراء، وإنجيل متّى يقول: إنها تزوجت من يوسف، وأنجبت منه أربعة ذكور هم: يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا فهل يمكن لمن أنجبت هذا العدد من الأولاد أن تكون عذراء؟ لكن قرآننا يركز على أنها كانت عذراء عندما أنجبت السيد المسيح ولا يبحث في تطور حياتها البعدية. فهل يكفر من يأخذ بأي من هذين القولين؟ الاجتهادات المسيحية جعلت مريم أم الله ورتبت لها صلاة أعرفها بالفرنسية ترجمتها: «يا قديسة مريم. يا أم الله صلّ من أجل مخطئينا المساكين اليوم وحتى الموت آمين». لكنه لم يرد في أي من الأناجيل أن السيد المسيح قال: أنا الله، أو أنا ابن الله. كان إذا ما خاطب من حوله يقول: أبوكم الذي في السماوات. وإذا تكلم عن نفسه قال: «أبي الذي في السماوات» أي أنه كان يعتبر العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة أب بأولاده، فجاء ديننا يجعل المسلم أكثر تواضعاً بجعله العبد الطيع لسيد الكون. هذه هي الأسس في الدينين فهل يكفر من يأخذ بأحدها دون الآخر ما دام يؤمن بالنص الصريح وليس بالاجتهاد. سأظل أعتبر السيدة مريم عذراء لأنها لم تكن متزوجة عندما أنجبت السيد المسيح ولقد خصها الله بهذه المعجزة، ورفعها على نساء العالم أجمعهن. أما الاجتهادات وهي كثيرة في مختلف الأديان، فإنها من إنتاج الإنسان تبعاً لمداركه وأحاسيسه ومفاهيمه، ومن يأخذ بالنص الأساسي، ويغفل الاجتهادات لا يعتبر آبقاً أو مارقاً ما دامت علاقته بالخالق لا تتزعزع.

قال الشاب مؤكداً:

— منطقي ومقنع والله. لكنْ هناك أمر لا يستقيم رغم ذلك. فنحن هنا في بلد واحد نتبع قانونين، في كل منهما ما يخالف الآخر بشكل عميق.

— صحيح، ولكن هل يرغمك القانون العام على اتباع قانون المجموعة التي لست منها؟ كل منا يعاقب على الجرائم التي نص عليها القانون العام. ولكن هل يعاقبني مثلاً لأنني لا أصلي في الكنيسة؟ وهل يعاقبك لأنك تتزوج وفق نصوص خاصة لا تنطبق على أتباع دينك؟! خذ على سبيل المثال: أمريكا التي تضم خمسين ولاية، إن القوانين العامة فيها سارية في كل الولايات، لكن هناك تعديلات تطبق في هذه الولاية دون تلك، وهذا الاختلاف لا يحرم أي أمريكي من حقوقه في الولاية التي يعيش فيها. وإذا كنت أعيش في

فرنسا، لا يرغمني القانون العام على التخلي عن عقيدتي الأساسية، لكنه يلزمني بالتقيد بالسلوك المتبع في معاملة الفرنسي وحسب. إن علاقتي بك ليست في الكنيسة أو الجامع، بل في المجتمع. أما العقاب والثواب على تقيدي بالتعاليم الربانية، فإن الخالق وحده هو الذي يحدده، فهل في أي من العقيدتين نص يبيح قتل أتباع العقيدة الأخرى؟ لقد قال ربنا الكريم في قرآننا بصراحة بالغة: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ **٦٢ البقرة**، تصور أنه سبحانه يجمع بين المؤمنين وأتباع كل الديانات الأخرى دون تمييز إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً. فهل هناك بعد هذا القول الجليل ما يوجب الخلاف؟

ــ هل أستطيع كتابة هذه الآية؟

ــ بكل طيبة خاطر. وهناك آية ثانية تؤكد ما جاء في هذه.

ــ اقرأها لو سمحت.

ــ هذا نصها: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ **٦٩ المائدة**.

أخرج الشاب ورقة من جيبه وقلماً وقال راجياً:

ــ أمْلِها عليّ.

وبعد أن فرغ من الكتابة قال:

ــ أنا لا أفهم معنى (الصابئون).

ــ اختلف اللغويون في تفسير كلمة «صبأ» فقال بعضهم: إنها من اللغة العبرية، وإنها تعني الوثنيين لكن الأكثرية اتفقت على أنها فرقتان: فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد في العراق باسم نصارى يوحنا المعمدان، والثانية وثنية في منطقة حرّان، أتباعها عبدوا الملائكة بعد أن تخلوا عن اليهودية والنصرانية وهذا يؤكد ما سبق أن قلته لكم حول إرادة الله في أن يجعل بني الإنسان على مذاهب شتى ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

ــ رائع رائع والله لِمَ لا يأخذ المسيحيون والمسلمون بهذه الحقائق المقدسة الراقية؟ لو أخذوا بها لتغير وجه العالم.

ــ كان الدين دائماً وسيلة يستغلها المغرضون والزعماء لتحقيق غايات معينة، لأن الإنسان بطبيعته أكثر استجابة للدين من أيِّ نظريات يقرها العقل وفقاً لقدرته على التعمق والإدراك. خذ على سبيل المثال لا الحصر هذا اللاهوتي الذي درس اللغة العربية، ونذر

نفسه لتجريح الدين الإسلامي وإظهاره بدعة ابتكرها خيالٌ مريضٌ لرجل مصاب بالصرع. ما هي الغاية التي يسعى إليها وهو رجل دين؟ إنه يهدف بكل بساطة إلى توسيع الشقة بين أتباع الدينين وبث التفرقة والبغضاء بينهم ليتبادلوا الاحتقار فالتنابذ فالاقتتال. وما هي النتيجة من وراء ذلك كله؟ وبال لا يحل به وبشعبه، بل بنا وحدنا لنصبح قطعاناً هائمة ضالة يعمل كل جانب من أولئك المغرضين على الفوز بجانب منها.

قال الثلاثة بلسان واحد:

ــ نحن مقتنعون بصحة هذا الاستنتاج.

ــ ولست مبالغاً فيه. أذكركم بعام ١٩٤٥ يوم أن ضرب الفرنسيون دمشق وبعض المدن الأخرى بالأسلحة الثقيلة، ليضمنوا بقاءهم وليحرموا الشعب من الاستقلال بذريعة المحافظة على المسيحيين. لعلكم لا تذكرون هذه الواقعة بسبب أعماركم ولكن يمكنكم أن تسألوا ذويكم. يومها رسم عملاء الفرنسيين على الشارع المؤدي إلى أحياء المسيحيين صلباناً باللون الأبيض الناصع وأشاعوا بالاتفاق مع بعض المؤيدين لهم أن المسلمين هم الذين رسموها لتطأها الأقدام احتقاراً للدين المسيحي، ووزعوا بضع مئات من البنادق الحربية على أفراد من الحيين المسيحيين. ولولا رجال شرفاء من المسلمين والمسيحيين كشفوا هذه الدسيسة، وبينوا للإخوة المسيحيين أن البنادق قد وزعت على رجال من الأحياء المسلمة المحيطة بهم، تبلغ أضعاف أضعاف ما أعطي لهم، لولا ذلك لاستطاع المستعمر تحقيق أهدافه على حساب أرواح عشرات الألوف من المسيحيين والمسلمين. ونحن نرى اليوم أن التاريخ يعيد نفسه.

قال الشاب متحمساً:

ــ لن نسمح بهذه الفتنة على أي شكل. سوف نجمع زملاءنا ونطرد هذا المتطفل.

فقاطعته قائلاً:

ــ إياكم ثم إياكم. إن هذا السلوك سيخلق عداءً بينكم وبين إخوة لكم ممن استضافوه وبذلك سيحقق ذلك الرجل فتنة أكبر. لقد جاء ليثبت أن بعض الشبان قد خدعوا بحضورهم اللقاءات المفتوحة، وأن تكتل المسيحيين واجب، لأن الأفكار الجديدة المخادعة التي سمعوها هنا تضر بوجودهم، فإذا قمتم بطرده كما تقولون فسيكون ذلك إثباتاً لصحة ادعائه. وانقسامكم اجتماعياً سيعطيه سلاحاً أكثر فاعلية. إن الذين دعوني من ذويكم عامدين لمقابلة هذا الإنسان كانوا يهدفون إلى إثبات تفاهة دين المسلمين لكي يمتنع

بعضكم عن حضور الندوات. وهذه اللقاءات التي أقيمها هنا تزعج المتزمتين من الجانبين !.

ـــ وما هو الحل إذن برأيك ؟

ـــ أن أثبت له بالبرهان والعلم الصحيح أن نبي المسلمين لم يكن مريضاً بالصرع والوهم، ولم يغفل التعاليم المسيحية ويعدلها على هواه، مفتتناً على الله بزعمه أنها رسالة سماوية. وعندما أصل إلى هذه النتيجة، سيجد أن مؤيديه سينفضون من حوله، وقد ينضمون إلى صفوفكم وهذا هو المطلوب.

كل ما أرجوه منكم هو أن تدعوا من تستطيعون من إخوانكم لحضور المناقشات، وأنا أرحب بكم في بيتي في أي حين أياً كان عددكم، وأعدكم بالرد على أي سؤال تطرحونه دون إحراج أو تذمر.

ران الصمت فترة قطعه أحدهم قائلاً :

ـــ الحقيقة أن أسئلة كثيرة كانت تجول في خاطرنا، لكننا سنؤجلها إلى لقاء آخر قريب.

ـــ كما تحبون. وبإمكانكم أن تطرحوها إذا شئتم أثناء مناقشتي مع اللاهوتي المزعوم إذا وجدتم أنها تتفق وموضوع المناقشة.

واستأذن الثلاثة وانصرفوا سعداء بما سمعوا ولما أصبحنا وحدنا قال زميلي خريج الشريعة.

ـــ لقد جهزنا الآيتين اللتين أعجب بهما الشبان لنفحم بها مزاعم ذلك اللاهوتي لكننا ما كنا نتوقع هذه الزيارة المفاجئة.

ـــ المهم أن نثبت للجميع أن ديننا يعد الإنسان لإقامة مجتمع فاضل لا عداء فيه ولا تسلط، وسأحتاج إلى الآيات الأخرى المتعلقة بخلق الإنسان الأول حسب تسلسل نزولها، لأن الرجل سيثير هذا الموضوع ولا شك. ونأمل أن نوفق في إحباط محاولاته خلق عداء بين أبناء الشعب الواحد.

اللقاء الجديد

تم اللقاء مع ذلك المستشرق في ذلك البهو الفسيح الذي كان مكتظاً بالحاضرين بشكل ملحوظ ولفت انتباهي وجود الثلاثة الذين زاروني في البيت على غير موعد متفرقين كل مع مجموعة من الشبان بالإضافة إلى من سبق لي معرفتهم .

حييت الجمع المحتشد ، وصافحت اللاهوتي كما فعل زملائي ، وجلسنا في أمكنتنا جاهزين . استهل الرجل الحديث قائلاً :

ــ لقد جمعت لك الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان ، وسترى بنفسك مدى ما فيها من تناقض . هناك آيات تقول : إنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ثم يؤكد حكاية الصلصال في آية أخرى . . .

وأخذ ورقة من حافظته راح يقرأ ما فيها : ﴿وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾ **٢٨ الحجر** ، ويعود إلى تأكيدها على لسان إبليس الذي يقول : ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ **٣٣ الحجر** ، كل هذا في سورة واحدة .

ــ أعرف ذلك . إنها سورة « الحجر » والآيات ٢٦ و٢٨ و٣٣ منها والسورة هي الرابعة والخمسون حسب تسلسل النزول .

ــ لكنه يغير قوله في سورة أخرى فيقول أنه خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، ثم ينقض قوله في آية أخرى فيقول تارة أنه خلقه من ماء ، وتارة من طين ، إنها خبطات عشواء تسمح للسامعين أن يأخذوها كما يحلو لهم ، ولو كانت وحياً كما تقولون لجاءت كلها بتعبير واحد دون تناقض .

ــ رويدك لو سمحت لي ، دعني أسأل الحاضرين : هل يختلف الطين والصلصال على اختلاف الأوجه التي يتحول إليها التراب عن التراب الممزوج بالماء ؟ لقد شرحت لك من قبل سبب اختلاف ترتيب السور عن تسلسل نزولها ، والتسلسل هو ما يجب أخذه بعين الاعتبار ، لأنه يبدأ بتهيئة الأذهان بالمعلومة السهلة المقبولة والمعروفة ، ليعدها لفهم

ما سيأتي بعدها من معلومة فيها بعض التعقيد. وهذا أسلوب تربوي متبع في دور العلم، إذ لا يمكنني على سبيل المثال أن أعطي تلميذاً معادلة من ثلاثة مجاهيل قبل أن أرسخ في ذهنه مبادئ الجبر والحساب، وأن أنقله خطوة فخطوة حتى أصل به إلى الصعب المركب. وهذا الأسلوب هو الذي عمل به الخالق العظيم في تعريف البشر بمراحل الخلق بادئاً بما هو معروف وشائع، لينقله تدريجياً إلى المرحلة الأولى ليعمل فكره وليزداد معرفة.

ــ ولكن لَمَ التغيير في الكلمات؟ لَمَ يتكلم عن الحمأ المسنون ثم عن الصلصال ثم عن الطين والماء فالتراب؟

ضحكت لقوله وأجبت:

ــ يبدو أن بعضكم طرح مثل هذا السؤال، فأنزل الله آيات شاملة لا تدع مجالاً لأي تساؤل ليستطيع نبينا المزعوم أن يرد على السائل. قال في السورة الخامسة والسبعين: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ ٧، ٨ **السجدة** وأود أن ألفت النظر هنا إلى قوله الصريح ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ ٧ **السجدة**، إنها عبارة تبين أول الخلق بوضوح، سواء تحول الطين إلى حمأ أو صلصال، فإن الأساس واضح.

همهم بعض المستمعين، لكن الرجل رفع يده طالباً الهدوء، فقلت بصوت مرتفع:

ــ وأود أن ألفت نظرك إلى ما جاء في الآية الثالثة من هذه السورة نفسها: اسمع أرجوك ما يقول: ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ ٣ **السجدة**، وهذا يعني أن هناك من سبقك إلى الطعن في ديننا والافتراء عليه، فلست الأول ولكنني آمل أن تكون الأخير.

وضحك بعض الحاضرين، فحاول الرجل الرد، لكنني لم أتح له الفرصة إذ استرسلت قائلاً:

ــ وفي سورة «المؤمنون» وهي الرابعة والسبعون يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ ٨، ١٤ وفي سورة «الحج» الثالثة بعد المائة في تسلسل النزول قال سبحانه: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد

علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ ٥ ، وفي هذه الآية كما ترى أوجز موضوع الخلق والتكوين، وأشار إلى تفاعل عناصر الماء مع مقومات الأرض ومما ينجم عن ذلك التفاعل. ودليلي على تسلسل الإيضاح للمعلومة الواحدة، إذا كانت على قدر كبير من الأهمية في حياة الإنسان، تكرار إيرادها في آيات تتوالى بين الحين والحين، تذكر بالإيضاح الذي سبق وتضيف إليه بياناً جديداً يزيد من وضوح الصورة أكثر وأكثر.

قال وهو مقطب الوجه مضطرب الأسارير:

ــ كل هذا ليس بمقنع، وليس فيه دلالة على صحة نبوته.

ــ حتى ولو كان محمد هذا أمياً لم يدرس الطب ولم يحضر مجالس العلماء، بل عاش طفولته وشبابه غلاماً لعمه؟ هل كان مار بحيرة عليماً بهذه الأمور فنقلها عنه ذلك الغلام المريض؟ أعني هل وردت هذه البيانات في كتب العهد القديم أو في الأناجيل، فسمعها نبينا منه وظلت عالقة في ذهنه المريض، حتى إذا ما تجاوز الأربعين صنفها على هذا النسق المتكامل مستعيناً بخياله المريض وعقله المختل فجاءت على هذا المستوى العلمي الذي يقره العلم الحديث!

كان بين الحاضرين إضافة إلى من زاروني ومن عرفتهم من قبلُ عدد من الجامعيين ومن ذوي المهن الحرة وقسيس يسوعي لم يتخلف عن الحضور منذ الجلسة الأولى، فانتقلت عدوى المناقشة إليهم، الأمر الذي جعل القاعة الرحيبة تعج بالهرج والمرج، ولقد وجدت في ذلك الموقف فرصة مواتية لاستقطاب الأذهان لتوجيهها إلى جوهر الموضوع فقلت بصوت مرتفع:

ــ أرجو أن تسمحوا لي بإيراد بعض الحجج المكملة لهذا الموضوع ثم أترك لكم الفرصة المواتية للمناقشة وإبداء وطرح الأسئلة التي تخطر لكم على بال.

صاح الرجل متبرماً:

ــ ألم أقل لك: إن المناقشة بيني وبينك ولا علاقة للحاضرين به.

ــ أهم مجرد تماثيل لا تدرك ولا تعقل؟ إذا تمسك كل منا برأيه، واتهم كل منا الآخر بالخطأ، فمن الذي يرجح رأياً على رأي؟ الحاضرون هم المحكمون وكلهم مثقفون متعلمون، وإصرارك على حصر دائرة النقاش بيننا دون أن يكون للسامعين رأي فيها، يعني أن تنتهي المناقشة عند تمسك كل منا برأي يراه هو الصحيح، وأن نفترق دون أن يصل أي منا إلى نتيجة سوى التزمت الذي يحتمي به كل منا. أيصح أن نستهين بآراء الحاضرين؟

صاحَ الرجل منفعلاً :
ــ أنا لا أقصد الاستهانة برأيهم . أنت تحاول إثارة مشاعرهم لغاية في نفسك .

قلت بهدوء :
ــ دعني إذن أخاطب عقولهم لأشركهم فيما نحن فيه .

والتفتُّ إلى الحاضرين قائلاً :
ــ يا إخواني ــ عندما أوردت الآية الثالثة من سورة « الليل » التي تقول : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ لفتُّ نظر الدكتور الفاضل إلى كلمة « ما » التي تستعمل في اللغة للدلالة على غير العاقل فإذا أضفت إليها الآن الآيتين السابعة والثامنة من سورة « الشمس » ونصهما : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ يتوجب أن نتوقف قليلاً لنتساءل : هل كان ذلك الأمي المريض عقلياً مُلماً بعلم النفس الذي لم يكن قد استقر أو نشأ إضافة إلى معلوماته العميقة بعلم الطب ؟ إن علم اليوم يحدد نسبة الجينات الوراثية التي تدخل في تكوين الجنين من الوالدين . وليس معقولاً ولا منطقياً أن يكون نبينا قد بلغ هذا الحد من المعرفة قبل أربعة عشر قرناً ، فاكتشف بعقله المريض حينذاك ما توصل العلم الحديث إلى توطيده اليوم . وعلم النفس الذي يبدو لنا من الآيات التي ابتكرها نبينا في حينه يؤكد أنه كان علماً من أعلامه المجهولين لأنه استطاع بإيجاز جوهره في آيتين قصيرتين هما : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ٧ ، ٨ الشمس ، . وما هذه تدل في علمنا الحديث على النوازع والرغبات والأنانية والغضب والحب والكراهية وكل العوامل النفسية التي تكون نفس الإنسان فتجعله مستقيماً أو منحرفاً ، محترماً أم مكروهاً . فما هو رأيكم في هذا القول وما هو رأي السيد الدكتور ؟

وقبل أن يُرد على سؤالي أضفت قائلاً :
ــ وسأقدم لكم كذلك البرهان على أن محمداً هذا كان مُلماً كذلك بالضغط الجوي وبذبذبات الصوت !

قاطعني الرجل ساخطاً غاضباً وقال :
ــ أنت تخرج كعادتك عن نطاق المناقشة ، وتشرك فيها الحاضرين ، لتبلل الأفكار ولتستغل اللغط الذي يحدثه أسلوبك الاستفزازي هذا .

علت أصوات مستنكرة ، واعترض كثيرون على ملاحظته ، حتى أن أحدهم ، وكان شكله يوحي بالاحترام ، نهض واقفاً وقال بصوت جهوري :

ـــ لعلك ترانا مجرد مخلوقات عديمة الفهم والتمييز ، وأنك وحدك القادر على تقويم الحجج التي يقدمها الأستاذ ؟ إن ما يقوله صحيح ، وأنت عاجز عن تفنيد ادعاءاته ، وإلا فلتتفضل بتفنيد أقواله وكشف السر في ترابطها .

أراد الرجل أن يخفف حدة التوتر الذي ساد القاعة وأن يستعيد زمام الأمور فقال :

ـــ أنا لم أقصد شيئاً مما أشرت إليه ، لكن هناك فارق بين حكم الإنسان العادي الذي يقنعه المنطق المثير ، وحكم المتخصص بالموضوع الذي يدور النقاش حوله . فالسيد هنا يجمع من قرآنه ما يراه حجة تؤيد ما يقول ، وما يبني عليه أقواله ويتجاهل كل المتناقضات أو يبررها بحجة تسلسل النزول .

قلت متحدياً :

ـــ يسعدني كما يسعد الإخوان الحاضرين أن تعلن حكمك بصفتك المتخصص في الحجج التي قدمتها ، وأن تنقضها بالمتناقضات التي أتغافل عنها . إن محمدنا هذا ، رغم ضعف عقله بالوهم ومرض الصرع الذي كان مصاباً به ، ورغم أميته وجهله المطلق ، قد استفاد من وجوده مع « المار بحيرة » أسابيع قليلة في صومعته ، فجمع منه سيلاً من المعلومات المتعلقة بالنشوء والارتقاء مع الاعتذار « لدارون » وبعلم النفس والفيزياء الحيوية بل وبالصوت والضوء والتنجيم ، وظل يجتر هذه المعلومات وينمقها ويضيف إليها من خياله المريض حتى بلغ الأربعين من عمره ، فدفعه وهمه إلى جعلها النواة الأساسية لنبوته المزعومة . هنا لا بد أن نتخذ واحداً من قرارين : إما أن نطالب بإقامة تماثيل « للمار بحيرة » في كل عواصم دول العالم المتحضر بوصفه أول عالم ألمَّ بكل هذه العلوم الحيوية قبل مئات السنين ، وإما أن نقيمها لمحمد المريض وأن ننسب إليه كل هذه الاكتشافات العجيبة .

قال وهو يحرك يده مهدئاً :

ـــ جميل ـــ منطق جميل ـــ لكنني لا أعرف إذا كان له باع كذلك في الصوت والضوء والتنجيم ... يا له من نبي !

ـــ إي والله ـــ كان له باع طويل في التنجيم خذ على سبيل المثال ما قاله في سورة « الروم » يقول في مطلعها : ﴿ الم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ١ ، ٦ هذه الآيات تؤكد أن الروم قد غلبوا فعلاً ، ولكن التنجيم الذي برع فيه نبينا أكد أنهم

سيغلبون في بضع سنين. «وبضع» هذه في لغتنا تستعمل في الإشارة إلى أقل من عشرة ولقد غلبَ الروم وانتصروا من بعد هزيمتهم بسبع سنين كما يؤكد التاريخ. والفرق بين منجمنا والمنجمين الآخرين أن هؤلاء يعزون ما يبتكرونه إلى الأرواح أو الجن أو الكواكب. أما نبينا فكان أكثر حذقاً إذ عزاه إلى الخالق العظيم.

ـــ محض مصادفة تقع في حاضرنا مرات ومرات، ولا يزعم قائلوها أنهم أنبياء!

ـــ ليكن، قد يكون تنجيمه مصادفة كما تقول، ولكن ما رأيك بالصوت والأثر الذي يحدثه والذي بتنا نعرفه اليوم بعدما كان يجهله الناس أجمعون في الأزمان الغابرة ولا يعرفون عنه شيئاً؟

ـــ وهل حدد نبيكم مفهوم الصوت أيضاً، وشرح لكم ذبذباته وموجاته أيضاً؟

ـــ نعم يا سيدي، وبشكل لا مجال فيه للمصادفة البحتة أو الشك. نحن نعرف اليوم أن الله سبحانه قد أودع في آذاننا قدرات محسوبة لتلقي الذبذبات الصوتية وتحليلها وتفسيرها. وإن «جراهام بل» حدد هذه القدرات بين «١٠ ـــ ١٢» «ديسيبل» بالمقياس العلمي، وإن ذبذباته تبدأ من «١٥ هيرتز إلى ١٥ كيلو هيرتز» للأصوات الحادة إلى آخر ما جاء من دراسات حول هذا الموضوع، ونعرف اليوم أن هذه الذبذبات قد تدمر جهاز السمع عند الإنسان، وقد تميته بالسكتة القلبية. ولقد اعتمد نبينا هذه المعلومة ـــ التي كان يعرفها حينذاك ـــ فأوردها في عدد من الآيات بدأها في العقاب الذي أنزله الله بأولئك الذين قتلوا في الإسكندرون ذلك الذي آمن بأقوال الرسل ـــ كما تقول المراجع الدينية ـــ بضرورة استبدال عبادة الأوثان بعبادة إله واحد. قال: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ ٢٨، ٢٩ يس، وكرر ذكر الصيحة القاتلة في الآية التاسعة والأربعين من السورة نفسها فقال: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون﴾ ٤٩ يس.

قال الرجل معانداً:

ـــ وعلى فرض صحة هذا القول

فقاطعته قائلاً:

ـــ دعك من الفرضيات. إنه أمر صحيح يؤكده العلم.

ـــ ليكن يا سيدي صحيحاً. ولكن ما علاقة ذلك بنبيكم؟ أنت تريد أن تربط بين الصيحات والصرخات وبين صحة النبوة. إن آثار الصيحات والصرخات كانت معروفة في المعارك التي ما كان العرب يكفون عنها فيما بينهم، كانت تشجع المقاتل أو تخيفه، ونبيكم استخدم هذه الكلمات استناداً إلى ما كان يراه في مجتمعه.

ــ وهل تعرف واقعة واحدة، قتل فيها الصوت مقاتلاً أو إنساناً عادياً؟ إن هذه الآيات تبين أن نبينا كان يعرف آثار الصوت لا في التشجيع أو التخويف، بل بفقد الحياة، وهو أمر لم يسبق وقوعه في المعارك والغزوات، فكيف تفسر معرفته بهذا الأثر رغم أنه لم يكن هناك من يعرف شيئاً عن الصوت وذبذباته؟

ــ مجرد مبالغة. كان الناس يعرفون أن الأصوات تشجع وتخيف وكل ما فعله نبيكم هو المبالغة في القول استناداً إلى ما جاء في الأسفار القديمة عن الشعوب التي بادت قبل أيام يعقوب.

ــ تعني أنها خبطات عشواء هي الأخرى، فجاء العلم بعد قرون يؤكد ارتباطها بمعطياته! محض مصادفة... ألا ترى أن قانون المصادفة قد حصر كل احتمالاته في خدمة هذا النبي الدعي؟

ــ أنت تفسرها اليوم كما يحلو لك بعد أن أصبح هناك ما يتيح لك هذا الاحتمال. هذا كل ما في الأمر.

ــ وما رأيك في الآيات التي تتحدث عن نهاية الكون؟ لقد ملأت الأساطير أذهان المؤمنين بالأديان بما يشير إلى نهاية الكون على يد شخصيات أطلقت عليها أسماء مختلفة كالأعور الدجال، ويأجوج ومأجوج والمهدي المنتظر، وما إلى ذلك. وفي كل دين أساطير تؤكد ما يشاع عنها. هل هي هراء كذلك أفسره كما يحلو لي؟

ارتفع صوت أحد الحاضرين، وكان واحداً من الثلاثة الذين جاؤوا لزيارتي أخيراً وقال:

ــ هل يمكن أن تسمعنا تلك الآيات لو سمحت؟

ــ بكل طيبة خاطر. لقد جاء ذكر نهاية الكون في أكثر من موضع في كتابنا المقدس. سأبدأ بما اعترض عليه الدكتور المحترم لتكوين الصورة في الأذهان كما درجت عليه عادة نبينا ثم أورد الآيات الأكثر وضوحاً.

بدت على اللاهوتي أمارات التبرم فاسترسلت قائلاً:

ــ يبدأ بذكر ما سيحدث لغير المؤمنين بالحياة الآخرة ونهاية الكون فيقول: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ ٤٨، ٥٢ يس.

إن نبينا بعد أن اعتمد على الصيحات والصرخات فبالغ في آثارها بشكل عفوي ، وجاء العلم بعد قرون يؤكد صحة قوله بمحض المصادفة وحسن الحظ ، لم يقف عند حده من المبالغة بل ابتكر أثراً جديداً لم يتوصل العلم إليه حتى اليوم ، فزعم أن هناك من سينفخ في الصور فيعود الأموات إلى الحياة ويتساءلون عمن أحياهم بعد موتهم ، فيؤمنون بعد فوات الأوان بصحة ما قاله الرسل الذين كذبوهم في حينه .

قال اللاهوتي مؤكداً :

ــ هذا صحيح تماماً . وكأنك تتكلم بلساني . إن ما يقوله نبيكم مجرد مبالغة لا يؤكد علم اليوم صحته . فهو بالتالي مجرد كلام لا يسمن ولا يغني من جوع كما تصفون الهراء بلغتكم .

ــ لكني أراك قد تناسيت أن تأثير الذبذبات الصوتية القادر على قتل الإنسان ، لم يكن معروفاً حينذاك ، فجاءت المصادفة تخدم مبالغة ذلك النبي وتحقق قوله ، فهل تضمن أن لا تخدم المصادفة هذا الادعاء كذلك بعد قرون كما خدمته أول مرة ؟ نحن نعرف أن الصوت يحرك الجزئيات المادية ، لكنه لا يحيي الإنسان . ألا يحتمل أن يأتي اليوم الذي يؤكد هذه الحقيقة ، أم تراك تفضل الانضمام إلى أولئك الذين لم يصدقوا القول إلا بعد أن انطبق عليهم ؟

ــ دعنا من الشطط من فضلك . أنا أومن وأعرف مصير الإنسان في العالم الآخر . والله الذي نؤمن به لا يحتاج إلى صيحات ولا إلى صرخات ليحقق ما يريد .

ــ واضح أن نبينا أراد أن يضيف شيئاً من ابتكاره ، ولكن هل تتفضل بإعلامنا بما تعرفه عن نهاية العالم وفقاً لنظريات العلم الحديث ؟

ــ هناك نظريات متعددة بناها أصحابها على فكرة عودة أجزاء الكون إلى الالتحام ببعضها كما كانت قبل بدء الخليقة . والخلاف حول بعديات الالتحام .

ــ وهل كانت هذه النظريات معروفة قبل أربعة عشر قرناً ؟

ــ ماذا تقصد بهذا السؤال ؟ لم تكن معروفة طبعاً .

ــ لكن نبينا قالها بوضوح . فما رأيك ؟

والتفت إلى الحاضرين وقلت :

ــ اسمعوا يا إخواني هذه الآيات ، سأبدأ بسورة « التكوير » وهي السابعة حسب ترتيب النزول . يقول فيها : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموؤدة سئلت ، بأي ذنب قتلت ﴾ ١ ، ٩ .

ـــ قاطعني الرجل قائلاً :

ـــ ألا ترى بنفسك الخلط في هذه الأقوال ؟

ـــ رويدك ، دعني أقدم ما أتذرع به من الحجج . ولن أقاطعك في بياناتك التي ستكذب بها أقوالي . أقول : إن نهاية الكون أثيرت بعد ذلك في السورة الثانية والثمانين حسب ترتيب النزول إذ قال نبينا فيها : ﴿إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجّرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ **١ ، ٥ الانفطار** .

أردت البدء في شرح هذه الآيات والتعليق عليها لكن الرجل نظر في ساعته وقال :

ـــ لقد تأخرنا كثيراً هذه المرة . دعنا نناقش آياتك هذه في جلسة مقبلة .

ـــ لا مانع عندي . أنت تأمر وأنا أنفذ الأمر !

راح زملائي يجمعون آلات التسجيل ويعدون العدة للانصراف ، بعد أن دون كل منهم في مذكرته الخاصة الملاحظات التي ستثار في جلساتنا الخاصة لترتيب الردود التي سنقدمها في جلساتنا مع ذلك المستشرق كما جرت عادتنا كل مرة . ثم وقفنا نودع الرجل ، ونُحيِّي الحاضرين بانحناءة لطيفة ، ونتجه نحو باب القاعة للانصراف . حينئذٍ ارتفعت أصوات في القاعة تقول :

نحن إخوة ، وسنبقى إخوة معكم .

فرفعنا أيدينا محيين باسمين وانصرفنا .

زيارة جديدة

كنا في جلسة خاصة ، نجمع الآيات التي سنرد بها على اعتراضات المستشرق ونرتبها حسب تسلسل نزولها عندما قرع الباب . كان القادمون مجموعة كبيرة من الشباب يتقدمها أولئك الذين جاءونا من قبلُ مستطلعين .

استقبلناهم مرحبين ، وأجلسناهم على مقاعد حولنا ، كانت وجوههم تنطق بمشاعر الصداقة والتقدير وهم يقدمون الاعتذار عن مجيئهم في توقيت مخالف للندوات المفتوحة التي نستقبل فيها القادمين مساء كل خميس . قال المتحمس الذي كان يناصرني علناً في الجلسة الأخيرة :

ـــ سأتكلم نيابة عن زملائي ، وبالاتفاق معهم . إن كل ما سمعناه منك حتى الآن منطقي ومقنع جداً ، لكن ما يحيرنا ، وما نحاول أن نجد له حلاً مقنعاً حتى الآن سؤال لم نجد له رداً . لقد قرأت لي في زيارتي الأخيرة الآيات التي تضمن سلامة غير المسلمين من الأديان الأخرى ، وجعلت الجميع متساوين ، لكن العداء لا يزال قائماً رغم ذلك . فالمسلمون يرون أننا كفرة مكروهون نستحق القتل ، رغم صراحة تلك الآيات . فما رأي حضرتك في هذه المعضلة ؟

قلت باسماً :

ـــ هذه حكاية طويلة لها جذور متشعبة سأشرحها لك ولزملائك ، وأرجو أن لا يزعجكم ما أقول ، مادام يعتمد على مصادر لا يمكن نكرانها . المسألة تنحصر في رجال الدين من الجانبين فهل أنتم على استعداد لسماعها ؟

أكدوا كلهم رغبتهم في سماع ما سأقول :

ـــ لنعد إلى ما قبل الميلاد عندما كانت الإمبراطورية الرومانية تهيمن على فلسطين بعد معارك كثيرة مع الفرس واليونان . كان لكل جماعة من السكان في تلك الأرض لغته الخاصة ، وإن كان اليهود يروجون أن اللغة العبرية هي التي كانت سائدة رغم أن الأرض كانت

للكنعانيين ، وبعد صلب المسيح تقول مصادر غربية متعددة : إن عدد الأناجيل التي صدرت وعُزيت إلى المسيح تجاوزت المائة ...

قاطعني الشاب معتذراً :

ــ أنت تؤمن إذن بصلب المسيح ؟!

ــ تمهل أرجوك . سنصل إلى هذه النقطة في سياق حديثنا ، فلا تستبق الأمور .

أقول إن مراجع عديدة أكدت أن ما صدر باللغة العبرية من أناجيل عُزيت إلى السيد المسيح تجاوزت مائة . فالمسيح عليه السلام لم يكتب شيئاً ، ولم يكلف كتبة معينين بتسجيل أقواله ، لتصبح الأساس الذي يقوم عليه الدين ، كما فعل نبينا . والفضل في وجود هذه الأناجيل يرجع إلى الحواريين الذي اعتمدوا على أقواله في التبشير بالمذهب الجديد . لكن المؤمنين المخلصين وجدوا أن التناقض الذي كان فيها دسه اليهود الذين زوروا أقوال السيد المسيح ، ليضمنوا بقاء سلطانهم وسيطرتهم الروحية التي شوهوها بما يتفق ومصالحهم الخاصة ، فألغيت تلك الأناجيل المدسوسة ، واقتصر الأمر على أربعة متداولة اليوم ، هي أناجيل متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، إضافة إلى الإنجيل الخامس الذي لا تقره المراجع الدينية الرسمية لأنه ينفي الربوبية ويؤكد « الناسوتية » وهو إنجيل يعمل به من نسميهم بالنساطرة ومنهم الآشوريون .

تبادل الشبان النظر فيما بينهم فسألني المتكلم نيابة عنهم :

ــ هناك إنجيل خامس ؟

ــ نعم وأرجو أن لا تنسوا أن مطران الإسكندرية كان من الذين لا يؤمنون بربوبية السيد المسيح على الشكل الذي أقامه الفكر الكاثوليكي ، فحورب هو وأتباعه ، لكن العقيدة ظلت قائمة فالآشوري على سبيل المثال يبدأ صلاته قائلاً : « شُمّت آلاها وأيشو مشبخا » أي : باسم الله وعيسى المسيح .

عادوا يتبادلون النظرات التي تنطق بالاستغراب فقلت متابعاً :

ــ هذا كله مجرد تمهيد لما سنصل إليه ، ولا غرابه فيه لأن الأديان كلها حافلة بالطوائف . نعود إلى موضوعنا الأساسي . في هذه الأناجيل المعتمدة الآن لم يقل السيد المسيح في أيّ منها أنه الله أو ابن الله كما بات شائعاً في المفهوم المسيحي . كان إذا تكلم عن نفسه يقول : « أبي الذي في السماوات » وإذا خاطب الناس حوله قال : « أبوكم الذي في السماوات » وهذا يعني كما سبق لي القول أن السيد المسيح كان يعتبر العلاقة بين المخلوق والخالق علاقة رب الأسرة بأسرته ، هذا إذا تجاوزنا التزمت والتعصب ، في حين أن الإسلام جعل تلك

العلاقة توطد بين المعبود والعابد، وكل المؤمنين بالله العظيم عباد يؤمنون بقدرته ونظامه، لكن هذا لا ينفي أن كل من يدبون على هذه الأرض أبناء الله الخالق، لأننا لا نملك في واقع الحال أي شيء من ذاتنا. كل ما فينا من صنعه، فمن نكون في هذه الحالة إذن؟

قال أحدهم تؤيده نظرات الآخرين:

ــ منطقي والله، كلنا أبناء الله.

ــ والخطورة التي تحاشاها ديننا الذي جاء يعدل في تفاصيل الأديان الأخرى التي باتت تطلب إيضاحاً، هي سوء تفسير هذه البنوة بين الخالق والمخلوق. ولا تنسوا أن من يرتكب خطأ من إخواننا المسيحيين يذهب إلى القس، فيعترف له بخطئه ليصلي وليحصل على الغفران وهذه نقطة هامة لا بد من التوقف عندها، إذ ما الفرق بين الخطّاء والمعرِّف؟ كلاهما إنسان لكن الفرق يكمن في أن المعرّف إنسان صالح مستقيم، في حين أن الآخر إنسان انحرف عن الطريق القويم، فبات أدنى قيمة من الرجل الصالح، يتوسل إليه أن يحصل له على المغفرة. لكن ديننا ألغى هذه العلاقة، وجعل الصلة مباشرة بين الخالق والمخلوق لا تحتاج إلى وسيط ولم يتم هذا الإلغاء لمجرد حماية المخطىء من التذلل للإنسان الصالح، بل لأن الواقع يؤكد أن الإنسان إنسان أياً كان وضعه، وأنه معرض للخطأ. والمراجع الغربية تؤكد أن كثيراً من رجال الدين انتهكوا أعراض المعترفات في القرون السابقة واستولدوهن، وأن كثيراً من الراهبات كُنَّ على علاقات مع عشّاق لهن، وما إلى ذلك من فضائح قرأناها في مؤلفات موثوقة. ولو كان لمثل هذه العلاقة وجود في ديننا، لما ندر وجود مثل هذا السلوك بين الغافرين وطالبات المغفرة، فالإنسان إنسان كما قلنا.

ــ كلام سليم لا اعتراض عليه.

ــ من هنا ترون أن التعديل جاء في التفاصيل، وليس في الأسس، وإن الغاية منه تجنب المزيد من الأخطاء، وإقامة مجتمع فاضل. لننتقل الآن إلى السيد المسيح. كتابنا الذي نؤمن بعقلانية ما جاء فيه يقول: إن الله أرسل روحه إلى مريم بشراً سوياً ليتم اللقاء، في حين أن هناك أقوالاً في بعض المراجع المسيحية تقول: إن اللقاح تم عن طريق الأذن وقد ناقضتها أقوال أخرى، لأن الأذن لا ترتبط في شيء مع الرحم، والذين روجوا القول الأول هم الذين آمنوا بمفهوم العذارء الحسي، بينما روج اليهود أقوالاً تتهم السيدة العذراء بالتزاني مع من أسمته بيوسف النجار، وهو القديس يوسف. هنا تقفز إلى أذهاننا واقعتان متناقضتان: الأولى مقتل الأطفال الذين اعتقد أن المسيح المنتظر واحد منهم يجهلون ذويه. وهذا يعني أن الذين قاموا بمجزرة الأطفال تلك كانوا يخافون من ذلك الطفل المنتظر، فلم

يجدوا وسيلة أخرى للخلاص منه غير قتل من يتوقع أن يكون في عدادهم، وهذا التصرف يعطي الطفل المنتظر جانباً كبيراً من الأهمية. أما الواقعة الثانية فهي اتهام السيد المسيح بأنه ابن زِنى، وما فعله اليهود من حرمانه من الحقوق المدنية وطرده من المجتمعات؛ لأنه إنسان محتقر لا يحق له أن يغشى مجالس الشرفاء. والتناقض واضح في هاتين الواقعتين اللتين تؤكدهما مراجع عديدة معترف بها.

ــ وهذا جاء أيضاً في مراجعنا ولا نكذبه.

ــ حسناً السؤال الآن هو: إذا كان السيد المسيح ابن زِنى يحتقره المجتمع وينبذه، فهو بذلك يكون ميتاً وهو حي، فلماذا إذاً يتآمرون لقتله؟ إنه منبوذ ومحتقر ومحروم من الحقوق المدنية وهو حي فلماذا يقتل؟ الجواب الوحيد هو: لأن ما جاء به يهدد مراكز الحاخامات ورجال السلطة المتذرعين بالدين، الذين تلاعبوا به وسخروه لخدمة أغراضهم، أي أن الدين كان وسيلة يستغلها المغرضون للهيمنة والتسلط. فهل هناك في رأيكم سبب آخر يوجب قتل ابن الزنى المحروم من الحقوق الاجتماعية؟

ــ لا ريب أنه السبب الوحيد. فعلاً لِمَ يقتل من كان حياً ميتاً؟

ــ وهذا ما ابتكره نبينا حسب قول ذلك المستشرق. اسمعوا هاتين الآيتين اللتين جاءتا حول هذا الموضوع في سورة «النساء» ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ ١٥٦ وقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما﴾ ١٥٧، ١٥٨.

وهنا أود أن أقول: إنني دخلت في بحث هذا الموضوع مع العالم الكبير الأب «لويس شيخو الشرتوني اليسوعي» رحمه الله. ولم نختلف في النتائج حين نتمسك بحرفية كلمات الآية الكريمة التي تؤكد أن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه. والخلاف الذي يستحق الوقوف عنده هو العبارة: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ ١٥٧ النساء، فلو جاء النص دون البدل الذي يحدد طبيعة المسيح، لكان نفي قتله أو صلبه قاطعاً. لكن إضافة البدل «رسول الله» تبين أن القتل إذا فُرض وقوعه لم يكن للخلاص من ابن الزِنى بل من الرسول الذي يبشر بدين جديد يهدد مصالحهم الحيوية، وهذا يؤكد أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل خيل لهم، لأن دينه الجديد انتشر رغم كل محاولات وأده. والقتل كان في واقع الأمر محاولة للقضاء على ذاك الدين الجديد الخطير الذي يسلب اليهود، المستغلين لدينهم، كل سلطان يتمتعون به، لذا فإنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، لكنهم ظنوا بفعلتهم تلك أنهم تخلصوا من ذلك الخطر الذي كان يهددهم.

وأنتم ترون أن اليهود ــ بمكرهم ــ قد استطاعوا أن يربطوا المسيحية بدينهم زاعمين أنها العهد الجديد لعهدهم القديم ، وأنتم ترون وتسمعون ما يفعلونه بالمسيحيين بالتفرد في أهدافهم ومراميهم .

ــ أهذا يعني أن الإسلام يعترف بصلب المسيح ؟

ــ هذه نقطة الخلاف الرئيسة . إن الاعتراف بصلبه ، أو عدم الاعتراف لا يغير شيئاً في أسس الدين ، لأن هذه الواقعة ككل مثيلاتها المتعلقة بالأديان الأخرى ، مما جاء في كتابنا الكريم بدءاً من آدم وحتى نبينا ، إنما هي مجرد معلومات يتزود بها الإنسان ليكون أكثر معرفة لأن ديننا يقوم على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . والإيمان بالله يستوجب التقيد بتعليماته وتنفيذها . لن أكون مذنباً إذا صدقت أنه كان لكل من سليمان وداود سبعمائة زوجة وثلاثمائة عشيقة ، كما لن أكون أكثر إيماناً إذا رفضت سماع مثل هذه الأقوال وتصديقها لأنها أمور لا ترتبط بصُلب ديننا .

ــ هذا يعني بوضوح أن الخطأ كل الخطأ مرتبط برجال الدين .

ــ ألا ترون ذلك واضحاً في الوقائع التاريخية والاجتماعية التي تملأ المراجع والكتب ؟ إذا كان السيد المسيح قد أمركم بأن تحبوا أعداءكم كإشارة واضحة إلى ضرورة احترام حق كل إنسان في الحياة ، فكيف نبرر المذابح التي تمت بين مختلف الطوائف المسيحية وبين والمسيحية والإسلام وكلها باسم الدين ؟

ــ أين الخلاف إذن ؟

ــ لا خلاف من حيث المبدأ . اسمعوا هذه الآيات التي جاءت في مطلع سورة « البقرة » :
﴿ الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ١ ، ٥ البقرة ، فالمتقون هم الذين يؤمنون بما أنزل إلى نبينا ، وما أنزل إلى الذين جاءوا قبله .

ــ لكن الإسلام يقول : إننا كفرة .

ــ كلا ، بل قال : إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة هم كافرون . لأنهم يجعلون الله الواحد الأحد شريكاً مع اثنين آخرين ، فإذا كنتم ترون ذلك وتؤمنون أن هناك إلهين آخرين مع الإله الخالق ، فإنكم ولا شك كفرة . إن تعداد الآلهة يعود بالإنسان إلى الوثنية .

ــ نحن نقول باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد .

ــ ونحن نؤمن بأن الله واحد ، وأن الروح القدس من العناصر الرئيسة الأولية التي يستخدمها ، والخلاف كما ترون يكمن في تفسير علاقة المسيح بخالقه ، وهي العلاقة التي

طورها رجال الدين وفقاً للمفاهيم التي اقتنعوا بها. خذوا على سبيل المثال الصلاة التي تقدم للعذراء تقول: «يا قديسة مريم، يا أم الله صلي من أجل خطّائينا اليوم وحتى الممات آمين» فمريم إذن حسب هذه الصلاة أم الله، وهي التي انجبته، والأم تلد عادة من تلقيح الأب، وهذا يعني أن هناك سلالة من الآلهة يتوالدون. فمن منهم هو الإله الأوحد؟
وإذا كان المسيح قد ولد من أم دون أب محسوس فبات إلهاً، فماذا نقول عن أول إنسان خلق في هذا الوجود، ولم يكن له أب ولا أم؟ لكن هذا لا يعني أننا نطالبكم بإلغاء هذه الأقوال بالقوة، لأن ديننا لا يأمرنا بذلك لقوله: ﴿ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ ١٩ المزمل و٢٩ الإنسان وليس على الأرض من يحمل توكيلاً من الخالق ليعاقب عباده على ما يفعلونه بالنيابة عنه. وهذه الصلاة لم ترد في أي من الأناجيل، والسيد المسيح لم يقل في أي منها أنه الله بل كان يعتبر علاقة الخالق بمخلوقاته علاقة الأب بأسرته. كان إذا خاطب السامعين يقول: «أبوكم الذي في السماوات» وإذا تكلم عن نفسه قال: «أبي الذي في السماوات» وهذا التمجيد من صنع المريدين.

ـــ لكنكم تقدسون العذراء.

ـــ طبعاً، رغم أن إنجيل متّى أكد أنها تزوجت من يوسف وأنجبت منه أربعة ذكور إخوة غير أشقاء للمسيح. ولو قرأتم هذا الإنجيل بتمعن لما وجدتم فيه تلميحاً أو تصريحاً بأن المسيح هو الله الابن. وتعليل الأبوة والبنوة ليس خطأ من جانبكم. لقد قيل لكم ذلك منذ أن وعيتم، وهذا الأسلوب متبع لدينا كذلك، لذا ترون أن العلاقة الدينية بين الأفراد والدين ضعيفة جداً وإلا، فهل يمكنكم تعليل ما يجري في المجتمعات الأوربية والأمريكية المتحضرة مما لا يتفق في شيء مع قدسية الدين؟

قال الشاب مؤيداً ما ذهبت إليه:

ـــ الحقيقة أن المستوى الأخلاقي إذا أُخذ بالمفهوم الديني فإنه يصل إلى درجة من الانحطاط لا تبشر بيقظة ضمير.

ـــ هذا في المسيحية سببه القوانين النافذة التي لا يستمدها واضعوها من المفهوم الديني، وهذا هو الذي أدى إلى هذا التفسخ الذي يسمونه تمدناً وتطوراً. لكن هذا لا يمنع أحداً من التقيد بالنصوص المقدسة ما دام سيد فكره وتصوره، فالقانون لا يرغم أحداً على الشذوذ والإغراق في الملذات التي حدد الدين أبعادها، وسيأتي يوم تموت فيه مفاهيم الأسرة تماماً وتتلاشى العلاقات التي تربط بين القريب وقريبه، والإنسان وأخيه وفي هذا نهاية الوجود.

ساد الصمت فترة ثم عاد الحديث حول المستشرق ورأي معظم الذين يحضرون لقاءاتنا بحيث بات التأييد لما يقوله ضعيفاً في النفوس، ثم استأذنوا بالانصراف وتركونا نعود إلى ما كنا نُعدّه.

وفي الجلسة التي أعقبت هذه الزيارة غير المتوقعة، بدأ اللاهوتي وهو أكثر اطمئناناً يضع أمامه حافظته وعليها بعض الأوراق المطوية. قال:

ـ نعود إلى آياتك حول نهاية الكون. لقد قرأتها مرات فلم أجد فيها أي ارتباط أو علاقة بنهاية العالم. إن نبيكم يقول: ﴿إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجّرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت، وإذا الجحيم سعّرت، وإذا الجنة أزلفت، علمت نفس ما أحضرت﴾ ١، ١٤ **التكوير**. ثم يقسم بعدها بالكنس الخنس إلى آخر ذلك. أليس واضحاً أن كل هذا الكلام لا يرتبط بشيء مع نهاية الكون؟ «إذاً» هذه التي يبدأ بها نبيكم أقواله تعني «لمّا» والأمر متروك لمن سيرون هذه الأشياء إذا وقعت ليتأكدوا أن نبيكم مدعوم من الله. فلننتظر ما لا يمكن أن يكون لنعترف بصحة أقواله إذا وقعت هذه المتناقضات. وبانتظار ذلك لن نجد شيئاً يؤكد صحة أقواله. فما رأيك؟ هل ستلجأ كعادتك إلى تفسير هذا الخليط على طريقتك بحيث تجعله دليلاً على صحة نبيكم؟

قلت بلهجة هادئة وبصوت يسمعه الحاضرون:

ـ إن ما قرأته في ورقتك ورد في كتابنا على لسان النبي المريض الذي كان يزعم أن ما يقوله إنما هو وحي من السماء. فلندع نبينا جانباً ولنتكلم بالعلم الذي لن تستطيع إنكاره. يقول العلماء: إن الشمس تستهلك يومياً ـ حسب أيامنا ـ كمية هائلة من مقوماتها التي تحترق، وإن هذه المقومات، عندما تنفد ستتكور الشمس أي ستنكمش في حجمها الذي سيصبح صغيراً جداً بالنسبة إلى الحجم الحالي المعروف، لكن جاذبيتها ستزداد بشكل خارق بحيث تجذب إليها كل ما حولها من كواكب فتلتحم بها وتنصهر. أليس هذا ما يقوله العلم؟

ـ على فرض صحة هذا القول فإن هذه النهاية المزعومة لن تقع قبل مليارات السنين ويكفي أن نقسِّم كمية الطاقة الشمسية على الجزء الذي يستنفد خلال العام لنحصل على عدد السنين الخيالي الذي سينقضي قبل أن تقع هذه الواقعة.

ـ كلام رائع. ويبدو أن نبينا لم يتوقع هذا التسلسل فلم يحدد عدد مليارات السنين التي

ستنقضي قبل أن يتحقق ما يقوله، وجهله المعروف يشفع له. لكن هذا يعني أنه توقع هذه النهاية.

ـــ ألأنه قال إذا الشمس كورت؟ أليست مكورة الآن؟

ـــ لابد أنه يعرف أنها ليست كروية بمفهوم هذه الكلمة وأنها ستتكور حتماً عندما تستنفد ما فيها من طاقة. ومن هنا ترى أنها عندما تتكور، ستصبح قوة الجذب فيها هائلة جداً بحيث تشد إليها كل ما حولها من كواكب، وأرضنا جزء من المجموعة الشمسية.

ـــ نعم يا سيدي.. وعندئذ ستحشر الوحوش وسيتوقف التناسل. تصور أن الكواكب كلها ستندفع إلى الشمس المتكورة بينما تحشر الوحوش على الأرض وتسأل الموؤدة وتنشر الصحف وتنكشط السماء. أليس غريباً هذا التناقض؟ الكواكب تنجذب إلى الشمس المتكورة، أما الأرض، فإن الجبال ستمشي فيها والبحار ستسجّر لأنها لن تتأثر بجاذبية الشمس!

ـــ الله الله! يا للمنطق العظيم! يؤسفني أن أرى نفسي مرغماً على القول بأن هذه العقلية لا تتفق والمستوى العلمي الذي عرفوك به عندما قدموني إليك.

فصاح غاضباً:

ـــ أنت تهينني عامداً. أنا لا أحتاج إلى شهادتك لتثبت مستواي العلمي والعقلي، وإذا كانت هذه طريقتك التي لا يمكنك المناقشة بدونها فإن من الخير لك أن تنسحب.. و..

ضحكت مقاطعاً وقلت:

ـــ وهذا ما تهدف إليه لتدعي أنك كنت على حق. أنا ألجأ إلى الإخوة السامعين ليحكموا من منا المخطئ. ما رأيكم يا إخوان؟ إذا كان حضرته يقول: إن استهلاك الشمس لطاقتها سيستغرق ملايين السنين أو مليارات السنين، كما يقول، فهل يُعقل أن تصل الأمور إلى هذه المرحلة دون مؤشرات على ما سيحدث؟

غمغمة قوية عمت القاعة وصوت تدعمه أصوات يقول: لا بد لا بد. عندئذ التفت إلى اللاهوتي وقلت:

ـــ إنك شديد الكراهية للدين الإسلامي وهي الكراهية العنيفة هي التي تبعدك عن المنطق السليم. لعلك كنت تريد نبينا أن يقول: أولاً سترون أن التناسل سينقطع ثم ستجدون الوحوش التي انقرضت تعود إلى الحياة وبعدها سترون الجبال تتحرك من أمكنتها والبحار تغلي مياهها وعندئذ ستنكشط السماء وتنشر الصحف وتزوج النفوس بحيث ينضم كل إنسان إلى المجموعة التي يتفق سلوكه وإيمانه معها، وبعد هذا كله ستتكور الشمس

وتنكدر النجوم التي ينعكس ضوءُها عليها وستنجذب الكواكب إلى الشمس المتكورة !
إنك تتناسى أن القرآن ليس كتاباً علمياً وإلا لكان أضخم من أضخم موسوعة لأنه يبحث في الأخلاق والاقتصاد والمجتمع والطب والفلك والفيزياء والكيمياء وما إلى كل ذلك .

ــ أقال نبيكم : إن الشمس ستفقد من وزنها بسبب الاحتراق ...؟

ــ ألم أقل لك إن قرآننا ليس كتاباً علمياً ؟

ــ هذا يعني أنه قال عبارات وترك لك أن تفسرها كما يحلو لك وبأسلوبك الذي تتبعه منذ لقائنا الأول لتجعلها مطابقة للعلم الحديث .

ــ أنا أترك للسامعين أن يحكموا وأقبل حكمهم بكل ارتياح ، خصوصاً وأنه قال في سورة الانفطار حول هذا الموضوع ما نصه : ﴿إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجّرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ ١ ، ٥ **الانفطار**
ولا تنسَ أن هذه الآيات قيلت عندما لم يكن السامعون كلهم مؤمنين بهذا الدين الجديد .
ولو كانت كلمة « كورت » تعني استدارت لقال له السامعون : هاهي مستديرة فما معنى ما تقول ؟ أنت لم تأت بجديد .

ــ ليكن . ولكن ما علاقة القبور التي ستنبش ، أهي بشائر النهاية أيضاً ؟

ــ بل هي إشارة إلى يوم البعث الذي سيحشر فيه كل من خلق على هذه الأرض ليحاسب عما فعل . والناس يدفنون موتاهم في القبور لذا كانت هذه الإشارة ضرورية . أولا ترون هذا صحيحاً يا إخواني المستمعين ؟

أيدتني أصوات كثيرة واضحة إضافة إلى همهمات غير جلية . قلت مضيفاً :

ــ إن مجتمع نبينا حينذاك كان يؤمن بالمحسوس وبما هو في حدود مداركه . وأكرر القول بأن التشبيهات التي أوردت في هذه الآيات جاءت مع حقيقة علمية مجهولة تماماً قبل ألف وأربعمائة سنة ، وأن العقول حينذاك لو كانت تؤمن بما هو غير محسوس لما قامت عبادة الأوثان التي ربط الإنسان بها كل ما تعجز مداركه عن فهم دوافعه وأسبابه .

ــ إن هذا كله تعزيز لقناعة مسبقة وثابتة لديك تستخدم منطقك وأسلوبك لإعطائها الصيغة المقدسة . لكن هذه الأقوال كلها ، وما تراه أنت أدلة حاسمة لا تقنع غير المسلمين .

ـــ ها نحن أولاء في وسط غير مسلم يشكل إخواننا المسيحيون أكثرية ساحقة فيه . ولسوف أوافقك على قولك دون غضب أو عصبية إذا كانوا مؤيدين لوجهة نظرك . ما رأيكم أيها الإخوان ؟

علت أصوات واضحة تؤكد صحة رأيي فاستدرك الرجل بسرعة وصاح بصوت مرتفع :

ـــ دعوني أكمل حديثي ثم نأخذ الأصوات .

والتفت إلي وقال :

ـــ المناقشة بيني وبينك لكنك تصر على إشراك المستمعين فيها وهم من غير المتخصصين في هذه الأمور .

ـــ إن عدم التخصص لا يلغي العقل والتحليل وحسن الاستنتاج . ولو كانوا سذجاً جهلاء يمكن التلاعب بعواطفهم كما يتبادر إلى ذهنك لوجب أن يعلنوا إسلامهم بعد هذه الجلسات الطويلة وما دار فيها من نقاش وحجج مفحمة إذا ما أيدوا وجهة نظري . ولكن اطمئن لن يفعلوا ذلك لأنهم مؤمنون بمسيحيتهم . كل ما سيفعلونه هو أن يؤكدوا أن ما قدمته لك من براهين ينفي ما أسبغته على نبينا من صفات . والفرق بينك وبينهم أنك تحمل فكرة عدائية للدين الإسلامي استولت على كل مشاعرك ، أما هم ، فشرقيون وأبناء الوطن الواحد لا يعنيهم دين الإنسان بقدر ما يعنيهم سلوكه وأخلاقه والعلاقة القائمة معه . ولا تنسَ أن أسلاف الحاضرين هنا حاربوا الصليبيين مع المسلمين لأنهم تأكدوا أن إشارة الصليب التي كان المحاربون يتحلون بها ما كانت إلا خدعة لا تتفق في حقيقتها مع تقاليد الدين وأخلاقه ، تخفي وراءها الأطماع الاستعمارية التي كانت تملأ نفوس قادة تلك الحروب . لقد عاش الغساسنة والعدنانيون عيشة إخاء ومحبة وتعاون مع أن الغساسنة كانوا مسيحيين وما كانوا لينقلبوا لولا العناصر الخارجية التي تتلاعب بعواطفهم بشتى الوسائل لتسخرهم في خدمة مراميها ، لكنهم سرعان ما كانوا يستفيقون من غفلتهم ويدركون المكيدة المدبرة .

قال الرجل وقد ظهرت بوادر الاستكانة على وجهه :

ـــ أنت ترى أن من يناقش موضوعاً حيوياً يحمل في نفسه عداءً وكراهية لذلك الموضوع فكيف يتم النقاش إذن ؟

ـــ لو شئت أن أجاريك بالأسلوب الذي تتبعه لبات من حقي أن أجلس مع أي مسيحي وأتهم المسيح المحترم بأنه ابن زنى وأرفض كل ما قد يورده من أقوال حول قدرة الله على خلقه

في رحم أمه دون أن يضاجعها إنسان ولبحثت في الأناجيل العادية منها والمصورة لأجمع ما يتناقض فيها فأعتبره دليلاً على أنها كتب أبتكرتها أذهان واضعيها مستهيناً بالملايين الذين يؤمنون بها .

ـــ أراك ناقم علي كنتيجة لهذا النقاش الذي كنت أتوخى فيه استيضاح ما كان يغلق علي فهمه .

ـــ لو كان الأمر كذلك لوجب أن تبدأ نقاشك بمقدمة لطيفة تقول فيها أن هناك بعض الأسئلة التي ستطرحها لتستوضح بعض النقاط الغامضة بالنسبة إليك في الدين الإسلامي ، ولما بدأت كما بدأ اليهود مع المسيح باتهام أمه بالزنى وبتكذيب كل معجزاته حتى غلبوا على أمرهم فسلكوا سبلاً أخرى .

ـــ لن أكابر ولن أدافع . أنا أعترف بخطئي ولا أعيب نبيكم في شيء ولن ألجأ بعد اليوم إلى أسلوب الهجوم الذي بيّنته وسيقتصر ناقشنا على أسئلة استيضاحية فقط دون نوايا خلفية .

علا الهتاف والتصفيق في القاعة فتريثت حتى هدأت الضجة وقلت :

ـــ وأنا أنحني أمامك وأحييك باحترام وأقول مذكّراً بالعداء الذي لا مبرر له الذي يكنه ذوو الأطماع من المسيحيين للدين الإسلامي . أذكر الإخوة الحاضرين أن الجنرال غورو قائد قوات الاحتلال الفرنسية الذي دخل دمشق بعد هزيمة العثمانيين ذهب إلى قبر صلاح الدين فركله بقدمه وقال : صلاح الدين ها نحن أولاء قد عدنا فَقُمْ . وهذا أكبر دليل على صليبية الغاية .

عاد الحاضرون يصفقون والرجل فيما يشبه الذهول . قلت متمماً :

ـــ إن المراجع الغربية تفسر سلوك نبينا بأنه فكر في طريقة يستخدمها لتبوُّء مركز الزعامة في قبيلته فلم يجد غير الادعاء بالنبوة . واستندوا في قولهم إلى أن النظام القبلي الذي يحرم الأطفال من الزعامة إذا مات آباؤهم قبل بلوغهم السن القانونية هو الذي حال دون زعامة محمد لأن أباه مات وهو لا يزال وليداً ، مع أن هذا القول لا يمت بسبب إلى الصحة لأن أبا النبي لم يكن زعيماً في قبيلته ولأن زعماء قريش الذين كانوا يستمدون سلطاتهم ورابطتهم من استيلائهم على الأوثان التي كان العرب يعبدونها ويقدمون لها القرابين ، عرضوا على مدعي النبوة هذا مالاً وفيراً ومركزاً رفيعاً لقاء تخليه عن دعوته فأجابهم برده الذي نقلته المراجع : والله لو أعطوني الشمس بيميني والقمر بشمالي على أن أكف عن الدعوة لما استكنت . ولما هزمهم واستولى على السلطة لم يسلبهم أموالهم ولم ينكّل بهم ولم يحرمهم من

سلطانهم وكان الذين خلفوه يعيشون عيشة الكفاف مع أنهم كانوا قادرين على أن يفعلوا أضعاف ما يفعله أغنياء العرب والمسلمين اليوم من موبقات .

قال الرجل بلهجة جديدة :

ــ ولكن إذا وافقتك على رأيك القائل : إن ما قاله نبيكم كان وحياً من الخالق فإنني سأجد نفسي مرغماً على العودة إلى الشك بشدة نظراً لغرابة الإله الذي زعم أنه يوحي إليه بما يقول . إن إلهكم هذا الذي صوره نبيكم في أقواله قمة في الظلم والاستهتار والجبروت . ولو كان إلهاً حقيقياً كذاك الذي جاء ذكره ووصفه في كل الأديان الأخرى لوجب أن يكون على شكل آخر .

ــ أنا مدرك ما ترمي إليه ، وعليه إذا أثبتُّ لك أن إله محمد ليس كما تصفه ، بل إنه الإله الذي أوحى بالأديان كلها وفقاً لتطور مدارك مخلوقاته ، فهل تعدني أمام الحاضرين بأن تعترف بصحة نبوة محمد وأن تكف عن مهاجمة الإسلام لمجرد قناعة خاطئة ؟

قال الرجل بلهجة هادئة تقريباً وهو يجيل بصره فيما حوله :

ــ أعدك وسأحافظ على وعدي إذا استعطت إثبات صحة ما تقول . إن معي هنا الآيات التي تؤكد أقوالي وسأعلنها على مسامع الإخوان الحاضرين في الجلسة المقبلة . أما الآن فإنني أدعوك أن تهدىء أعصابك وأن تريح نفسك لتكون أكثر تسامحاً في الجلسة المقبلة .

وانفضَّ الاجتماع على أن نعود إلى اللقاء مساء السبت المقبل .

إلهكم ظالم

وفي لقائنا الأسبوعي جاء إخواننا كعادتهم يستمعون إلى ما دار بيني وبين ذلك المستشرق من نقاش وكنت أحتفظ بالأشرطة المسجلة التي تعطي صورة واضحة عن طبيعة تلك الجلسات وردود الأفعال لدى الحاضرين .

وكان بين الحاضرين بعض الجامعيين الذين جاءوا مع زملاء لهم مستطلعين وبعد أن استمعوا إلى ما دار بيننا في تلك الجلسة قال أحدهم :

ــ أنا لم أسمع حتى اليوم رجل دين يدافع عن الإسلام بهذا الأسلوب العلمي المقنع وأنا واثق من أن رجال الدين لو اتبعوا هذا الأسلوب في مواعظهم لتغير الحال ولامتلأت المساجد والجوامع بالمصلين المؤمنين .

قلت مستجيباً للغمغمة التي أيد بها الحاضرون أقوال ذلك الشاب :

ــ المشكلة التي تعترض رجال الدين الذين أشرت إليهم هي تمسكهم بأقوال السلف واعتبارها جزءاً لا ينفصل عن جوهر الدين . والآيات التي جاءت في قرآننا الكريم تدعو إلى الإيمان بالله وبرسوله حملتهم على الاعتقاد الراسخ بأن كل ما قاله الرسول يجب أن يعمل به لأنه جزء أساسي من الإيمان ، وهذا الاعتقاد الراسخ هو الذي يجعلهم يتجاهلون أن ما كان يقوله نبينا الكريم قبل أربعة عشر قرناً كان يتفق مع مستوى الإدراك في ذلك الحين .

ــ لكن عدم الإيمان بأقوال النبي خروج على الأمر الإلهي الذي يدعو كما تقول إلى الإيمان بالله وبالرسول ؟

ــ وهذا هو الخطأ الذي لا يعملون على تصحيحه . انتبه إلى ما سأقول : إن نبينا العظيم يأمرنا بإطاعته . والسؤال الذي يُطرح هنا هو : هل خاطبنا الخالق مباشرة أم بواسطة إنسان اصطفاه ليقوم بمهمة نقل تعاليمه إلينا ؟ وما دام هذا الإنسان المصطفى هو الوسيط الذي ينقل إلينا تلك التعاليم ، فهل سنؤمن بالله نفسه إذا كنا لا نؤمن بذلك الوسيط ؟ لقد سمعت من شريط التسجيل قبل قليل ما يؤكد أن عدم ثقة ذلك المستشرق بصحة

ما ينقله نبينا هو الركيزة التي يبني عليها كل كفره بآيات الخالق العظيم وأقواله التي حفظت في كتابنا المقدس . هل أدركت الآن الغاية السامية التي يرمي إليها ربنا الكريم بهذا القول ؟ لو لم نؤمن بالرسول لما آمنا بالخالق العظيم . أليس كذلك ؟

سادت همهمة بين الحاضرين فقال الشاب :

ــ هذا يعني بحق أن الإيمان بالرسول ينحصر فيما نقله عن الخالق بصرف النظر عن كل ما نقل عنه من أحاديث .

ــ هذا شطط إلى حدٍ ما . إن اختيار الخالق لمخلوق ينقل إلى عامة الناس تعاليمه يرفع ذلك المخلوق المختار إلى مرتبة لا يصل إليها أيّ منا . ألا يستحق هذا المخلوق المختار أن نقرّ برفعته وسموه وأن نوليه الاحترام بوصفه الوسيلة المجسدة التي اختارها الخالق العظيم لتبليغنا بما يريدنا أن نكون عليه ؟

علا صوت أحد الحاضرين من خريجي الشريعة قائلاً :

ــ لكن هناك من الأحاديث المنقولة عن النبي الكريم ما يتعارض مع أقوال الخالق !

ــ صحيح وسأورد لك بعضاً منها على سبيل المثال . هذا قول نقل عن ابن مسعود عن النبي : « الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره » وقوله : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره » عن سند ابن حنبل الجزء الثاني ص١٨١ ، وقوله كذلك : « ما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وحديث عن البخاري نقله عن أبي هريرة عن النبي إذ قال له : « جفّ القلم بما أنت لاقٍ » وحديث عن علي بن أبي طالب يقول : « ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار . فكل ميسر لما خلق له » .

ــ ألا يعني هذا أن الله قد اتخذ قراراً مسبقاً حدد فيه الذين سيجعلهم صالحين لينعموا بالجنة والذين حكم عليهم أن يكونوا أهل النار ؟ هل يستطيع الإنسان المخلوق أن يناقض ما أمر به الخالق من حيث النهاية والمصير ؟

ــ هذا موضوع سأناقشه مع المستشرق في الجلسة المقبلة . إنه يتهم الخالق العظيم بالظلم كما سمعتم وأفضِّل أن نرجيء البحث فيه إلى « لقائنا المقبل حيث ستسمعون ردودنا على مثل هذا الاستنتاج فأرجو أن تكونوا في عداد الحاضرين .

ــ هل تسمح بأن نأتي معك ؟

ــ إنني أفضل أن يبقى عددنا من الحاضرين في جلسة النقاش مقتصراً على زملائي الذين يساعدونني فحسب ، لأننا إذا تجاوزنا هذا العدد نقدم حجة للطرف الآخر يتذرع بها

عندما ندعوا الحاضرين من الإخوان المسيحيين لان يدلوا باصواتهم كما اتفقنا في الجلسة الأخيرة . لكنني أنوه الآن بالقول : إن الفارق الزمني في تطور مفهوم الإنسان يعطيك جانباً من الجواب على تساؤلك .

بدت أمارات الحيرة على وجه الشاب فقلت موضحاً :

ـــ خذ على سبيل المثال ما جاء في كتاب القرطبي عن ابن عباس قال : سألتْ اليهود النبي عن الرعد ما هو ؟ قال : هو ملك من الملائكة موكل بالسحاب ، بمخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله . فقالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : « زجره بالسحاب إذا زجره حيث ينتهي إلى حيث أمر الله » قالوا : صدقت . واتفق أكثر العلماء على هذا التفسير واختلفوا في البرق إذ رُوي عن علي وابن مسعود وابن عباس أن البرق مخراق حديد بيد الملك يسوق به السحاب !

كل هذا التعليل جاء في كتاب السلف في تفسيره للآية : ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين﴾ ١٩ البقرة . هذا ما قاله القرطبي . فهل تكفر اليوم بدينك ونبيك إذا غلب عليك الضحك وسخرت من هذا التفسير ؟ لا تنسَ أن القرطبي كان من أبرز علماء عصره . هل أدركت أبعاد المصيبة التي نعاني منها اليوم بسبب إصرار « العلماء » على التحدث بعقلية القرون السالفة ؟

ـــ هذا يعني أن نرفض الأخذ بما يسمونه الحديث .

ـــ كلا . فالنبي الكريم كان مُشبعاً بالتعاليم التي توحى إليه فينقلها إلى عامة الناس . وإنسان على هذا المستوى لا يمكن أن يقول أشياء تخالف روح ما أوحي إليه . ولكن إذا كانت آيات القرآن قد عالجت حينذاك أموراً باتت اليوم واضحة بعد أن كانت غامضة فإن الرسول كان يتكلم بلغة عصره في الأمور التي لا ترتبط بجوهر الدين أو التي كانت تُفسر بمفهوم ذلك العصر . إن الأحاديث المنقولة تعطينا صورة عن مفهوم ذلك الزمن الغابر وعن العقلية التي كان المجتمع يعمل بها . لكننا نجد فيها ما يصح أن يتخذ مثالاً يحتذى إذا وجدناه معقولاً بعقلية اليوم ولم نكن متمردين على مفاهيم جوهر الدين .

إن مشكلتنا تكمن في إغراق المتحدثين السلف في تكريس نبينا الكريم بحيث كادوا أن يجاروا المسيحيين في إجلالهم للمسيح بحيث بات ابن الله . إن الأحاديث المرويّة في المراجع التي تقول على سبيل المثال : إن الله أخذ قبضة من نور محمد فقال لها كوني السماوات والأرض ! وقول آخر : إن الله أخذ قبضة من نوره وقال لها كوني محمداً ! وإن النبي عندما

ولد جاءت الملائكة تجري له عملية جراحية استبدلت بها قلبه وأحشاءه بقلب إلهي وهكذا ...
إن حب الإنسان لشيء ما يدفعه غالباً إلى المغالاة في تصوير ذلك الشيء أو وصفه وهذه هي المشكلة التي حرفت الأديات وشوهت بعض معالمها . لقد حدد ربنا العظيم شخصية نبينا في أكثر من مكان في كتابنا الذي هو الدستور الذي لا يجوز لنا أن نخرج عن نصوصه إذا كنا مؤمنين .
ــ وهل يمكنني سماع هذه الآيات لأكتبها وأحفظها ؟
ــ ولِمَ لا . إنها حق لا يماري فيه .

والتفتّ إلى الزميل خريج الشريعة وطلبت منه أن يقوم بتلك المهمة بينما أخرج الشاب من جيبه ورقة وقلماً واستعد للكتابة .

قال الزميل :
ــ سأقدم أولاً آية يحدد الله فيها دور النبيين ومكانتهم في المجتمع . إنها الآية التاسعة والسبعون من سورة آل عمران : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ وأتبعها بقوله سبحانه : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ **٨٠ آل عمران** .
ومن هاتين الآيتين ندرك أن احترامنا للأنبياء والملائكة لا يجوز له أن يجعلنا نرفعهم إلى أعلى من المرتبة التي هم فيها .

ولما كتب الشاب الآيتين استرسل الزميل :
ــ ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ **١١٠ الكهف** ، لاحظ المقطع الأخير من هذه الآية الكريمة : ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . وهذا يعني أن الإنسان مهما سمت مرتبته فإنه يظل عبداً للخالق . وقال جل شأنه لنبينا : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون ﴾ **٣٤ الأنبياء** ، وقوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ **٦ فصلت** ، وهذه الآيات تحدد مستوى النبي الكريم باصطفائه من بين البشر ، واحترامُنا له يرجع إلى هذه الميزة السامية التي حباه الله بها لكننا لا نعبده بل نشهد أنه عبد الله ورسوله .

ـــ لكنه يمتاز عن بقية البشر بأنه معصوم من الخطأ كما يؤكد كثير من الذين يتحدثون عنه في المحافل الدينية .

ـــ هذا افتراء لأن العصمة لله وحده وهو وحده الذي لا يخطىء، أما الإنسان فإنه عرضة للخطأ أياً كان مستواه مع الفارق الواضح في أخطاء الإنسان المؤمن وأخطاء السفيه الفاسق .

والتفت إلي الزميل وأضاف :

ـــ أرجو أن توضح للأخ ما سبق أن أثير في جلسات من قبل .

قلت للشاب :

ـــ إنهم يتذرعون بالآية الكريمة : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ **٣ النجم**، ويقفون عندها ولا يتممون المقصود من هذا التأكيد بالآية التي تليها وهي ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ **٤ النجم**، ومنهم من يعتبر أن الوحي يشمل كل تصرفات النبي الكريم فيجعله معصوماً مع أن هذا تجاوز مرفوض تنقضه آيات جلية وصريحة في دستورنا .

فقال أحد الزملاء الحاضرين ضاحكاً :

ـــ إنها أشبه بمن يتلو الآية الكريمة ﴿فويل للمصلين﴾ **٤ الماعون**، دون أن يعقبها بالإيضاح الذي يأتي في الآية المتممة للمعنى التي تقول : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ **٥ الماعون** .

وضحك الحاضرون لهذه الملاحظة . قال الشاب :

ـــ هل يمكنني كتابة الآيات التي تحدثت عن أخطاء النبي .

ـــ إنها ليست آيات وحسب بل وقائع وردت في بعض المراجع ومنها على سبيل المثال ما روي عن عمر بن الخطاب عندما جاء إلى مجلس النبي فلقي المؤذن بلالاً خارجاً فسأله عن الوجهة التي يمضي إليها فقال بلال : أمرني النبي الكريم أن أعلن بين الناس أن من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال له عمر : عد إلى الداخل . وكان ابن الخطاب ذا هيبة وشخصية طاغية كما تروي المراجع عنه، فاستكان بلال وعاد مع عمر فلما رآه النبي عائداً سأله عن السبب فقال عمر ما معناه : لو قال بلال ما أمرته به لبات الدين عديم الأثر والقيمة، يفعل المسيء ما يشاء ثم يتلو الشهادتين فيصبح بريئاً من السيئات التي ارتكبها . وهنا فكر النبي قليلاً وقال : اجلس يا بلال فوالله صدق عمر وأخطأ محمد .

— قصة رائعة تبين كذلك نفسية النبي النبيلة واحترامه للرأي الصائب .
— لكنني ألفت نظرك إلى أن أخطاء النبي مهما كانت فإنها تظل أدنى من أي خطأ يرتكبه أي إنسان منا لأنه كما سبق لي القول مفعم بجوهر الدعوة التي تفضل الله باختياره رسولاً له ينشرها على الملأ .

هذا بإيجاز أهم ما دار في ذاك اللقاء المفتوح . وفي الجلسة التي تقرر أن يتلو المستشرق فيها على الحاضرين الآيات التي تثبت أن إلهنا ظالم . كان المكان يغص بالحاضرين من مؤيدين ومعارضين . وبعد أن تبادلنا التحية وأخذنا أمكنتنا بدأ الرجل الحديث وأمامه رزمة من الأوراق إضافة إلى قرآننا الكريم .

بدأ الكلام بلهجة معتدة ووجه شديد الاطمئنان والتحدي قائلاً بصوت الواثق من النتيجة :
— اتفقنا آخر مرة على أن أقدم لك الآيات التي تؤكد ديكتاتورية الإله الذي مثله نبيكم وظلمه المطلق ، وأن نأخذ بعد ذلك أصوات السامعين على نتيجة ما سنصل إليه . أليس كذلك ؟

قلت مجيباً بصوت هادئ :
— نعم . لكننا اتفقنا كذلك على أن تعترف بنبوة نبينا ودينه وأن تكف عن مهاجمته إذا تأكد الحاضرون من خطأ ما تقول .
— صحيح ولن أتراجع عما وعدت به .

صمت قليلاً وتنحنح يجلي صوته ثم أخذ رزمة الأوراق التي كانت أمامه واسترسل قائلاً :
— إن كل ما ورد في قرآنكم يؤكد أن كل ما تفعلونه ينجم عن إرادة ربكم ومشيئته والآيات التي تؤكد أنكم ما تشاءون إلا أن يشاء ربكم أكثر من أن تحصى . أليس صحيحاً ما أقول ؟
— تمام الصحة . ولكن ...
— دعنا من ولكن الآن . سنتناقش عندما أنتهي من قراءة الآيات التي تدل على ظلم ربكم وتعسفه المطلق . وهذه أهم ما جمعت من آيات وأكثرها وضوحاً ودلالة على صحة ما أقول :

صمت فترة فعمّ الترقب في القاعة . ولما بات الجو على ما كان يشتهي قال بعد أن استقر بحثه بين أوراقه على ورقة معينة :

ـــ اسمعوا هذه الآية : ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ ٦ ، ٧ البقرة ، لاحظوا أنه هو الذي يجعلهم لا يؤمنون ثم يتوعدهم بالعذاب العظيم . فكيف يجوز لإله عادل أن يعاقب الناس على ما جعلهم يفعلون .

والتفت إلي وقال :

ـــ هل تلاعبت في النص أم هو طبق الأصل عما جاء في قرآنك .

ـــ بل صحيح تماماً . هاتان الآيتان هما السادسة والسابعة من سورة البقرة ولقد أعددناهما بدورنا ولن أبدأ بالرد إلا بعد أن تفرغ جعبتك مما جمعت .

وازداد الترقب على وجوه الحاضرين وهم في دهشة من هدوئي مع زملائي رغم المعنى الواضح الذي أثاره المستشرق . تابع القراءة .

ـــ ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ٧ ، ١٠ يس .

ونظر إلي متسائلاً متلهفاً وقال :

ـــ هو الذي قرر أن لا يؤمنوا فحق عليهم القول . ولولا الأغلال والسدود التي أحاطهم بها بحيث باتوا لا يبصرون لآمنوا كما آمن الذين لم يقيدهم ولم يعمهم .

ضحكت من حماسه وقلت :

ـــ صحيح دون أي شبهة . إن ربنا هو الذي فعل ذلك .

ازداد تطلع الحاضرين واستغرابهم وهم يرونني أضحك أمام هذه البيانات التي تثبت ظلم إلهنا وتجبره . وعلا صوت يقول :

ـــ إن حجة الدكتور لا تنقض وسكوتك خير دليل .

فالتفت إلى المتكلم وقلت :

ـــ تمهل قليلاً حتى يُفرغ ما في أوراقه من الآيات التي جمعها وبعدها ستسمع ردي وستدلي بصوتك إلى جانب من تراه محقاً .

فحدجني المستشرق بعينيه متفحصاً وقال :

ـــ تعني أنك ستكذب هذه الآيات ؟ يبدو أن لك قرآناً خاصاً بك لم نطلع عليه .

قلت بحزم وجدية :

ـــ رويدك . أنا أتيح لك الفرصة لتشبع رغبتك من الزهو والازدهاء بمعلوماتك العظيمة ثم أحاول أن أبرر أخطاء ربي شأن المحامي الذي يدافع عن متهم أمام القضاء ، وللمحلفين بعد ذلك أن يقرروا براءته أو جرمه .

هز برأسه بغلظة وقال :

ـــ طيب يا سيدي .

والتفت إلى الحاضرين وأضاف :

ـــ استمعوا إلى ثالثة الأثافي كما يقول العرب . ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ ١٦ الإسراء . تصوروا يا سادة ، هو الذي يريد أن يهلك تلك القرية فيأمر المترفين أن يفسقوا فيها وعندما يمتثلون لأمره يتخذ امتثالهم ذريعة ليدمر القرية المسكينة . الحكاية إذن أنه تاق إلى تدمير تلك القرية فأمر سكانها أن يفعلوا ما لم يكونوا ليفعلوه لولا طاعة أمره . أترون ظلماً وتجبراً أكثر من هذا ؟

قلت ضاحكاً مما زاد في دهشة الحاضرين :

ـــ وهذه كانت أولى الحجج التي أردت أن تتمسك بها في أول لقاء لنا . مساكين ـــ صدّقْني ـــ أهلُ تلك القرية الذين امتثلوا لأوامر ذلك الإله الظالم ليقضي عليهم بسبب طاعتهم . استمر يا سيدي استمر . غريب أمر إلهنا هذا . كيف لم ننتبه إلى هذه الحقائق ونحن ندافع بغباء عن هذا الدين ؟ استمر يا سيدي وثق أننا لن ننسى لك هذا الفضل العميم . كنا في غاية البله ولولاك لبقينا آية في الغباء !

ضحك بعض الحاضرين وتبادلوا النظر وهم في حيرة من أمري لا يصدقون أنني مستسلم لما يقوله اللاهوتي ولا يجدون مخرجاً من موقفي الصعب . ولم ينج اللاهوتي من الدهشة والاستغراب لكنه استمر قائلاً .

ـــ وهذه الآية : ﴿ سبحانك مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذلّ من تشاء ﴾ تصوروا أنه يتصرف على كيفه كما يقولون . يعزّ هذا ويذل هذا ويمنح هذا ويحرم ذاك وفق مزاجه . والأغرب في هذه الآية هو ختامها الذي يقول : ﴿ بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ﴾ .

ـــ أوردتَ الآية بشكل خاطئ والصحيح هو : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾ إلى آخرها وهي السادسة والعشرون من آل عمران . ها هي في أوراقنا استخرجناها لنقدمها لك مع كثير غيرها إذا غفلت عن كتابتها في أوراقك .

دهش الرجل وهو يراني ألوح له بيدي بالأوراق التي أعددنا هذه الآيات فيها لأننا كنا نتوقع أن يستشهد بها . قال مستغرباً :

ـــ أنت تعرف إذن أن كتابك حافل بهذه المتناقضات الغريبة ؟

ـــ طبعاً . لقد قرأته سطحياً وللأسف دون أن أتوقف أمام هذه المتناقضات . هل أضيف ما عندي إلى ما عندك أم تكتفي بهذا القدر ؟

كان الرجل في حيرة بالغة وكذلك معظم الحاضرين قال :

ـــ سأقرأ هذه الآيات التي جمعتها ثم سأترك لك الرد . اسمع هذه الآية : ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ **١٧٨ الأعراف** ، وهذه : ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين﴾ **١٣ السجدة** ، وهذه أيضاً : ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين﴾ **١١٨ ، ١١٩ هود** . لا شك أنك ترى بوضوح أن ما يفعله هو محض اختيار من هذا الرب الذي قرر أن يملأ جهنم من الإنس والجن لذلك فقد دفع من يشاء ليجعلهم وقود تلك النار . فهل هذا إنصاف وعدل ؟ إنه يعترف بأنه لو شاء لجعل الناس كلهم من أهل الهدى والاستقامة لكنه كان يريد تنفيذ خطة وضعها من قبل ليتلذذ بإحراق أولئك المساكين الذين لا يَدَ لهم فيما فعلوا ، وتعذيبهم . فهل هذا إله عادل ؟

قلت بصوت مرتفع يسمعه الجميع :

ـــ هل لديك آيات أخرى تود أن يسمعها إخواننا الحاضرون ؟

ـــ الآيات كثيرة لكنها كلها بهذا المدلول وهذا المعنى . هو الذي يدفع هذا ليفعل ما يعاقبه عليه وذاك لما يحظى به الرضا والقبول[١] .

التفت إلى الحاضرين وقلت :

ـــ يا إخواني ، سمعتم ما قاله الدكتور من آيات وما فسرها به والآن جاء دوري لأرد . أرجوكم أن تصغوا بانتباه إلى ما سأقول ، والحكم لكم .

ثم وجهت الحديث إلى المستشرق وقلت :

ـــ أرجو يا سيدي الفاضل أن تتقبل أقوالي برحابة صدر فأنت عالم جليل وأنا لا أصل إلى مستواك من المعرفة . لديَّ سؤال أوجهه لك أرجو أن ترد عليه دون غضب . من أنت ؟

---

(١) أرقام الآيات وأسماء السور لم يحددها المستشرق بل أضفتها لتسهيل الأمر على القارئ . **المؤلف**

هتف الرجل ساخراً :

ــ الله الله ! من أنا ؟ ألم يتم التعارف بيننا في اليوم الأول من لقائنا ؟ أتريدني أن أقدم لك جواز سفري لتتأكد من صحة من أكون ؟

ــ كلا . أرجو أن تفهمني . أنا أسألك من أنت مع أنني أراك تتكلم وتتحرك . فلو لم تكن في حنجرتك حبال صوتية أكنت تستطيع الكلام ؟

ــ سؤال غريب . طبعاً لولا الحبال الصوتية لما تكلمت .

ــ عظيم . وهل كان باستطاعتك إيجاد هذه الحبال الصوتية لتركبها في حنجرتك لو لم تكن موجودة ؟

ضحك الرجل وقال :

ــ لا أظن ذلك ، مع هذا لست أرى العلاقة بين سؤالك وما نحن فيه .

ــ تحمل جهلي ــ أرجوك ــ وامنحني فرصة إثارة جهلي . أنت تتحرك . ها أنت تحرك يدك . هلا قلت لي كيف تحركها ؟

عاد الرجل إلى الضحك وقال :

ــ بفضل أعصاب مرتبطة بساعدي أحركها عندما أريد .

ــ عظيم . أي أنك مجرد إنسان يجلس أمام جهاز مليء بالأزرار يضغط بإصبعه على هذا الزر فيتحرك هذا الجزء من الآلة التي أمامه ثم يضغط على زر آخر فيتحرك جزء آخر من الآلة التي لم يصنعها .

هتف بعض الحاضرين بحماس .

ــ الله ! عظيم !

ونظر الرجل إليّ مستغرباً وقال :

ــ وأنت مثلي وكلنا على هذا الشكل نحرك آلتنا كما نريد .

ــ عظيم . لكننا لم نصنع تلك الآلة . كل ما نملكه هو قدرتنا على الضغط على الأزرار التي نختارها لتتحرك وفق ما نريد .

ــ آه ..! فهمت ما تريد !

ــ لا تستبق الأمور أرجوك . أنت توافقني على أن الإنسان يملك إرادة تخوله حق الضغط على الأزرار التي أمامه ليحرك الآلة كما يختار . لكنه لم يصنعها بل تآلف معها .

ــ هذا صحيح . وأنا أتعجل الوصول إلى الهدف الذي تنشده .

ــ حسناً . والمهندس الذي صنع الآلة ، ألا يعرف أن الضغط على هذا الزر يحرك هذا الجزء من الآلة وأن الضغط على ذاك يحرك الجزء الآخر وهكذا ؟...

ــ آه ! فهمت ما تريد أن تصل إليه .

ــ لا تقاطعني أرجوك ودعني أكمل كلامي . الواضح الذي لا شك فيه ولا شبهة أن المهندس الذي صمم الآلة وجمع أجزاءها يعرف كل صغيرة وكبيرة فيها ويعرف أن الجالس أمام الأزرار يستطيع أن يجعلها تتحرك بشكل مخالف للغاية الأساسية التي صنعها لتؤدي دورها المطلوب . ولكي لا يقع مالك الآلة في خطأ أعطاه بياناً شاملاً للطريقة المثلى التي يستطيع أن يستخدم بها تلك الآلة . أليس هذا منطقياً ومعقولاً ؟

ــ فهمت ما تعنيه . تريد أن تقول : إن محرك الآلة هو الذي يستطيع أن يحركها بشكل جيد أو سيء .

ــ عظيم جداً . ولكن ، ألا تصدق أن صانع هذه الآلة كان يعرف مسبقاً عند تصميمه لها ما يمكن أن تقوم به من حركات غير مناسبة إذا أساء الإنسان المالك لها الضغط على أزرارها وفقاً لإرشاداته المكتوبة ؟ إن الخطأ في حركة الآلة لا ينجم عن جهل المهندس الصانع الذي كان يعرف سلفاً إمكانية حدوث تلك الأخطاء من المالك إذا أراد تجاوز التعليمات الأساسية .

ــ فهمت فهمت . تريد أن تقول : إن مشيئة إلهكم نابعة عن علمه المسبق بخطأ الآلة المحتمل .

ــ لا تقل إلهكم بل قل إلهنا ، فالصانع واحد . أنت نفسك تخطىء في الضغط على أزرار آلتك وكل من على الأرض من دابة متحركة يمكنه أن يخطىء بصرف النظر عن المعتقدات التي يؤمن بها . إن الصانع واحد والمواد التي صنعت منها الآلة لا تختلف من حيث المبدأ . قد تتفاوت النسب بين آلة وأخرى وفقاً للبيئة والمناخ والمجتمعات . لكنها لا تختلف من حيث النوعية والمقومات .

ــ ما تقوله مقبول علمياً لكنني لا أجد فيه ما يبرر ظلم إلهكم في أقواله . ألا تراه يقول : إنه هو الذي وضع الأغلال في أعناق من حق عليهم قوله وحجب أسماعهم وأبصارهم وهو الذي أمرهم أن يفسدوا في الأرض ؟

ــ لم يفتني شيء من هذا . إذا كان الجالس أمام لوحة أزرار الآلة قد أساء التصرف فهل تكون حركة الآلة بمشيئته أم بمشيئة صانعها ؟ قد يقول بعضهم : ما دام الصانع هو الذي صمم الآلة فلماذا جعل في تصميمه ما يساعد على قيامها بحركات غير مقبولة ؟ والجواب الوحيد هو أننا في مرحلة اختبار . لو كنا كلنا على مستوى واحد من الإرادة والفكر

والإدراك لظل عالمنا ثابت المستوى ولما كان فيه ابتكار وتطور . لاحظ — أرجوك — أن ما نسميه اليوم بالكتب المقدسة لم يكن موجوداً منذ بدء الخليقة . كان الإنسان البدائي وحشاً كسائر الوحوش يغطيه الشعر لا يتكلم ولا يدرك ثم تطور خلال ملايين السنين فبات ناطقاً ثم مدركاً ثم تكوّن عقله المركب الذي كان بسيطاً من قبل فتخلى عن تعداد الآلهة وعن الأشكال التي كان خياله يصوره عليها ، عندئذ جاءت القوانين الأولية المكتوبة ثم عدلت بما يتفق مع تطور الفكر البشري حتى بلغت مرحلة الكمال . وإذا كان الإنسان اليوم يُعرِض عن التقيد بها بحجة التطور والمدنية فإنه ينحدر إلى المراتب الدنيا بدلاً من أن يرتقي إلى قمة الفضيلة التي وجهته تعليمات الخالق إلى سبيل الوصول إليها .
إن ما تقوله أناجيلكم لم يدحضه كتابنا ، فنحن لم نتهم العذراء المقدسة بالزنى كما فعل اليهود ولم نبح الزنى الذي حرمه المسيح ولم نشجع على قتل غير المسلمين لأن مبدأنا يقول : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ وهذا جزء من الآية الرابعة والتسعين بعد المائة من سورة البقرة . أي أننا ملزمون بأن لا نبدأ بالعدوان على أحد . وكتابنا يلزمنا باحترام الأديان الأخرى ويؤكد أمن وسلامة متبعيها ما داموا متقيدين بالإيمان بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً .
اسمعوا هاتين الآيتين الصريحتين : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ **٦٢ البقرة** ، و : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ **٦٩ المائدة** ولاحظوا أن كتابنا جمع بين المؤمنين به وبين أصحاب الأديان الأخرى فلم يميز المؤمنين عن سواهم بل اشترط على الجميع ليكونوا آمنين أن يؤمنوا بالله وباليوم الآخر وأن يعملوا صالحاً . والسرقة والقتل والعدوان والطغيان هذه كلها لا يمكن أن تدرج في دائرة الأعمال الصالحة .

فما رأيك الآن ؟ أهو دين ابتكره محمد المصاب بالصرع التواق إلى الزعامة ؟ أهو إله مستبد ظالم ديكتاتور متجبر ؟ الحكم لكم .

علا الهتاف في القاعة بأصوات قوية تؤيد صحة تحليلي وكانت المفاجأة الكبرى أن وقف قسيس يسوعي كان يحضر الجلسات منذ لقائنا الأول وأشار بذراعيه أن يصمت الحاضرون . فلما سكن الهتاف قال ذلك القسيس :

— أيها الإخوان . أقسم بالرب ، لو كانت لي ابنة لزوجتها لهذا الأستاذ !

وضجت القاعة بالتصفيق والهتاف بينما كان المستشرق ينظر إليّ بإعجاب ويقول مطنباً :

ــ ليتك كنت « بابا » المسلمين . إذن لعاش المسلمون والمسيحيون في إخاء ومودة ولتعاونوا على خير البشرية . أنا أعتذر أمام الحاضرين عن الفكرة التي كنت أحملها عن دينكم . لكنني لست مسؤولاً عن تكوينها . لقد جمعت بعض الكتب التي قيل لي أنها تتهمنا بالكفر والزندقة فقرأتها . وكان مؤلفوها من فقهائكم يحرضون المسلمين على معاداتنا واحتقارنا فقررت أن أكيل لهم بصاعهم . ولو كانوا مثلك لما سلكت هذا السبيل . أنا أعترف بصحة دينكم ونبيكم إذا كان على الشكل الذي بينته في نقاشنا ، وأعدك بأن لا أقف مثل هذا الموقف بعد اليوم . لقد ناقشت عدداً كبيراً من الموالين لدينكم فكانوا يؤكدون كفرنا وينسحبون من المجلس غاضبين صاخبين يستنزلون اللعنات على كل من قال أنا غير مسلم .

وقفت في مكاني والتفت إلى القسيس اليسوعي وقلت :

ــ أنا أشكرك أعمق الشكر أيها الأب الكريم على ما تفضلت بقوله في إطرائك الذي لا أستحقه . وأشكر إخواني الحاضرين وأتمنى أن تكون هذه الجلسات قاعدة أساسية نقيم عليها علاقاتنا الوطنية والاجتماعية .

ثم وجهت الحديث إلى المستشرق :

ــ حكاية الفقهاء الذين تحدثت عنهم ليست قاصرة على المسلمين وحدهم وأنت أكثر دراية بما تعاني منه كل الأديان من نوازع واجتهادات ، والمكتبات الغربية مليئة بما نشره متعصبون متزمتون طاعنين فيما تراه فئات أخرى أرقى درجات الفكر الديني . والإنسان العاقل مدعو إلى استعمال عقله الذي وهبه إياه الخالق العظيم ليتأمل في قوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ ١١٨ هود إن اختلاف وجهات النظر في المجتمع الواحد ظاهرة ملموسة في العالم كله . لكن المؤسف هو أن يُغرق بعضهم في التمسك فيما يرونه الحق والصدق فيقتتلون مع الفئات المعارضة لرأيهم . هذا هو حال الإنسان . ولو عدنا إلى التاريخ نقلب صفحاته لوجدنا حلقات مفقودة تدل على أمم قد أهلكت فانقطعت أخبارها وأمم أخرى جاءت بعدها ، حذت حذوها وأبيدت . هذا هو العالم . وخير ما نفعله هو أن نُعمِل العقل في سلوكنا بعيداً عن الغايات والمآرب التي يتطلع بعضهم إلى تحقيقها إرضاءً لمطامع خاصة ، وأن نقابل هذه التيارات المهلكة بهدوء ورباطة جأش فلا نُخدع ولا نقاد إلى ما فيه دمار مجتمعنا .

قال المستشرق بهدوء وتعقل :

ــ هل أطمع في أن تفسر لي مفهوم بعض الآيات التي تتهمنا بالكفر . هناك آية تقول : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ٧٢، ٧٣ المائدة .

ــ لقد أثار هذا الموضوع في اللقاءات المفتوحة بعضُ الإخوان وقدمت التفسير الذي يتقبله العقل، ولي رأي في هذه الناحية قد لا يرضي الكثيرين. وأود مخلصاً أن لا يحمل ما سأقوله على محمل النقد . لقد قرأت الأناجيل الخمسة باللغة العربية ، وعدداً منها مترجماً إلى لغات أجنبية ، فلم أجد ذكراً في أي منها لألوهية السيد المسيح . وأكثر الأناجيل وضوحاً في رأيي هو إنجيل متّى وفيه يقول المسيح عندما يتكلم عن نفسه : « أبي الذي في السماوات » . وإذا وجه الحديث إلى الحاضرين قال : « أبوكم الذي في السماوات » . ومن هذه الأقوال فهمت أن السيد المسيح يجعل العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة راعي الأسرة ، الأب الذي يرعى أبناءه . أما ما يردده المصلون فهذا ما اتفق عليه المشرفون على شؤون الدين وليس من حق أي إنسان أن يأخذ على مؤمن إيمانه . ولو تعمقنا قليلاً في هذا الأمر لخلصنا إلى أن كل مخلوق على هذه الأرض فيه جزء من الخالق . وفي كتابنا يقول الخالق أنه أقرب إلينا من حبل الوريد ولو شئنا أن نأخذ الأمر بمفهوم لغاتنا لقلنا : إن كل واحد منا فيه شيء من الخالق . لكن الجزيء شيء والكل شيء آخر . لقد أغرق أحد المتصوفين المسلمين في هذا المفهوم فقال ما رُوي عنه : « رأيت ربي بعين ربي . قال : من أنت ؟ قلت : أنت » فأُخذ قوله على محمل الكفر ومنعت كتبه من التداول . لكنني لا أراه كافراً . ولكن لو قرأ عامة الناس عباراته تلك لاعتقدوا أنه يدعي الألوهية وهذا ما يدل عليه ظاهر الكلام إذا لم يكن القارىء على مستوى عميق من الإدراك لذا مُنعت كتبه لأنها قد تقع في أيدي السطحيين كما تقع في أيدي المتعمقين . وإذا كان المسيحيون يقولون : إن هناك ثلاثة آلهة يشتركون في مقدرات هذا الكون لكفروا لأن الفكر العام ينفي تعداد الآلهة . لكن هذا الكفر إن كان حقاً ، فإن العلاقة والمؤاخذة عليه ليست في نطاق اختصاصات الأطراف الأخرى، بل هي قاصرة على الخالق وحده وليس على الأرض من يحمل توكيلاً من الخالق العظيم ليتولى المسؤولية نيابة عنه . فإن كفر إنسان بمبدأ معين فإنه وحده المسؤول لذا ترى أنه ليس في كتابنا تحريض على قتل الذين لا يتبعون ديننا والقتال الذي سمح به كان ضد المشركين من عبدة الأوثان الذين كانوا يحاولون قمع الدعوة

الجديدة والقضاء عليها. أي أنه كان رداً للعدوان لا شروعاً فيه. وكل إنسان يملك أهلية التفكير من حقه أن يخرج بالنتيجة التي تقنعه شريطة أن لا يرغم غيره على تبنيها بالإكراه والقوة.

هنا قال القس للمرة الثانية منذ بدأ ذلك النقاش الطويل:

ــ أنا أراك متحفظاً رغم بلاغة ردك وأنا أشكرك على تحفظك فلكل دين جماعات من المجتهدين يؤولون ويفسرون الأمور الدينية وفق قناعاتهم.

وهكذا انتهت تلك المناقشات الطويلة التي استمرت شهوراً، أوجزت أبرز ما تم فيها بعيداً عن الإسهاب الممل والتطويل. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد إذ أنني فوجئت بمجموعة من الشباب الذين حضروا الجلسة الأخيرة يأتون إلى لقائنا المفتوح بجدية مستطلعين. قال الذي اضطلع بالتحدث نيابة عنهم بإصرار واضح:

ــ يا أستاذ لقد تحاشيت الرد بصراحتك التي ألفناك تستعملها في نقاشك مع المستشرق. لعلك خشيت أن تجرح شعور الحاضرين، لكننا نحن الذين جئناك عامدين يهمنا أن ندرك الحقيقة لذلك نرجوك أن تشرح لنا رأي الدين صراحة في الآيتين اللتين أوردهما المستشرق في نهاية اللقاء الأخير. إن زملائي الذين معي كلهم من رأيي. فهل تتفضل بإشباع رغبتنا؟

قلت مجاملاً ومرحّباً:

ــ سأفعل لأرضيكم ولن أتكلم بمفهوم الدين بل بمفهوم العقل، لكنني أود أن أستفسر عما تم بعد انصرافنا وماذا كان رد فعل ذلك اللاهوتي؟

ــ الحقيقة أن الرجل قال بعد انصرافك أنك تملك طريقة فريدة في النقاش تحقق بها أهدافك دون أن تتظاهر بأي تعصب ديني رغم أنك شديد التعصب.

ضحك الحاضرون لقوله وشاركهم القادمون واسترسل الشاب يقول:

ــ لقد رحل ولكن لا أعرف إلى أين توجه. أما الحاضرون فقد كانوا في غالبيتهم من رأيه لكنهم كانوا قانعين بأن آراءك صحيحة في مفاهيمها العقلية.

ــ أحمد الله على أننا استطعنا أن ننجح في ذلك الامتحان الصعب.

ــ لكننا ما زلنا نرجو أن تشرح لنا بمطلق الحرية آراءك حول مفهوم الآيتين.

ــ اسمعوا يا إخواني. أنتم على مستوى ثقافي جيد يضمن أن نتخاطب بلغة العقل. أقول أولاً: نحن المسلمين نؤكد أن الله الذي نؤمن به واحد لا شريك له ولا منافس، وأن أمره إذا أراد

شيئاً أن يقول له كن فيكون . والسؤال الأول الذي من حقنا أن نطرحه هو : إذا كان أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فلماذا انتظر كل هذه المليارات من السنين حسب ما يقول العلم لينزل هذه الأديان وليجعل المخلوقات على هذه الصورة ؟ لماذا لم يأمر أن يكون الإنسان على صورته اليوم ولم يجعله يتبع ديناً أو مذهباً واحداً ؟ ألا ينقض الواقع الذي نلمسه صحة هذه الآية ؟

لو أخذنا الأمر بهذا المنطق لاتهمنا الخالق العظيم بالضعف ولبحثنا عن إله آخر يمتاز بالحنكة والإدراك بحيث يفعل ما يقول . لكننا لو تعمقنا قليلاً وبحثنا الأمر بوعي وتعمق لوجدنا الرد الذي لا يمكن دحضه أو نقضه .

لقد سبق لأخ حاضر هنا أن طرح هذا السؤال وهو مسلم ومن أسرة مسلمة ، فتلقى الجواب المقنع وازداد إيضاحاً وتعمقاً بمتابعة الحضور للمشاركة في لقاءاتنا المفتوحة .

نحن اليوم في مطلع الشتاء . ونحن نقول ذلك دون أن نتساءل : لماذا يطرأ هذا التغيير وجوباً على هذه الأرض ؟ إن الربيع هو ألطف فصول السنة ، فلماذا هذا التحول ؟ لماذا لم يكن الربيع سمة كل أيام السنة ؟

لقد بحث الإنسان المتطور هذه الواقعة فوجدها ترتبط بحركة الشمس والأرض فانسجم معها . ولم يكن الإنسان وحده خاضعاً لهذا التغيّر ، فالحيوان والنبات وكل ما يدب على هذه الأرض يخضع لهذا النظام .

والشمس والأرض والكواكب والنجوم كلها أجزاء من تلك الكتلة الهائلة التي انفجرت وتبعثرت في الفضاء اللامتناهي واتخذت فيه مستقراً ونسقاً منظماً ترتبط به .

لم يستطع « العلماء » أن يحددوا مصدر تلك الكتلة لكنهم اتفقوا على وجودها . انقسموا فيما بينهم بحيث استقر رأي بعضهم على أن المادة كانت هي الأخرى أزلية الوجود مع الخالق ، لكنهم وضعوها في المرتبة التالية على مرتبته ، لكن هذا الخلاف لا يمنع من التساؤل : هل كان ذلك الانفجار والتشتت والاستقرار عشوائياً وقع دون نظام مسبق ، أم أنه كان نتيجة تصميم مدروس نفّذ وفق خطة مسبقة لها ما بعدياتها ؟

إن الأرض التي نعيش عليها مكوّنة من مواد عديدة قسمناها إلى فئات وعرفناها بأسماء وحددنا أثر كل فئة من مكوناتها في الفئات الأخرى ، والإنسان والحيوان والنبات مركّب من تلك المواد مع اختلاف في الكم لا في النوع .

والإنسان جزء من نتاج هذه المقوّمات ، حدد الخالق دوره في حركة هذه الآلة الهائلة التي أمر الخالق العظيم أن تكون وفقاً لنظام سبق أن قرره لتحقيق أهداف ما زلنا نعجز عن معرفتها فكانت . أي إن البداية والتطور والهدف النهائي أمور سبق تحديدها للوصول إلى

النتائج المقررة فلا بد والحالة هذه من أن يتفاعل الإنسان ويتجانس مع المقومات التي يعيش فيها وإلا استحال عليه الوجود في بيئة لا ينسجم معها .
هذا هو النظام الأساسي الذي أودعه الخالق فيما خلق وهو العلة والسبب في بداية الخلق وفي تطوره وفيما سينتهي إليه . ولقد بيّن العليّ القدير المراحل الأولى التي مرت بها هذه الأرض في آيتين ، قال في واحدة منهما أن عرشه كان على الماء وفي الثانية قال أنه ارتقى إلى السماء وكانت دخاناً .

كان الإصغاء عميقاً ودلائل الاهتمام تنطق على الوجوه . قال أحد الشبان الحاضرين :
ــ هل يمكنني أن أكتب الآيتين اللتين أشرت إليهما ؟
ــ بكل طيبة خاطر .

والتفتُّ إلى الزميل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب ليتلو الآيتين كيلا أخطىء في كلمة فيهما . قال :

ــ الآية التي ورد فيها ذكر الماء هي السابعة من سورة « هود » وهي الثانية والخمسون حسب ترتيب النزول ونصها : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ والآية التي جاء فيها ذكر الدخان هي الحادية عشرة من سورة « فصلت » وهي الحادية والستون حسب تسلسل النزول ونصها : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

ولما فرغ الشاب من الكتابة استأنفت قائلاً :

ــ ولو توقفنا عند مدلول سطحية كلمتي ماء ودخان لوقعنا في حيرة من أمرنا فكيف يستقر عرشه على الماء في السورة الأولى ثم يفضل أن يستوي إلى السماء وهي دخان ؟ لكن المفهوم العلمي يعطينا تفسيراً مقبولاً ينطبق على واقع لا مراء فيه . فالأرض كما نعلم كتلة انشقت عن الشمس فسبحت في الفضاء مبتعدة عنها تدور حول نفسها حتى استقرت حيث هي . وإذا كانت الشمس تتقد بمكوناتها كما يقول العلم فتستهلك كل يوم من أيامنا كمية هائلة ، فإن تلك الكتلة التي انفصلت عنها كانت ولا ريب ملتهبة هي الأخرى فكان لزاماً عليها أن تستهلك الطاقة المشتعلة فيها قبل أن تصبح على ما هي عليه . ولو كانت متساوية في حجمها مع حجم الشمس لظلت ملتهبة حتى يومنا ولاستحال الوجود عليها .

إذن ، لقد نفدت مقومات الأرض الملتهبة فخمدت . ونحن نعرف اليوم ما يحدث عندما يقع حريق في مكان ما وبعد أن نخمده . فالدخان يعلو ويستقر في الجو على ارتفاعات تتفق ووزن الغاز المتصاعد الذي هو أخف من الهواء ثم يتكاثف فإذا لامسته طبقة باردة تحول إلى ماء وهذا ما نعرف أنه مصدر الأمطار على الأرض . لكن تلك الكمية الهائلة من الدخان المنبعث عن التهاب مقومات الأرض لا يمكن أن تتحول كلها إلى ماء دفعة واحدة ولابد أن تبقى كميات منه تتكاثف بانتظار التحول . بذلك برّر وعرّف خالقنا العظيم السبب الذي جعل الماء على سطح هذه الأرض يشكل سبعين بالمائة من حجمها كما أعطانا لمحة عن مبعث الأمطار .

هتف الشاب وعدد من رفاقه :

ـ هائل ! صحيح والله !

ـ هذا ما عناه ربنا الكريم ومنه نستنتج المرحلة الأولى لتكوين الأرض .

قال الشاب :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ يقول العلم : إن الفقاريات ظهرت على الأرض بعد ستة مليارات من سنين الأرض على خمود نارها واستقرار الجو عليها .

ـ لكن الآية تقول : إن ذلك قد تم في ستة أيام .

ـ صحيح . ولكن عليك أن تتصور يوم تلك الحقبة من الزمن . نحن نحدد يومنا الآن وفقاً لدورة أرضنا بالنسبة لشمسنا التي نرتبط بها في وجودنا . فهل استقرت تلك العلاقة حينذاك على ما أضحت عليه اليوم ؟ لم يقل الله أنه أنجز الخلق في ستة أيام بتوقيت اليوم . ثم إنه يقول خلقها ، ولا يقول جعل الحياة صالحة عليها في ستة أيام .

ـ رأي مقبول ... نحن نعرف اختلاف طول الأيام على كواكب مجموعتنا الشمسية ... ولو كانت عليها مخلوقات مثلنا لما استطعنا التوفيق في التوقيت بيننا دون أن نأخذ بعين الاعتبار الفارق في دورة كل منها .

ـ وهذا يعني أن ما نسميه اليوم بالطقس والجو لم يكن من قبل على ما هو عليه اليوم وإلا لما تأخر وجود الحياة كل هذه المدة الطويلة . فالوجود إذن نظام مقدّر وفقاً لقوانين دقيقة لا يمكن الخروج عليها . ولو كانت تلك القوانين تسمح أن تتطور مكونات الإنسان خلال عشرات السنين لما انتظر الخالق ملايين السنين على وجود الجنس البشري كما يقول العلماء ، ليرسل موسى النبي الأول الذي يبشر بنظام مكتوب . ومشيئة الخالق كما سبق لي

القول كامنة في الآلة التي صممها وصنعها . والجالس أمام لوحة الأزرار لا يستطيع أن يجعلها تفعل ما لم يودعه المهندس المبتكر فيها من مؤهلات سواء اتّبع التعليمات المقررة حول طريقة تشغيلها أو خالفها . كل ما ينجم عن حركة تلك الآلة مقرر وفقاً لما أودعه الصانع فيها .

قال أحد الضيوف الزائرين :

ـــ لكن اختلاف القوانين التي أنزلها الخالق على مخلوقاته لا تستدعي أن يتحول المؤمن بواحد منها إلى كافر في قانون آخر هو منزله .

ـــ هذا صحيح تماماً . خذ على سبيل المثال أداة النقل التي ابتكرها الإنسان وكيف تطورت منذ أن توصل إلى شكل الدائرة ثم إلى الربط بين الأجزاء المحركة . هناك سيارات مختلفة المصادر والأشكال والقدرات وكلها تجد من يستعملها وفقاً لرغباته وقدراته . صحيح أن بعضهم قد يتفاخر بسيارته ويختال باستعمالها وامتلاكها ، لكن هذا السلوك لا يعيب أداة النقل نفسها بل عقلية مالكها ما دامت الغاية من استعمالها الانتقال من مكان إلى آخر بأقل عناء .

ـــ لكن المسلمين يرون أننا كفرة بدلالة الآيات التي أوردها المستشرق والتي كنت متحفظاً في تفسيرها .

ـــ سأكون أكثر وضوحاً الآن وكل ما أطلبه في هذا المجال هو الابتعاد عن التزمت والتعصب . فالتزمت يعني إقفال باب العقل على مفهوم معين بحيث لا نسمح لأي حجة مغايرة أن تدخل إليه .

ـــ ثق أننا لسنا متزمتين . كل ما نريده هو التوصل إلى حقيقة مقنعة .

ـــ لنشرح أولاً معنى الكفر كما ورد في معجم اللغة . يقول المعجم : إن الكفر يعني الجحود والإنكار وعدم التصديق . فإذا قلنا : إن فلاناً كفر بالمبدأ الفلاني كان معناه أنه أنكره ولم يؤمن به . وقول الله : ﴿كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ **٧٣ المائدة** معناه أنهم أنكروا أن الله لا شريك له ولا مثيل . فإذا كنت تؤمن بأن هناك ثلاثة آلهة يتعاونون معاً في إدارة شؤون الكون ، اعتبرناك كافراً بمفهومنا أي منكراً أن الله واحد . فالمسألة إذن ترتبط بالمفهوم والقناعة .

ـــ لكننا نقول : إنه إله واحد ولا نقول : إنه الثالث بعد اثنين .

ـــ ألم أقل لك أن الأمر تابع للمفهوم الذي رُسّخ في الأذهان . لقد قرأت الأناجيل باللغة العربية وبلغة أجنبية أيضاً . لم أجد في أي منها قولاً للسيد المسيح يؤكد أنه ابن الله . كان إذا تحدث عن نفسه يقول : أبي الذي في السماوات . وإذا وجه الحديث إلى السامعين

قال : أبوكم الذي في السماوات ، أي أنه جعل العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة رب الأسرة بأبنائه وهذا القول ليس بعيداً عن الحقيقة . ولقد قام السيد المسيح بمعجزات خارقة كإحياء الموتى وشفاء المرضى . لكنه لم يكن وحده الذي حباه الخالق بمثل هذه المعجزات فموسى من قبل شق البحر بعصاه عندما كان فاراً مع قومه من فرعون وجنوده وألقى بعصاه على الأرض فتلقفت كل ما طرحه السحرة . وسليمان كان يسخر الجن لخدمته ، ويفقه لغة الطير . ويوسف بعث بقميصه إلى أبيه الأعمى فأعاد له البصر . ونوح نجا من الطوفان مع بعض المختارين ، بينما غرق الآخرون من بني قومه . لكن أياً من هؤلاء لم يزعم أنه الإله الخالق . هذا على الأقل ما عرفناه مما ورد في قرآننا .

ـــ لكنه ولد دون أب .

ـــ هذا صحيح يؤكده كتابنا أيضاً إذ يقول الله فيه أنه أرسل روحه للعذراء مريم بشراً سويا . أي على صورة إنسان . لكن أول إنسان على الأرض خلق دون أب وأم ولم يكن إلهاً . فالمعجزة هي في اللقاح وليست فيما بعده . فالعذراء حملته في رحمها تسعة أشهر كما هو الحال في النساء عامتهن ثم وضعته وأرضعته ثم فرَّتْ به مع زوجها يوسف إلى مصر كما تقول مراجع العهد القديم ولم يعد إلى موطنه إلا وهو في الثلاثين ليبشر بدين يصحح ما حرّفه الطامعون في النظام القديم ، الأمر الذي حدا بهؤلاء أن يعملوا على الخلاص منه وتم لهم ذلك بعد أن استمر الصراع بينهم ثلاث سنوات وثلث السنة . أليس هذا خلاصة ما نقل عن السيد المسيح ؟

ـــ ولكن ما تقوله يعني أن معتقداتنا تقوم على أسس واهية خاطئة .

ـــ هذا استنتاج تتوقف صحته على مفهوم الأسس . فالدين المسيحي لم يحلَّ ما حرمته الأديان في مجتمع الإنسان الفاضل . لم يحلَّ قتل النفس ولا السرقة ولا الزنى ولا احتقار الإنسان لأخيه الإنسان ولا تسخير الضعيف لخدمة القوي . المشكلة قائمة في مفاهيم الكلمات وحسب . فأنت تقول على سبيل المثال : إنني انطلقت كالبرق الخاطف أعمل كذا وكذا مع معرفتك الأكيدة بالفارق الهائل بين حركتك وسرعة الضوء ، وتقول لأمك التي تحبها أنت روحي وقلبي . ولو أخذنا أقوالك بمدلولها في مفاهيم لغتنا لاتهمناك بالكذب لأن حركتك لم تكن كالبرق ولأن أمك ليست روحك ولا قلبك . وإذا أخذنا كلمة ابن الله بمعناها السائد في لغتنا التي نستعملها ، وأعني كما أنت ابن لأبيك ، فإننا نخلق مشكلة يتعذر حلها لأننا سنعتبر مريم العذراء زوجة الله كما أن أمك زوجة أبيك ، وسيكون زواجها من يوسف جريمة يعاقب عليها القانون لأنها تزوجت إنساناً وأنجبت منه أربعة ذكور وهي لا تزال على عصمة الزوج الأول الذي هو الله الذي لم يطلقها وفق شرائع اليهود التي هي

منهم ، وهذا يخالف أبسط ما نقل عن ابنها الأول في الأناجيل المعترف بها . وابن الإنسان الصالح يخلف أباه في مركزه وعمله فهل يحتاج الخالق العظيم لمن يخلفه أو يساعده ؟
أما إذا كنا نؤمن أن كلمة الابن هذه لا تعني ما ألفنا التعبير عنه بلغتنا الشائعة ، فإننا جميعاً أبناء الله على شكل ما لأن أياً منا ما استطاع أن يصنع جزءاً من ذاته ، فالمشكلة إذن تتوقف على المعنى الذي نقصده .

ـــ نحن نقول باسم الآب والابن وروح القدس إله واحد ولا نقول إنه ثالث ثلاثة .

ـــ وهذا ما أردتك أن تعيه في دائرة الغاية من القول . وإذا كنت تؤمن جدلاً أن الله أنجب ابناً له على شاكلة الإنسان ليعيش على الأرض ثلث قرن من الزمن ثم ليصلب بعدها ويدفن ، فيقوم باستعادته بعد ذلك من قبره ليعيده إلى أحضانه ، وكنت تؤمن بحرفية هذه الكلمات ، فهل روى لك أحد آية من قرآننا تأمرنا بقتل المسيحيين لأنهم كفرة مشركون ؟ اسمع هذه الآية واحكم . يقول الخالق : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ ــ ٨٢ــ **المائدة** . أنتم أقرب إلينا مودة وليس على الأرض من يقدّر منزلة أحد عند خالقه . الخالق وحده هو الذي يقدر ويحكم .

ـــ لكن اختلاف الأديان أمر يدعو إلى التساؤل . فالله الواحد هو صاحب القرار لا شريك له ولا منافس فلماذا يعدد الأديان ؟

ـــ لقد بينت سبب هذا الاختلاف . إنه تطور الفكر البشري . لاحظ أن الأنبياء لم يظهروا إلا في الحقبة الأخيرة من حياة الأرض . لقد سبقهم الرسل الذين كانوا ينبهون الإنسان إلى وحدة الخالق لينبذ عبادة الأوثان التي جعل لكل منها سلطة وقدرة تتفق مع إحدى الظواهر الطبيعية التي عجز عن إدراك مبعثها . ولم يأتِ النبي الأول إلا بعد أن بلغ الإنسان مرحلة التعقل فجاء بقانون يتوجب على الإنسان المؤمن اتباعه ليقيم مجتمعاً فاضلاً . وكان ذلك القانون يتفق في تفاصيله ومستوى الإنسان الفكري . لكن التحرير والتحريف الذي تعرض له ذلك القانون لتسخيره في خدمة ذوي المطامع استدعى تعديله بقانون جديد يأتي به نبي جديد . ومعجزات السيد المسيح تدل على الانحراف الذي بات عليه الدين الأول وضرورة دعم الدين الجديد بما يؤكد صحة مراميه بالمعجزات التي سترغم المنحرفين والمستغلين على الاقتناع بصحة ما يبشر به ذلك النبي فيعودوا إلى الاستقامة . ولقد تحقق ذلك التحول بين عدد غير قليل من أتباع الدين الذي تلاعب المتسلطون ذوو المطامع في تحريفه لخدمة أغراضهم فبات يشكل خطراً حقيقياً يهدد وجودهم ، لذا تآمروا على قتل ذلك النبي ليستأصلوا ما جاء به من نفوس أتباعهم . لكنهم

أخفقوا في مسعاهم لأن الدعوة الجديدة انتشرت وقضت على جانب كبير من نفوذهم حتى بات أتباعهم قلة لا يعتد بها إذا قيست بأنصار الفكر الجديد . ولا أريد أن أبين الأثر الذي أحدثوه في الدين الجديد لأن قولي سيشكل لوناً من النقد سيُحمل على محمل التجريح مهما بلغ سامعوه من حيدة. لذا أترك الأمر لأهل الفكر ليبحثوا ويقارنوا وليخرجوا بالنتائج التي ستنجم عن دراستهم . لكنني أعود إلى التأكيد بأن المبادىء الأساسية واحدة والاختلاف في التفاصيل التي تضمن سلامة البنية الاجتماعية فقط .

انصرف الضيوف بعد مناقشات جانبية بينهم وبين جانب من الموجودين حتى أن بعض إخواننا توقع أن لا يعود أحد منهم بعد ذلك إلى مجالسنا لكن الواقع كذّب احتمالهم .

عدنا إلى بحث ما كنا نتبادل الرأي فيه مع ضيوفنا . قال أحد الإخوة الحاضرين :

ــ إن السؤال الذي طرحه الشاب حول اختلاف المفاهيم الدينية وجيه ولابد من التوصل إلى دلالة مقنعة تبرر ذلك الاختلاف أو تنفيه .

ــ هذا صحيح جداً . إن الإنسان هو العلة الأساسية . ولكي أكون أكثر دقة أقول : إن نفس الإنسان هي علة هذا الاختلاف . لم يغير الله شيئاً من قوانينه الأساسية . وربنا قال في كتابنا أنه كان يبعث الرسل والأنبياء إلى الناس ليخاطبوهم بلغتهم . وكتاب التوراة جاء باللغة العبرية القديمة . فهل أنزل مكتوباً في نسخة واحدة أم في ملايين النسخ؟ نسخة واحدة طبعاً . ومن الذي نشره؟ أظل النبي أو الرسول حياً حتى يومنا هذا أم أنه توفي فاضطلع المقربون إليه بمتابعة نشره؟ والعبرية لغة قوم انفرد بها ولا يمكن أن تفهمها الأقوام الأخرى إلا إذا ترجمت إلى لغاتها . والترجمة ليست أمراً سهلاً مهما أوتي المترجم من براعة وتعمق وإلمام في اللغة التي يترجم منها إلى اللغة الأخرى خصوصاً إذا كانت لغة الكتاب غنية بالمرادفات وبلاغة الاستعارات . لقد عُرض علي قبل سنوات أن أترجم قرآننا إلى الفرنسية لقاء مبلغ مثير عن كل صفحة لكنني رفضت العرض رغم إغرائه الشديد . قلت حينذاك : إنني مستعد للاضطلاع بهذه المهمة شريطة أن أجعل في ذيل كل صفحة كل ما أراه من احتمالات في مفاهيم كلماته ، لكن الجانب العارض رفض ذلك . ولو قرأت اليوم الترجمات التي صدرت في الهند باللغة الإنكليزية والتي يطوف اليوم موفدون لترويجها لأذهلك ما تقرأ رغم قول المروجين أنها تنقل معاني الكلمات .

قاطعني شاب من الإخوة الحاضرين قائلاً :

ــ وكيف سمحوا بذلك؟ أليس هناك ما يوجب منع مثل هذا الإجراء الذي يضعف قيمة ديننا؟

قلت بصراحة جارحة :

ــ من نحن لنمنع ذلك؟ ألا ترى ما نحن المسلمين فيه؟ هل نحن مسلمون حقاً؟ لو كنا مسلمين حقاً أما كان يجب أن تتوحد كلمتنا؟ دعنا أرجوك من هذا التساؤل . إنْ إيماننا بات أن نقتتل فيما بيننا وأن تزعم كل فئة منا أنها هي المؤمنة التي تعمل على تطبيق قواعد الدين ، وهذا ليس ظاهرة جديدة في المجتمع الإسلامي . اقرأ التاريخ منذ وفاة النبي وحتى نهاية الإمبراطورية العثمانية . اقرأه وستجد الرد الذي تنشده . إذا كان أبو ذر الغفاري صديق رسول الله قد مات منفياً في الصحراء أيام عثمان فلم تجد زوجته كفناً تلف جثته فيه لتدفنه ... وإذا كان الأئمة قد امتهنوا وعذبوا وكُفّر بعضهم ، فكيف نتصدى لمن يشجعون على الاقتتال لنظل في الحضيض؟

سرت غمغمة استنكار بين إخواننا فاستأنفت قائلاً :

ــ لنعد إلى موضوعنا . قلت إن كتاب التوراة تُرجم والذين تولوا تلك الترجمة أضافوا أو حذفوا سواء بدافع تعمد التحريف لتحقيق غاياتهم أو القصور . والإنجيل لم يكتبه المسيح . إنه يورد تعاليمه على لسان الحواريين . والمراجع الأجنبية تؤكد أن أكثر من مائة إنجيل صدر سواء باللغة العبرية أو مترجماً إلى اليونانية والرومانية واللاتينية وغيرها من اللغات حتى أن بعض مؤلفيها عزوها إلى أسماء كان أصحابها أحياء قبل مائتي عام . ونشبت خلافات حادة بين رجال الدين الذين اضطلعوا بحماية الدين الجديد لإبقائه على حقيقته الجوهرية أو لتسخيره في خدمة ما ارتأوا وجوبه حتى استقر الأمر على أربعة أناجيل فحسب رغم ما فيها من أقوال مختلفة عن السيد المسيح . وهناك إنجيل خامس ترفض السلطة الدينية العليا الاعتراف به وبمؤيديه وتحرمهم من الكنيسة ، الأمر الذي جعل المؤمنين به يقيمون لأنفسهم معابد خاصةً بهم لأنهم لا يؤمنون بحرفية ألوهية المسيح وهم يبدأون صلاتهم قائلين : بسم الله وعيسى المسيح . والذنب ليس ذنب الأجيال بل ذنب السلف الذي روّج لمفاهيم آمن بها . ولو نشأت منذ ولادتك في أسرة تقول لك : إن لكل ظاهرة إلهاً وقوبلت بمثل ذلك في مدرستك ومجتمعك أكنت تؤمن بإله واحد؟

إن الفضل في قرآننا يرجع إلى أنه حُفظ وكُتب خلال وجود نبينا على رأس الدعوة . مع ذلك يقول بعضهم مؤكدين : إن سورة بني أمية قد حذفت منه عند جمعه وآية الرجم ، إضافة إلى أنه جُمع خلافاً لترتيب نزوله . وهذا القول لا يترك آثاراً تضعف قيمة كتابنا خلافاً لحكاية الأحاديث التي لم تكن مكتوبة بل نقلت عن أقوال صحاب النبي ومن كان حوله لذا تراها منقسمة إلى أحاديث صحيحة وضعيفة وما بين ذلك من درجات . بل إن بعض مراجعنا تؤكد أن بعضهم روّج عدداً كبيراً من الأحاديث من ابتكاره ظناً منه أنه

يخدم بذلك المجتمع الإسلامي. ولذا تراني أولي القرآن عنايتي الرئيسية ولا أعتمد على الأحاديث المروية إلا إذا كانت تتفق وواقعنا الحياتي لأن ما كان يقوله الرسول المصطفى كان يتفق ومستوى فكر المؤمنين في ذلك العهد. ولو تكلم بأسلوب آخر لما اقتنع أحد بما يقول. خذ على سبيل المثال أولئك الذين يزعمون أن سنة النبي تقضي بأن يطيل المسلم لحيته وهو أمر مضحك لا يقبله المنطق. كان أتباع الدينين السابقين يطيلون ما ينبت من شعر في وجوههم لأن الوسائل المتبعة اليوم في التخلص من فائض الشعر لم تكن معروفة، فأراد نبينا الكريم أن يتميز المسلم عن سواه ليعرفه إخوانه فأوعز بتخفيف شعر الشاربين وكان هذا ممكناً رغم صعوبته بواسطة الأدوات المتاحة. لكن التزمت يجعل هؤلاء يعتمدون على منطوق الآية الكريمة التي تأمر بإطاعة الله والرسول.

من هنا ترى أن الأديان كلها لم تنج من التأويل والاجتهاد. ألا ترانا نُحارَب اليوم من قبل مسلمين يرون أننا نتطاول على قدسية الدين؟

وقال أحد الإخوة الحاضرين:

ــ لكن هذا يؤدي بنا إلى نتيجة واحدة هي أن الإنسان هو علة التمزق والانحراف والله سبحانه الذي لا تخفى عنه خافية يعرف ذلك ويبيحه.

ــ أذكرك بما قاله الخالق العظيم في سورة النساء: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ ــ ٤٨ ــ ولما كان هو الذي يقدّر ويقرر وفقاً لمجموع ما قام به كل إنسان خلال حياته وحدد ذلك بصراحة بقوله: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم﴾ ــ ٣٤ ــ فصلت، وهذا ما نعمل جاهدين على تطبيقه. ولكل حسنة ثواب يعادل من تعمهم ولكل سيئة عقاب يتساوى وعدد المتضررين بها. وليت كل مسلم يتقيد بحرفية هذا الإيضاح.

هذا الدين

يخطىء من يظن أن الدين الإسلامي دين العرب فنحن نبدأ صلاتنا بتلاوة الفاتحة التي تقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ و « العالمين » لا تعني العرب وحدهم. لقد أنزل هذا الدين بعد أن بات الإنسان قادراً على جمع كل القدرات في قادر واحد. وشتان بين فكر العصور السالفة قياساً إلى ما ألفه الشاعر الإغريقي هيزيود Hesiode المولود في القرن الثامن قبل الميلاد في أسكرا Ascra باسم نسب الآلهة «Thé Ognie»الذي حاول فيه التنسيق بين نظام الكون ومعتقدات الإنسان، وبين التحول الذي طرأ على مدارك الإنسان فجعله يؤمن بإله واحد. إن الفكر السابق كان يعطي صورة عن المادية المطلقة في معتقدات الإنسان التي كانت ترفض تقبل أي مفهوم غيبي. لابد وأن يكون لكل قوة خارجة عن قدرة الإنسان إله يختص بها ولابد وأن يكون أولئك الآلهة قد ولدوا وتكاثروا واقتتلوا فيما بينهم على السلطة واتخذوا أنصاراً لهم من البشر ثم ماتوا كما هو الحال مع الإنسان: ولادة فنمو فتناحر فموت.

ووفقاً لرأي هيزيود فإن « أورانوس » وهو الاسم الذي أطلق فيما بعد على الكوكب السابع من المجموعة الشمسية، كان ابن « جيا » أي الأرض وأنه اتحد بها، أي تزوجها، فأنجب منها مجموعة من المخلوقات الإلهية: « أوسيان Ocean » وهو اسم يطلق على المحيطات باللاتينية، و « تيتان Titan » أي الجبار، و « سيكلوب Cyclope » ويطلق على ذي الضخامة الخرافية و « جيان Geant » وتعني العملاق، لكن « أورانوس Uranus » كان يكره أولاده فما يكاد ينجبهم حتى يغرسهم في أعماق الأرض حيث كانت « جيا » توجه ابنها « كرونوس Kronos » ليقطع أوصالهم ويشوه أشكالهم، ومن دمهم المقدس نشأ « الايرنيون » و « الميليون » ثم أفروديت. أما كرونوس نفسه فقد تولى إدارة العالم « الأرض » بعد وفاة أورانوس.

من هنا نتأكد من أن تعداد الآلهة كان سمة من سمات العقل البشري. فالغابة لها إله وللبرق إله وللرعد إله وللمطر إله. وظل الإنسان يتدرج في رقيه الفكري حتى توصل إلى حصر كل الأعمال والظواهر الخارقة في إلهين اثنين هما الخير والشر.

وتطورُ الفكر البشري لم يمنع بقاء ذينك الإلهين لكنه جعل أحدهما هو الذي يسيطر على خير الوجود أما الثاني فمهمته نقض ما يقوم به الأول . وعندما أنزل ديننا على العرب كان الفرس جيرانهم يتبعون المجوسية والروم المسيحية والعبرانيون اليهودية ولم يكن في هذه الرقعة الشاسعة من الأرض من يعبد الأوثان غير العرب .

ولقد جاء تبرير لنزول هذا الدين بلغة العرب في آية من سورة البقرة على لسان إبراهيم أبي الأنبياء : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ **١٢٩** .

وإبراهيم كما نعلم هو أبو إسماعيل الذي تمت إليه العرب المستعربة بعد أن انقرض العرب العاربة والغاربة . ولقد دعا إبراهيم ربه بهذا الدعاء وهو يرفع مع ابنه إسماعيل قواعد البيت .

وهناك من يقول أن زرادشت أو زوراثوسترا كما يطلق عليه في السند والذي يعتبر نبي الفرس والكرد هو إبراهيم الخليل . لكن الموسوعة تنفي هذا القول لأنها تحدد مولد زرادشت في القرن السابع قبل الميلاد ووفاته في القرن السادس بينما تحدد شخصية إبراهيم بأنه أقام مع ولديه إسحق وإسماعيل في فلسطين وأنهم أسلاف اليهود والعرب ومولده كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

وكتابنا يؤكد استجابة الخالق لدعاء إبراهيم إذ يقول سبحانه : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ **١٥٠ البقرة** ويضيف : ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ **١٥٢ البقرة** .

كان النبي الوسيط الذي اختاره الخالق لينقل تعاليمه إلى المخلوق ويناقشه في وجاهة ذلك التشريع وجدواه ومسبباته فإذا ما استوعب مراميه بات حكيماً .

ولقد أجمل الله المقصود من ذلك الدين الجديد ومراميه وترك الخيار للمخلوق فقال سبحانه : ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ **١٥ الإسراء** ويعطي دليلاً بيّناً على عدله فيقول : ﴿ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ **١٣٤ طه** .

وجاء هذا القول الوجيه بعد آيتين سبقتاه يبين فيهما النتيجة التي سيلاقيها كل مخلوق على هذه الأرض قال فيهما : ﴿وكل إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً

يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ **١٣، ١٤ الإسراء**، وأكد عدالته في إيضاح لا يتعذر فهمه على أحد فقال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ **٥٩ القصص**.

ولو أن الخالق العظيم اقتصر في تعاليمه على مقدرة من شاء لهم أن يتقيدوا بها وفي حدود مستواهم الفكري عند نزولها وحسب لوجب أن يبعث في كل قرن رسولاً جديداً ينهي إلى الناس ما يريدهم أن يستوعبوه وأن يعملوا به. لكن الخالق العظيم استعمل عبارات بليغة في تعاليمه تتيح للفكر الإنساني أن يفهمها بلغة عصره دون مساس في جوهر المقصود. ولا ريب أنه تعالى توقع أن تتفاوت نتائج المفاهيم بحسب مستوياتها وأن يقوم نزاع بين المؤيدين والمعارضين لما يستخلصه كل جانب اعتماداً على طاقة مداركه فقال سبحانه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ **٩، ١٠ الحجرات**.

هذا ما أمر به الله. لكن المؤمنين لم يأخذوا به بل تفرقوا إلى شيع ومذاهب ترى كل منها أنها وحدها التي تنادي بالحق والدين الصحيح، فتصدعت بنية الكيان الإسلامي وما زالت تتفكك. ولو استمر الأمر على هذه الوتيرة لما بقي من الدين إلا الاسم ولبات المسلمون دُمىً تحركها الأيدي المغرضة لتحقق ما تصبو إليه.

لم يُخضع الدين في جوهره فكر المؤمن في نطاق لا يتجاوز دائرة الفهم السطحي لما تعنيه تعاليمه. لقد جرؤ المعتزلة على نفي الصفات القديمة عن الله ونزهوه عن الشر الذي أضيف إليه وأنا من أنصار هذا الرأي رغم أنني لست منهم. إنهم ينفون القدر عن الله ويؤكدون أن الإنسان هو صانع فعاله وهذا صحيح مائة بالمائة. فكل ما للإنسان يد في وقوعه من أحداث ليس قدراً مقدوراً. إن القدر هو الحدث الذي لا يسهم الإنسان في حدوثه.

ولقد قامت شيع كثيرة كالحرقية الذين يرون أن الكفار لا يحرقون إلّا مرة واحدة والمفنيّة الذين يقولون بفناء الجنة والنار، والقبرية الذين ينكرون عذاب القبر واللفظية الذين يقولون بأن ألفاظ القرآن مخلوقة. وهذه الفِرَق تتصل كلها بالمعتزلة، خلافاً للجهمية وهي الفرقة التي قالت بخلق القرآن ونفت صفات الله وأنكرت رؤية الإنسان للخالق يوم القيامة، والخوارج الذين كانوا يقولون بخلود مرتكب الكبيرة في النار، والأزارقة والصفرية والأباضية

وكلهم من الخوارج كانوا منتشرين في الشام والعراق وفارس. بل إن بعض المفكرين ومنهم معمر بن عباد السلمي يؤكد أن الموت والحياة ليسا من فعل الله بل يرجعان إلى طبع الأجسام نفسها أو ما كان يطلق عليه اسم الحي الميت. وكان نفيه لهذا الفعل عن الله يرجع في تفكيره إلى أن الحدوث والفناء عَرَضان لا دخل لله فيهما.

ونفي الظلم عن الله ينفي عنه الشر لأن الشر ظلم. وبانتفاء الشر عنه تنحصر أعماله في الخير وحده. ولابد والحالة هذه من أن يكون هناك مصدر للشر مستقل عن الله.

كان هذا المصدر عند الزرادشتية والمثنوية وغيرهما من الفرق المجوسية إله عُرِّف بأنه الظلام الذي تنبعث منه كل أعمال الشر. أما النور، فإنه الإله الآخر الذي تصدر عنه كل أعمال الخير لأنه إله الخير.

ولاريب أن أخْذ المسلم بهذه الفكرة عودة إلى المجوسية. فلابد إذن من تعديل الفكرة بحيث يكون الله مصدر الخير، والإنسان نفسه مصدر الشر. كما جاء في خاتمة الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة النحل: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وفي قوله الصريح: **﴿إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ٤٤ يونس.**

وما توصل إليه الإنسان حول الخلق والخالق عبارة عن حلقة مفرغة يدور فيها الفكر مستهدياً بالبديهة والمنطق ليجد شيئاً غير محسوس ولا ملموس، يختلف من مصدر إلى آخر. وهذا الاختلاف هو مصدر الانقسام والتحيز.

إن استقصاء فهم الغيبيات وعجز إدراكنا لكامل أبعادها لا يعني بالضرورة أن نتوقف قانعين بما حصلنا عليه. إنه الحصيلة التي جمعناها في حدود فهمنا. فإذا كانت النتائج متضاربة تستند كلها إلى حجج تقبلتها الأذهان، فإن هذا لا يعني أن يقتتل أصحابها مع أنصارهم فيما بينهم وأن يستشري بينهم العداء وتنمو الضغينة، بل على كل منهم أن يعلن أن هذا حصيلة ما استطاع بلوغه بتفكيره وأن الأمر متروك للعقول الأخرى وفوق كل ذي علم عليم.

سيقول قائل: إن الخصومة تستشري بين أنصار المذاهب الفلسفية وبين أصحابها أنفسهم بسبب تعصب كل جانب في الدفاع عن النظرية التي اقتنع بها وهذا أمر طبيعي في تكوين الإنسان ولولاه لما دافع أصحاب الديانات عما به يؤمنون ولما قامت مناظرات ومناقشات.

والرد: إن الاختلاف القائم بين دين وآخر يشكل المنطلقات المتفاوتة التي تقوم الخصومة على أساسها. لكن الاقتتال بين أصحاب الاجتهادات في الدين الواحد يعود بالضرر على الدين نفسه وبالتالي لا يمكن أن نسمي مثل هذا التصرف دفاعاً عن الدين نفسه بل إضعافاً له وتفتيتاً لوحدة أنصاره.

فالدين الإسلامي يعتمد في تعاليمه على كتاب نقله رسول عن إله يؤمن المسلمون كلهم به. وليس مقبولاً والحالة هذه أن يضيف أحدهم إلى ذلك الكتاب شيئاً. فالاجتهاد لابد أن يقتصر على شرح ما جاء فيه. أما أن نتعرض للخالق بفكرنا المحدود ثم نقاتل الذي لا يوافقنا على رأينا فيه فإنه خروج على الدين كله وليس خدمة له وتقوية لأواصر التآخي بين أتباعه.

فالخالق هو الخالق شئنا أم أبينا. وأي اسم يختاره الناس للتعبير عنه مقبول لدى أصحاب الاختيار ويجب أن لا يكون موضوعاً للمناقشة والجدل. ترى ماذا يزيدني علماً ورؤية وإيماناً أن تكون صفات الخالق التي أصوره بها لذهني مخلوقة، حادثة أم أزلية؟ وماذا يفيدني أن يبرهن مجتهد على أن الله قد خلق ثم أخلد إلى السكون بحيث لم يعد قادراً على خلق أي جديد، أترى كان هذا القول سيعود علي بنفع أو ضرر في المعرفة لو صحّ أو كان خاطئاً؟ ولماذا نختلف في تحديد عقوبة الخاطئين ما دمنا لسنا ممن سيوقع العقاب بهم. فإذا قال أحدهم: إن مرتكب الكبيرة خالد في النار، وقال آخر بل يعذب فترة ثم يعود إلى النعيم، فما هو الداعي إلى الاقتتال أو الخصومة بسبب هذا القول؟ إن أكثر من يتوجب عليهم الاهتمام بمثل هذا الإفتاء هم مرتكبوا الكبائر أنفسهم وليس عامة المسلمين.

ولئن كفّر مفكر مرتكب الكبيرة بينما اتهمه آخر بالفسوق وثالث بمنزلة بين الكفر والإيمان ورابع بكفر النعمة وليس كفر الشرك وهكذا، فمالي ولهذه الأقوال؟ أأكون على أبواب ارتكاب الكبائر منتظراً أن يزودني أحدهم بما سيكون عليه حالي بعد ارتكابها، ليكون لها في نفسي مثل هذه الأهمية؟

سيقول قائل: إن مرتكبي الكبائر إذا تركوا وشأنهم عاثوا في الأرض فساداً، لذلك لابد من ردعهم بل والضرب على أيديهم لأننا إذا أغفلنا ذلك عمت الكبائر وطغت على كل الفضائل.

كلام مقبول ومعقول. ولكن، ماذا يفعل صاحب مذهب تكفير مرتكب الكبيرة هذا، أيقتله؟ وإذا فعل ذلك، أيضمن أن يخلد ذلك الكافر في جهنم جزاءً وفاقاً؟ لو ترك

الحكم في هذه الأمور لأصحابها لأفنى بعضهم بعضاً ولكانت الدوافع شخصية بحتة ليس للدين فيها علاقة تذكر . وإذا كان الدين قد أمر المؤمنين به أن يطيعوا الله والرسول وأولي الأمر ، فإن معنى ذلك أن يقوم أولو الأمر بإنزال العقوبة على الفاعلين وفقاً لما ورد في القانون الأساسي الذي جُمع في الكتاب . أما خلودهم في النار أو عودتهم إلى الجنة فإن الخالق وحده صاحب القرار وليس لمخلوق أن ينوب عنه في تحقيق ذلك . هذا ما قاله الخالق في تعاليمه وأكده في آياته ومادامت الكبيرة كبيرة بمدلول اسمها أولاً ثم بنتائجها وآثارها ، فإن مرتكبها ، سواء كان كافراً خالداً في النار أم كافراً كُفر نعمة وغير مخلد في النار ، أم فاسقاً أم ظالماً فإن الفيصل في ذلك هو الخالق وحده . لذا ، على المخلوق أن يسنّ العقوبة التي يستطيع تطبيقها على الفاعل في الأرض التي يعيش عليها وفقاً لما يعود على المجتمع من ضر من جرائها وليترك النهاية إلى صاحب الحق الأوحد يقررها وفق ما يشاء . لذا لا جدوى من إصدار حكم التكفير إلا إذا كان للمسلم الحق في أن يقتل مسلماً جزاء كفره بتفويض من الخالق . والخالق لم يفوض أحداً وليس في الكتاب آية واحدة تبيح للمخلوق أن يفعل ذلك .

والمعتزلة سُمّوا بأهل العدل لأنهم ينفون القدر ويقولون بأن الإنسان هو موجد أفعاله ، تنزيهاً للخالق من أن يضاف إليه الشر . وسُمّوا بأهل التوحيد لنفيهم الصفات القديمة عن الله ودفاعهم عن وحدانيته ، وهذا ما جاء في « صبح الأعشى للقلقشندي » .

لكنهم يرفضون اسم القدرية الذي أطلق عليهم لأن القدريين في رأيهم هم الذين يرضون بالقدر لا الذين ينفونه . في حين أن من أطلق عليهم اسم « القدرية » كانوا ينفون القدر . كانوا فرقة سبقت المعتزلة وكان من رؤسائها معبد الجهمي وغيلان الدمشقي الذي اعتبره المعتزلة واحداً منهم ومن هذا وقع المتحدثون عن القدرية في خطأ الجمع بينهم وبين المعتزلة .

وقد رُوي عن أبي إسحق بن عياش أنه قال عن المعتزلة أن سند مذهبهم أصحُّ أسانيد أهل القبلة إذ يتصل بواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين أخذا هذا المذهب عن أبي هاشم عبد الله الذي أخذه عن أبيه محمد بن الحنيفة الذي أخذه عن والده علي بن أبي طالب الذي أخذه بدوره عن النبي . ويستدل ابن المرتضى على صحة هذا القول بأن محمد بن الحنفية هو الذي ربّى واصلاً حتى تخرج واستحكم . ومحمد بن الحنفية من أعرق علماء الكلام .

لكن المؤمنين بالقدر اليوم يعتمدون على المعنى السطحي للآية الكريمة : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ،

لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ **٢٢ ، ٢٣ الحديد .**

وهؤلاء اعتمدوا على الآية الثانية والعشرين وحدها وجعلوا الإنسان أداة تفعل ما قدره الله عليه أن يفعله منذ الأزل وبذلك جعلوا الخالق ظالماً يقرر مسبقاً أن يكون هذا أو ذاك من مخلوقاته فاسقاً ليودعه جهنم جزاءً على ما قرر له أن يفعله . والله سبحانه منزه عن الظلم رغم الشرط السادس من مقومات الإيمان به الذي يروجونه اليوم والذي ينص على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى ! تلك كانت إحدى نقاط الضعف التي أثارها المستشرق ليدلل على فساد ديننا الذي ابتكره نبينا .

الديـن والعلـم والنظـام

نحن نستنتج من واقعنا أن هناك وجوداً ملموساً لا نستطيع إنكاره لأننا نراه ونحسّه، وواجداً لهذا الوجود لا نراه ولا نلمسه لكن عقلنا وذكاءنا يقودانا إليه لاستحالة البحث في أي تسلسل فكري أو استنتاجي إلا من هذا المنطلق، أي من منطلق وجوده.

لكن إقرارنا بوجود واجد لم يعطنا حتى الآن تفسيراً مقبولاً لطبيعته ولا للطريقة التي أوجد بها هذا الوجود. لقد بحثنا في النظريات العلمية المتعلقة بنشأة الوجود فوجدناها نظريات تبحث في الوجود وتبني عليه نتائج استنتاجاتها. والنظرية الحديثة التي توصل إليها السويدي «أوسكار كلاين» والتي وضع أسسها الألماني «فيليكس كلان ١٨٤٩ ــ ١٩٢٥» تقول: إن الوجود مؤلف من جزيئات موجبة ونقيضاتها سالبة، وإن كلاً منها تدور دوراناً متعاكساً بمعنى أن طفولة الإنسان التي تبدأ بأولى مراحل تكون الجنين في الرحم فنموه فولادته فطفولته وصباه وشبابه ورجولته، فكهولته ومماته، إنما تتمثل في جزيئاته النقيضة بطريقة عكسية، أي ابتداءً من تحلله في الأرض التي يدفن فيها فموته فكهولته وهكذا حتى أولى مراحل تكوينه. ولقد أكد نظريته هذه بمعادلات رياضية تعطي فكرة واضحة عن البعث والنشور إذا أردنا استخدامها في تسهيل المفهوم الديني لهذه الواقعة، إذ لن يكون على الخالق إلا أن يستخدم الجزيئات النقيضة بدلاً من الموجبة التي فنيت في الزمن لتعود الأمور إلى الوجود على الشكل الذي يقرره.

والنظريات الأخرى التي جاءت من قبل ذلك تتحدث عن كتلة هائلة من مادة تفوق كثافتها الخيال أدى الضغط الحتمي فيها إلى انفجارها فتبعثرت شظاياها التي تخللها الفراغ فاتخذت أحجاماً مختلفة. ولما كان الانفجار الرهيب قد رافقته حرارة لا تقدر درجتها فإن تلك الشظايا كانت على شكل غازات ملتهبة ظلت تتحول من حال إلى حال طيلة ملايين السنين حتى استقرت آخر الأمر على شكل مجرات ومجموعات تملأ الفراغ الكوني. وهي ما تزال تدور حول نفسها وتتباعد بسرعات فلكية توضحها شدة الأطياف التي تبعث بها تلك المجرات

الدائرة في سماواتها . والخلاف في تلك النظريات يقتصر على النتائج . فهناك ما يؤكد أن هذا التباعد سيعقبه تقارب فالتصاق فانفجار وما يقول أن الكون مستمر في وجوده لا يفنى لأن المادة تتحول فيه إلى طاقة والطاقة تعود إلى مادة وهكذا .

لكن « كلاين » خالف هذه النظريات كلها فقال بأن الكون كان شتاتاً من جسيمات وجسيمات نقيضة ولو تكدست في مكان واحد لكان الانفجار الناتج عن التقائها أعنف وأشد ولاستمر إلا ما لا نهاية ولاستحال وجود أكوان سابحة في مداراتها كتلك التي نراها اليوم .

ولا ريب أن الدخول في شرح مثل هذه النظريات يجعل القارىء غير المتخصص أمام رؤية غريبة للأمور أشد غرابة من الخيال . لقد افترض « كلاين » أن السحابة الأولى التي نشأ عنها الكون كانت سحابة من « البلازما المتأيّنة » يبلغ نصف قطرها حوالي ألف مليار سنة ضوئية ، أما حجمها فأكبر من ذلك بكثير كما تؤكده المعادلة : « ٤١٦ر١×٣ مربع نصف القطر » ، وأنها تنكمش بحيث يصبح كل جزيء سالب أو موجب سابحاً في فراغ لا يزيد على سنتي متر مكعب واحد بعد أن كان يسبح في فراغ يزيد على مليون متر مكعب وبذلك يصبح احتمال اصطدام الجزيئات السالبة والموجبة أكبر وأكبر ، إلخ . . .

هذا عن العلم . ولقد ورد في كتابنا ذكر قريب إلى هذا القول بشكل ما في الآيات ٩ ــ ١٢ من سورة « فصلت » : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾

وكان القدماء يعتقدون بمادية القبة السماوية التي كان يُفترض أن الأنجم معلقة بها . لكن ملاحظة الكواكب المختلفة وتبيّن حركتها الخاصة جعلهم يُدخلون في مفهوم السماء عدداً من الدوائر الشفافة المتراكزة ــ المشتركة في مركز واحد ــ تدور بسرعات مختلفة متفاوتة فكان أرسطو مثلاً يرى أن النجوم مثبتة في الدائرة الأخيرة وهي الثامنة . وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى العصر الوسيط . وكان الفلكيون يعتبرون الأرض مركز الكون حتى جاء « كوبرنيك » عام ١٥٤٨ بالتقدير المتعلق بنظام الكواكب ومجموع السيارات المعمول به حالياً والذي يعتبر الشمس مركزاً لها . ولم يلبث ابتكار النظارات الفلكية أن أضفى القدرة على التمييز بين الكواكب والنجوم وهو ما أثبت البعد الهائل للنجوم عن الأرض . فالنجوم هي شموس

أخرى تدور على مسافات هائلة لدرجة أن الضوء، رغم انتشاره في الفضاء بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر ــ ثانية، إلا أن وصوله إلينا يستغرق ثلاث سنوات ونصف السنة من أقرب نجم إلينا لكن معظمها أبعد كثيراً من هذا التقدير لدرجة أن بعضها لا يمكن أن يصل ضوءه إلينا قبل مائتي ألف عام. وما نشاهده بالعين المجردة من تجاور النجوم في القبة السماوية راجع إلى عجز قوة أبصارنا عن تبيان الفوارق الهائلة بين نجم وآخر.

ولما اقتصر بحث المصادر العلمية على الوجود دون البحث المقنع في المُوجد، فإن المصدر الوحيد الذي نجده أمامنا هو الدين وعلينا أن نلقي نظرة على هذا المصدر قبل أن نطرح معطياته للمناقشة.

إن كلمة دين تطلق على العقيدة كما تطلق على القانون والتشريع والجزاء والعبادة. ومن هنا جاء القول المأثور: «الناس على دين ملوكهم» أي أنهم يتقيدون بالنظم والقوانين التي يضعها أولئك الملوك.

والقانون والتشريع هما الركيزة الأساسية للنظام، والنظام هو علة المجتمع. ولو عاش الإنسان منفرداً في بقعة لا يشاركه فيها أحد، لما استطاع رغم تفرده أن يتمرد على النظام وأعني على الترتيب والترابط. فهو لابد أن يستجيب لشرعة الجوع فيأكل ولقانون حماية الذات فيقي نفسه شر العوامل الطبيعية من حرارة وبرودة ورياح وأمطار، وعليه فوق كل هذا أن يتبع نظاماً ليأمن به على ذاته. فالنظام إذن، بوصفه ترتيباً وترابطاً، أمر محتوم في طبيعة الإنسان تعرّف عليه بالضرورة وعمل به بالتجربة.

والإنسان، منذ العصر الثلثي وحتى يومنا هذا، أي منذ أن كان أقرب شكلاً وبنية من الحيوانات التي نطلق عليها صفة الرقي، وحتى أصبح على ما هو عليه اليوم، يخضع لهذا اللون من الترتيب والترابط مع أنه مرّ بأطوار كثيرة بدءاً من البسيط فالمركب فمتعدد التركيب.

ولما كان لابد من أن يكون لهذا الوجود من مُوجد، فإن هذا الموجد لا يمكن أن يُغفل ما أوجد وإلا كان فعله خالياً من الغائية. فأنت لا تصنع شيئاً إلا لعلة أو غاية، حتى ما يبدو لغيرك عشوائياً لا يمكن أن تقدم عليه دون غاية.

وانطلاقاً من أن الموجد لم يخلق الوجود إلا لعلة، فإن محاولة الاستدلال عليها ومعرفة الأسلوب الذي اتُّبع لتحقيقها يصبح من أهم واجبات العقل المدرك.

ولقد استنتجنا أن الخالق قد تدخل في سلوك ما أوجد عن طريق الفطرة أو الغريزة، وهي خصائص المخلوقات غير العاقلة، وعن طريق العقل والإدراك والذكاء إضافة إلى الفطرة نفسها بالنسبة للإنسان بوصفه قمة الرقي في المخلوقات عامتها.

ولما سبق لنا الاستنتاج أن الخالق مكوّن من مادة تفعل في كل المواد دون أن تفعل أي منها بها، فإن تدخله المباشر لابد وأن يحدث أثراً مدمراً في المادة التي تكوّن الإنسان منها. ويشهد على صحة ذلك ما جاء في كتابنا: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ **١٤٣ الأعراف.**

من هنا نرى أننا مرغمون على إيجاد طريقة تضمن العلة الغائية وتبقي عليها وسيلة آمنة ومقبولة تقيم العلاقة على أفضل وجه ممكن بين الموجد والموجود.

والتسلسل المنطقي يقودنا إلى تلك الوسيلة التي اتبعها الموجد. إنها الوسيط من المخلوقات نفسها يجري اختياره من كل مجتمع وبيئة على حدة، يتلقى توجيهاته من الموجد عن طريق موفد خاص. والغاية من هذا الأسلوب في الارتباط محصورة في هدف واحد هو تطوير المخلوقات وترقيتها بحيث تصبح مؤهلة للمرحلة المقبلة المقررة.

ولقد أطلق على الوسيط من المخلوقات اسم النبي أو الرسول أما الموفد الذي يحمل توجيهات الموجد فقد أطلق عليه اسم الوحي.

وقد يعترض أحدهم على هذه التسميات ويتساءل عن مراميها ومعانيها. وقد يستنكر لجوء الموجد إلى هذا الأسلوب «الملتوي» في تحقيق غاياته. ليكن. سيرى الجواب المقنع والمبرر السديد في هذا السياق.

نقول: قام تسلسل بين الموجد والموجود عن طريق وحي لطيف التأثير على مكونات الإنسان يتصل بالرسول الذي اصطفاه ليتلقى توجيهاته التي ينقلها بدوره إلى أبناء مجتمعه وبيئته. ولقد قامت هذه الحلقة المترابطة منذ أقدم العصور على أشكال مختلفة: توصيات ودساتير سهلة وقوانين متكاملة الحيثيات، كل ذلك بحسب التطور الذي بلغه الإنسان ومدى طاقته على الإدراك والانتفاع من تجارب الأسلاف.

والإنسان المعاصر تلقى ثلاثة قوانين أو دساتير متميزة جُمعت نصوصها وموادها في مرجع ثابت يستأنس الإنسان بنصوصه كلما دعت الضرورة هي اليهودية والمسيحية والإسلام.

ولما لم ينج دستور من هذه الدساتير من النقد والمآخذ، فسيقتصر بحثنا على إبراز ما لحق بالدستور الأخير وحده دفعاً لأي حساسية وبعداً عن إثارة التعصب والأنانيات.

وقد يعترض بعضهم على كلمة الوحي التي جعلتها تعريفاً للوسيط فيقول: إن كل إنسان إذا ما فكر استوحى، فالشاعر يستوحي والكاتب يستوحي فلِمَ لا يكون وحي الرسول قاصراً على تفكيره وعمق تأمله؟ إن الفلاسفة والعلماء في العالم استوحوا آراءهم من مصادر ذاتية لم تكن لها علاقة بالخالق، فلِمَ نستثني من ذلك الرسل؟

وقد يقول بعضهم مثل هذا القول عن قناعة وثقة. ولكن لو تأملنا بشيء من التعمق في هذا القول لوجدنا الرد المفحم: إن كل وحي يصدر عن انفعال على درجة ما في مادة الموجود من مادة الموجد الفاعلة في كل الوجود.

أقول: انفعال إلى درجة ما. فالتلميذ مثلاً ليستوحي مقومات الموضوع الذي يكتبه في امتحان الإنشاء. والشاعر الملهم يختلف عن الشاعر المتكلف في استيحائه. لكن كلاً منهما يحلق إلى مستوى معين يستوحي مادته. والحكيم يتأمل ويتعمق ثم يربط بين ما تبين له من مفاهيم. وعمق التفكير لا يعني هبوطه بل سموه وارتقاءه، وتعمق الحكيم في الفكر صعود إلى حيث لا تستطيع الكثرة الكاثرة من الناس الوصول إلى سويته. ولو لم ينقل المؤمنون بالإسلام عن النبي ما قاله عن الوحي والاسم الذي عرفه به لما قام خلاف في القول بأنه انفعال الموجود بمادة الموجد الجوهرية. وكل الفقرات التي وردت في قرآننا مشيرة إلى الوحي اقتصرت على المعنى دون الشكل. فالوحي في اللغة هو الإعلام الخفي. ولنستعرض هنا بعض هذه النصوص: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾ **٥١ الشورى**. ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ **٣٧ هود**. ﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل ربِّ زدني علماً﴾ **١١٤ طه**. ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ **٤ النجم**. ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ **١٣ إبراهيم**. ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ **١١١ المائدة**. ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى

نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ **١٦٣ النساء** . ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ **٧ القصص** . ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ **١٠٩ يوسف** . ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ **٤٤ آل عمران** . ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ **١١٢ الأنعام** . ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ **١٩ الأنعام** .

نستنتج مما سبق أن الوحي هو الإيحاء والإلهام ولم يرد في أي موضع من قرآننا ما يشير إلى غير ذلك . فلا خلاف حول مفهوم الوحي . والتعريف بأن الوحي لم يتم بالإلهام المباشر بل بواسطة ملك اسمه جبريل ، قول ورد على لسان النبي نفسه . والاسم ليس سبقاً من المسلمين . فالأديان الأخرى أقرت بالملائكة أولي الشأن في الإدارة العليا .

نستخلص مما سبق أن العلماء بنوا أبحاثهم ودراساتهم على موجود لم يُعنوا بالبحث عن موجده فتركوه مجهولاً . أما المفكرون فقد حاولوا التعرف على الموجد لكنهم ما استطاعوا تحديد كنهه إلا بكونه جوهراً استثنائياً خاصاً لا يشبه المواد التي نعرفها ، يفعل في كل شيء ولا يفعل فيه شيء . والفريقان لا يشفيان الغلة فيما قدّما من نتائج . لكن المفكرين اتفقوا في حدود قدراتهم العقلية على تحديد « فاعل » ظلت صورته غامضة في حين رفض العلماء إخضاع فكرهم لمثل هذا الغموض فأقروا بجهلهم لطبيعة هذا الفاعل رغم اعترافهم باستحالة وجود دون موجد ، لكنهم لم يجدوا سبيلاً لحل هذه المعضلة فاستعاضوا عن « الفاعل » « بنائب الفاعل » وأعني المجهول ، في حين أقرَّ المفكرون بفاعل معلوم لكنه غامض النشأة والمصدر مجهول في حقيقته ومعلوم في الاستدلال عليه .

فإلى أي من الفريقين تنتمي ؟ ألا ترى أن وجود ثمرة تفاح دليل على وجود الشجرة المنتجة نفسها ؟ لقد تعرفت على آراء المفكرين من علمانيين وروحيين ، فهل يضيرك أن تطلع على وجهة نظر ثالثة تعتبر في واقعها مكملة لاستدلالات الميتافيزيقيين ؟

لقد أطلق هؤلاء اسم الله على هذا الفاعل الغامض التكوين المجهول المنشأ الذي قادتهم إليه براهين تقوم على المنطق. وهذا الإله أو الموجد لا تستطيع مادة من مواد هذا الكون الذي نراه ونحس به أن تصمد لتأثيره إذا ما فعل بها وخصوصاً مجموعة المواد المحوَّلة التي قامت عليها بنية الإنسان، لذلك فقد عمد إلى طريقة الوساطة في تبليغ توجيهاته الممكنة التنفيذ والمتناسبة مع قدرة عقول بني البشر على الفهم والاستيعاب.

ولكن، كيف يتقيد الإنسان بقانون لا يعرف مصدره وأسباب صدوره؟ من هنا ندرك أن أول اتصال قام بين هذا الموجد ومخلوقاته اقتصر على التعريف به. قال لهم على لسان الوسطاء المبلغين: أنا القدرة التي أوجدتكم فاعرفوني لكي تسهل مهمتكم في هذا الوجود. اعرفوني أوّلاً ولتكن الصلة وثيقة بيننا والثقة متبادلة. أنا لا أريد أن أرغمكم على فعل ما لا تعرفون له سبباً بل أريدكم أن تتصرفوا بتعقل وفهم لأنني أودعت فيكم نواة لطاقة لم أجعلها في غيركم من المخلوقات المحيطة بكم.

ولقد استغرق شرح هذا الدرس الأول واستيعابه من قبل التلاميذ دهوراً طويلة وما زال عدد كبير من بني الإنسان يتعثر حتى الآن في فهمه رغم أن «الأستاذ» المحاضر أتبعه بعشرات الدروس التطبيقية الأخرى. ولكن هل يعطل أستاذ محاضر برامجه لأن بعض الطلبة الفاشلين تهاونوا في استيعاب الدرس الأول؟ لابد من تطبيق المنهج المقرر وسينجح في الامتحان أفضل التلاميذ وأكثرهم دأباً وأعمقهم فهماً.

لقد جمع التلاميذ محاضرات أستاذهم كلها وانتهى البرنامج المقرر ولم يبق إلا تحديد تاريخ الامتحان. وبانتظار تلك اللحظة التي يكرم المرء فيها أو يهان، أخذ التلاميذ في مراجعة ما جمعوه وراحوا يدرسونه ويطبقونه كلٌّ حسب مفاهيمه. الذكي منهم يتقن المنهج ومتوسط الذكاء يعرفه لكنه يعجز عن الإحاطة الكلية به، لكن فئة منهم لا تأبه بالنتيجة الحاسمة معتمدة على ثروة الآباء أو غافلة عما هي فيه لا تصدق أن يوم الامتحان يوم قريب.

ومن مجموعة هذه المحاضرات والدروس أخذ فريق من الطلبة يستنبط مفاهيم جديدة بعضها خاطئ وبعضها مصيب، بين مقبول ومستهجن، والوقت يمضي وكل دقيقة تمر تقربهم من اللحظة الحاسمة التي سيتقرر فيها نجاحهم أو رسوبهم.

واختلف أعضاء هذا الفريق فيما بينهم حول ما استنبطوه من تلك المحاضرات فعلا النقاش بينهم والجدل وانقسم سواد الطلبة بين مؤيد لهذا ومعارض لذاك واستبد الحماس ببعضهم إلى درجة المشادة فالخصومة فالاشتباك والاقتتال.

هذه هي الصورة المبسطة لواقع البشر . الله يبلغ أحكام النظام بواسطة رسول يستمد توجيهاته عن طريق ضابط ارتباط هو الوحي الموثوق به ، فيحاول جهد طاقته أن يبلغ من حوله حيثيات تلك الأحكام ودواعيها ونتائجها ومراميها .

واكتملت مجموعة الأحكام والنظم فجمعت كمرجع ثابت وأمهل الناس فترة للمطالعة والتطبيق بانتظار ساعة الامتحان .

ولقد مسخ اليهود صورة أستاذهم فجعلوه انعكاساً صادقاً لعقليتهم المادية المعقدة المليئة بالشكوك والريب وجسد المسيحيون أستاذهم ليجعلوه أقرب إلى الأفهام فأحالوه إلى ناسوتي لكنهم لم يهبطوا به من مستوى الربوبية إلى مستوى الابتذال بل جعلوا تلك الصفة الناسوتية غاية ينصهرون فيها .

أما المسلمون فقد اختلفوا في مسائل كثيرة تتعلق بأستاذهم وبالأحكام الصادرة عنه وكانت شخصية الأستاذ نفسه على رأس هذه المسائل . إنه الأول والآخر ، الأزلي الموجود قبل كل وجود ، الجوهر الفرد الذي خَلق ولم يُخلق ، وأراد فقرر وشاء فحقق . لكنهم بعد أن أطلقوا هذه الأقوال على معانيها المطلقة عادوا إليها فاحصين ممحصين .

فالله هو الأوحد ولكن هل كانت إرادته أزلية مثله؟ لو كانت كذلك لشاركته في الأزلية ولا يمكن أن يكون هناك أزليان ! إذن ، هي حادثة وكذلك مشيئته وأفعاله .

والله أزلي وهو أول كل شيء . لذا فإن الكتب السماوية مخلوقة وإلا لشاركته في أزليته ، ولنفت عنه صفة الوحدانية . كذلك الجنة والنار ، إلخ ...

ومن هذا وغيره نرى أن السلف من المسلمين قد عُني بما لا يستدعي عناية متأثراً بأفكار جديدة طارئة ما كانت تدور في الخاطر من قبلُ . ولقد أدت هذه «الاجتهادات» والتفاسير إلى تفتيت وحدة المسلمين وتبديد شملهم وزرع العداوة بينهم حتى استباحوا دماء بعضهم وانقلبوا إلى شيع وأحزاب .

ونحن ، إذا ما وقفنا أمام آلة معقدة من صنع إنسان مثلنا امتاز عنا بتوقد ذهنه وغزارة علمه ، نبحث عمن نسأله كيف تعمل وهذا أمر طبيعي . لكن المسؤول عن تلك الآلة إذا كان جاهلاً بدقائقها مثلنا ، فسيعمد في الرد إلى واحد من حلين لا ثالث لهما : إما أن يعترف بجهله باعتباره ليس صانعها وإما أن يدفعه غروره إلى نفي صفة الجهل عن نفسه فيعطينا بيانات كلها تضارب وغموض وتخبط . هذا عن آلة معقدة صنعها واحد من بني البشر .

ولكن إذا كانت الآلة من صنع صانع لا يدخل في حدود خيالنا، فكيف نجيز لأنفسنا الافتراء والانقياد المغرور ؟

إن المسألة التي تطرّق لها الفكر الإسلامي من أكثر المسائل تعقيداً. ونظرة إلى ذواتنا تقنعنا بأننا لم نصنع شيئاً من الأجهزة التي نشعر بها وندرك بفضلها. فكل صغيرة وكبيرة في بنيتنا الفيزيولوجية أعطيت لنا على حالها وقدرها وقدرتها وفعلها وأثرها وانفعالها. والصانع الذي أنتج هذه الآلة، زودها بقدرات محسوبة محدودة قدّر أنها كافية لتحقيق الغرض الذي صنعت من أجله. وأحاسيسنا انعكاسات بديهية نتيجة لحركة أجزاء تلك الآلة في بنيتنا. لذا كان من الطبيعي أن تتخبط وأن تتعثر تلك القدرات المبرمجة إذا طلبنا منها إنجازاً يفوق الطاقات التي أودعت فيها.

أرأيت سيارة تتساءل لِمَ صُممت على الشكل الذي أنتجت وفق أبعاده؟ والذي صنع السيارة قدّر أنها لا تطير والذي صنع الطائرة قدّر أنها لا تصلح لاختراق نظام الجاذبية. فلكل شيء حدود مقررة لطاقته.

إن أقوى الناس بصراً يعجز عن رؤية ما يره سواه من خلال مجهر. ولكل مجهر طاقة وقدرة. ولقد بلغنا في هذا المضمار شأواً نحاول الاستزادة والارتقاء إلى الأفضل. وما حاولناه ونحاوله منذ أحقاب ودهور ينحصر في إدراك ما حولنا وما نحن فيه بما لدينا من قدرات. والذين أجروا تجاربهم «الخلق» بعض الهوام أو التفاعلات الكيميائية إنما فعلوا ذلك مستعينين بمواد أولية لا يد لهم في إيجادها. إنها مواد أولية موجودة تحت أيديهم وأبصارهم، كان أسلافهم بإدراكهم الضعيف عاجزين عن تسخيرها والإفادة منها وبها. وكل ما فعلوه انحصر في استنباطهم الوسائل التي مكنتهم من تسخيرها. لكنهم في كل خطوة ومرحلة يطورون الشيء إلى شيء جديد، جديد من صورته أو شكله أو طاقته لكنه كان موجوداً من قبل وما كانوا بموجديه. وقدراتنا مصنوعة لتكفينا في بحث ما هو ملموس وحسب، ومحاولاتنا تَجاوزَ نطاق الموجود إلى دائرة الموجد محاولات مقضي عليها بالفشل.

وعلى هذا، فإن البحث في كنه الخالق مشكلة فوق حدود استطاعاتنا وليس لدينا من الوسائل والقدرات ما يمكّننا من فعل ذلك. وكل ما نستطيع تحقيقه يبقى محصوراً في دائرة الحدس والتخمين والتصور، أما الحقيقة، فشيء آخر لا نعرفه ولا ندركه.

أنت تشعر بهزة تجتاح كيانك إذا لمست سلكاً يمر فيه تيار كهربائي لكنك إذا استعملت مادة عازلة حميت نفسك من تلك الهزة. لكنك لا تزال عاجزاً عن تحديد سبب

امتناع هذه المادة أو تلك عن التحسس بالصدمة الكهربائية واكتفيت بوصفها بالعازلة أو غير الناقلة .

وأنت ترى الأشياء حولك واضحة بيّنة فتصفها بدقة وتحدد أبعادها بعكس الكفيف الذي يعجز عن فعل ذلك رغم أن جهاز الإبصار لا يزال حيث هو في وجهه . ومهما تفننت في شرح مفهوم الإبصار وأبعاده فإنك لن تستطيع الخروج من دائرة الحدس والتخمين لتحدد الشيء الذي فقده الأعمى وكنهه . وما معلوماتك عن القرنية والشبكية والقزحية والتجمع والانعكاس إلا التفسير الظاهري للحالة المحيرة . ولو كان علمك محيطاً لأعدت قوة الإبصار إليه بجهاز مستقل لا يرتبط بالمقومات الكامنة في كيانه .

نحن نقول : إن فلاناً تأثر بالجو فأصيب بالزكام ، وإن فرداً من أسرة ما أصيب بمرض لم يصب به أحد من أفراد عائلته لضعف في جهاز المناعة لديه . ولكن هل نستطيع أن نقدم تفسيراً ملموساً لجهاز المناعة هذا لنعمل متكاتفين على تزويد الناس أجمعين بأجهزة من صنعنا تقاوم كل الجراثيم ؟

وإذا كنا عاجزين عن فهم أنفسنا ونحن الذين نعمل في التجارب منذ ملايين السنين فكيف نتصدى لتحديد ما لا يدرك ؟

لقد كان الإنسان البدائي أكثر تواضعاً وأكثر إيجابية بالوقت نفسه حين عزا كل ما عجز عن فهمه إلى مرجع أعلى واكتفى بأن تخيل ذلك المرجع بشكل أو بآخر وفقاً لقوته وآثاره . أما نحن ، فإننا نحاول أن نحدد الكيفية التي تكونت منها تلك القوة وطبيعة مكوناتها ومآلها وحدودها . محاولة غبية ولا شك إذا ما أريد بها التحديد المحسوس ، كناطح صخرة يوماً ليوهنها ...

ولقد أسعفتنا الأديان فردت على سؤال أساسي يتعلق بنا هو : من أين جئنا ؟ جعلت آدم الأب الأول لكل البشر ! ومن الغريب أنا لم نقف أمام هذه النقطة متسائلين مع أنها أجدر بالتساؤل بقدر ما رحنا نتساءل عن الذي خلق آدم نفسه . أي أننا رضينا أن يكون آدم هذا قد صُنع من لا شيء أو من عناصر كائنة في كوكبنا ورفضنا أن يكون الصانع قوة نجهل كنهها وأبعادها فرحنا نحاول بحثها وتجسيدها .

وماذا نجم عن بحثنا هذا ؟ تمزق وتناحر وعداء واقتتال مع أن أياً من الباحثين لم يأت بما يفيد . ماذا نفيد من معرفة أزلية صفات الله أو حدوثها ؟ ماذا يضيرنا أن نجهل أبعاده وهو الذي جمعنا فيه كل القدرات والطاقات ؟

إن لغتنا التي نتفاهم بها تعتمد على كلمات ذات مدلول يصور لنا الأشياء وفق مصطلحات تعارفنا عليها لنخرج الأشياء من دائرة المجهول إلى دائرة المعرفة. فنحن نصف من يعلم بأنه عالم أو عليم ومن يقدر بأنه قادر أو قدير ومن يرحم بأنه رحيم. فكيف نتوقع أن يعرفنا الخالق بذاته بكلمات واستعارات نجهل مدلولاتها وأبعادها؟

لقد خاطبنا الله بلغتنا مستعملاً المصطلحات التي تعارفنا عليها ليقرب الصورة إلى أذهاننا فوصف نفسه بكلمات نفهمها في حدود مراميها. لكن هذا لا يعني أن الخطوط المتحصلة من تلك المدلولات هي حدود الصورة الحقيقية للخالق العظيم.

إن في قرآننا عشرات الأمثلة على استخدامه أسلوب العرب في الكلام حتى في الوصف والبلاغة. أقسم على طريقة العرب ليؤكد حقيقة بسيطة: ﴿لا أقسم بهذا البلد، وأنتَ حِلٌ بهذا البلد، ووالدٍ وما ولد﴾ ١، ٣ **البلد**. كل هذه المقدمة ليخلص إلى عبارة مفهومة أراد التأكيد عليها: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ﴾ ٤ **البلد** عد إلى سورة الشمس وسورة الليل وكثير من السور التي يحويها كتابنا الكريم، أكان الخالق بحاجة إلى كل هذه التوكيدات ليبرز حالة معينة لو كان يتكلم بلغته؟

خذ ما نسميه بالأسماء الحسنى إنها تضم كل النقائض التي تعرفها لغتنا. فهو الحليم والمنتقم، الرحيم والجبار، السلام والمؤمن— هلا عرّفتني بما يؤمن إن لم يكن بما فعل ويفعل—، وهو القابض والباسط، المعز والمذل، إلى آخر ذلك، وكلها متناقضات إذا ما قيست بحرفية مدلول هذه الكلمات في لغتنا؟ ولو فهمناها على هذا الشكل لجعلنا خالقنا كتلة من المتناقضات لكننا لو أعملنا العقل فيها لأدركنا أنه يعني أنه كلٌّ ما يخطر على البال والخاطر، كلٌّ شيء باستثناء الظلم وهذا ينفي صفة الاضطهاد التي تعطيها معاني الكلمات: القابض الباسط، المعز المذل، المنتقم الجبار المتكبر!... وانتفاء صفة الظلم عنه يبدد حكماً كل مفهوم للمتناقضات في حرفية مدلول الكلمات.

إن كل شيء في هذا الوجود يدل على وجوده فيه. لكننا نتساءل حائرين لِمَ خلق ألوف الملايين من الفيروسات والجراثيم والبكتريات وما إلى ذلك من مسميات أطلقناها لتعريف هذه المخلوقات التي ما كنا نعرف وجودها؟ هل نسمح لأنفسنا بالقول: إنها مخلوقات عشوائية لأننا لم ندرك حتى الآن سبب خلقها؟ أيكون خلقاً عشوائياً من جانب الخالق العظيم وهو القائل: ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في المُلْك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ ٢ **الفرقان**؟ و﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله

السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ ٨ الروم .

وتأمل معي هذا التحدي لعقولنا في قوله تعالى : ﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ ١٠ ، ١١ **لقمان** . و﴿ هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ ٤ **الحديد** . و﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ ١٢ **الطلاق** . وقوله : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ ٣٦ **يس** .

أعتقد بعد كل هذا الاستقراء أن ما لم نفهم سبب وجوده ومبرر خلقه لا يدل على خطأ الخالق أو جهله أو عشوائيته بل يضعنا على العكس أمام جهلنا وقصورنا . نحن لم نستطع أن نحيط « بعقلية » هذا الخالق وطبيعة تفكيره فاعتمدنا على ما أبلغنا به عن طريق رسله عبر الأجيال ونحن مرغمون على الاكتفاء بما عرّفنا به ذاته بعد أن حاولنا كثيراً « وفي غفلة منه » أن نكتشف ما خفي علينا من غموض ففشلنا .

تصدينا للوجود باحثين في بدئه ففشلنا ووجدنا أنفسنا مرغمين على الأخذ بنظريات ، مجرد استدلالات بنيت على معطيات قد تتغير في أي لحظة ، لكننا لم نقعد عن البحث . انقسمنا إلى فريقين عظيمين ، الأول اكتفى بمبدأ البحث فيما هو كائن بصرف النظر عمن كونه ، والثاني أقر بوجود مكون لا قِبَل له بإخضاعه لمدارك الحس البشري ، لكنه قادر على التعرف عليه وفهمه من خلال التعاليم التي عممها عن طريق رسله ، فعكف على دراستها والتعمق في مراميها .

ونحن هنا نحاول أن نوفق بين آراء هذين الفريقين بالقدر الذي تسمح به مداركنا . لقد فشل الفريقان رغم إصرارهما بعناد ومكابرة ، في الإحاطة بكنه الموجد فانصرفا إلى البحث في الموجود . ولما كان الموجود بكليته يفوق دائرة الإدراك ، فقد تقلص الاهتمام حتى تركز في الأرض وما عليها .

ولا بد وأن تقر معي بأن خير من نرجع إليهم في السؤال عن الإنسان ونشأته هم أولئك النفر من الناس الذين تخصصوا في دراسة أصول السلالات وخصائص الشعوب وعلم الاجتماع . علينا أن تأخذ بآراء هؤلاء وأن نستأنس بها لأننا لا نملك نقض ما أجمعوا عليه بعد دراساتهم الطويلة إلا إذا خرجنا عليهم بحقائق علمية صحيحة وجديدة تدحض مزاعمهم أو تسفه نظرياتهم وهذا ليس بمنظور لأن أي تجاوز على ما أجمعوا عليه يعتبر رعونة وتطاولاً وافتئاتاً . ورحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده .

وموجز ما أجمع عليه المتخصصون هو أن أول الخلق على الأرض كان وحيد الخلية وقد تكوَّن في التراب الرطب فكان أبسط صورة من صور الحياة وقد ساعده على الوجود غاز الميثان العضوي الذي كان موجوداً على الأرض بدرجة كافية ، وأن هذا المخلوق قد تطور بالانقسام على ذاته في مسيرة استغرقت ألوف الملايين من السنين حتى نشأ منه ما يعمر الكون من مخلوقات .

أما عن الإنسان ونشوئه وارتقائه فإنه بدأ همجياً يعيش عيشة الحيوان في بيئة لا سلطان فيها إلا للأقوى ولا بقاء فيها إلا للأفضل ، وإن هذا المخلوق الفذ ، سواء كان من سلالة بعض القردة العليا أم من فصيلة مستقلة بذاتها ، قد تميز بالعقل والتبصر ، وإنه تدرَّج خلال ملايين السنين من مرتبة الإنسان البدائي الذي يسعى لبقائه بدافع غريزة البقاء المتأصلة فيه إلى الإنسان المتحضر المتمدين المفكر الذي يعمل وفقاً لخبرة طويلة مكتسبة ويتصرف بهدى التجارب والدروس المستفادة التي تحصَّل عليها فراح يعيش في مجتمعات منظمة تحكمها أعراف وقوانين لقيت قبولاً من الغالبية العظمى في كل مجتمع .

والإنسان في رأيهم ، شأن كل الحيوانات التي نراها أو نعرفها ، كانت تغطي جسده طبقة كثيفة من الشعر تقيه تقلبات الطبيعة . وكانت له أظافر وأنياب حادة تعينه على الفتك بفرائسه والتهام لحومها ، نيئة طبعاً ، وكان يمارس الجنس علناً بدافع البقاء ، بدأ بالهمهمة التي تحولت إلى أصوات ذات إيقاعات وحركات تطورت فيما بعد إلى كلمات واضحة وفقاً لمصطلحات ترتبط بنغمة الحركة الصوتية ووقعها وتوافقها مع طبيعة الشيء الذي أريد لها أن تعبر عنه .

ثم إن الإخوة والآباء والأبناء من ذلك الرعيل من بني الإنسان كانوا يسفدون الأمهات والأخوات دون تمييز كما تفعل سائر الحيوانات ليستولدوا منهن مخلوقات جديدة شبيهة لهم تثري أعداد هذه الفصيلة المتميزة ، الأمر الذي أدى إلى التطاحن والاقتتال حول موارد الطعام

الطبيعية والمياه لاكتظاظ المواقع الثرية بها بالشاغلين والوافدين، مما أدى بدوره إلى فكرة التقسيم والاستقلال في العالم. قررت مجموعة أو أكثر من هذه المخلوقات السامية أن تنفرد بإناثها وأفرادها في الرقعة التي تعيش عليها وأن تحمي هذا «الكيان» من تجاوز الأفراد والجماعات الأخرى المشابهة. ولا ريب أن ذلك «القرار» قد لقي استنكاراً ورفضاً شديدين وتحديات دامية كثيرة، وأن صراعات مستميتة قامت بين تلك الجماعات دامت دهوراً طويلة قبل أن تصبح أمراً تتقبله الأطراف المختلفة وعندئذ كانت بداية السلالات.

ثم قامت فكرة الزعامة. فالقردة العليا كما تعلم، تخضع للزعيم القوي الشرس ما دام قوياً وشرساً، فإذا ما ضعف ووهن، فقدَ حياته في معركة مع متطلع جديد إلى الزعامة فإذا ما قضى، التف الأفراد حول الزعيم الجديد وأقدامُهم تغوص في أشلاء زعيمهم السابق. كذلك فعل الإنسان وما زال يفعل مع فارق في الجانب الظاهر من الصورة.

ثم إن تكرار الصراع حول الزعامة دفع زعيماً أو أكثر إلى التفكير في إقامة دفاع دائم عن سلطانه وجبروته تتولاه فئة من المنتمين الذين يرتبطون به بوشائج وثيقة ملزمة. ولقد هداه الفكر إلى أن يستولد هذه الفئة من إناث يحرّمهن على سواه، إناث يوقفهن على ذاته وحده، ومن هنا نشأت القبلية الأولى التي أتاحت للأفراد «الرعية» أن ينفردوا بدورهم بالإناث اللائي تعافهن نفس الزعيم ليشكلوا بهن ومعهن صورة عن العائلة التي نعرفها اليوم في حياتنا السائدة، وتلك كانت بداية القبيلة.

فالقبلية والأسرية والعائلية نشأت متزامنة تقريباً استجابة لضرورات حياتية وحسب، ولما كانت القوة الغاشمة تطغى على كل المفاهيم وتخدم الأهواء والنزوات والمطامع، فإنها أطلق عليها اسم الإقطاع فيما بعد، كان صورة معبرة عن تلك القوة الغاشمة التي تملك كل شيء وتحتفظ بكل الحقوق. فالإقطاعي يملك كل الحقوق المحرمة على سواه بما فيها نساء إقطاعيات دون معارضة من أي من الأتباع. وكم قرأنا وسمعنا عن العذارى الجميلات اللواتي قضين ليلة زفافهن الأولى في فراش الإقطاعي قبل أن ينتقلن إلى بيت الزوجية وأحضان الزوج، وعن قيمة الإقطاعية في التداول التجاري حتى عصرنا الحديث، التي كانت تقدر بثمن الأرض وما عليها من منشآت وزروع وماشية إضافة إلى من يعمرها من رجال ونساء وأطفال عرّفوا باسم الأقنان.

أما كيف تطور الفكر الإنساني بحيث توصل إلى الكتابة ثم إلى الشكل الحالي من التنظيم الاجتماعي فمسألة حديثة مستحدثة إذا ما قيست بالدهور التي قضاها الإنسان قبل أن يصل إلى هذه المرحلة من التنظيم.

ومما تقدم، نستطيع أن نخرج بالخطوط العريضة التالية :

١ — إن الخلق بدأ بوحيد الخلية — الأميبا — الذي نشأ بدوره في التراب المرطب بالماء .

٢ — إن إناث بني الإنسان كن، شأن إناث كل أنواع الحيوان، مجرد وسيلة للمحافظة على النوع وإنهن كن مشاعاً مباحاً متاحاً لكل الذكور كما هو الحال لدى الحيوان حتى يومنا هذا.

٣ — إن النطق نشأ عن ضرورة تعريف الأشياء، وإن الكلمات استنبطت من نغمات الحركات الصوتية وتوافقها مع طبيعة الشيء المراد تعريفه .

٤ — إن نظرية السلالات نشأت عن فكرة الاستقلال بالموقع وبالإناث والأفراد . فهي إذن فكرة « اقتصادية » أملتها ضرورة المحافظة على ما يوفره الموقع من غذاء يهدده الاكتظاظ السكاني بالنقص أو الانقراض لتعذر زيادة الغذاء المتاح « الإنتاج » بحيث يغطي عشوائية « الاستهلاك » .

٥ — إن الرغبة في المحافظة على السلطان والسلطة هي التي أوحت بفكرة تحديد نوعية المدافعين عنهما لحصر السلطة في مجموعة بذاتها وبذلك نشأت بنية القبلية وطبيعة الروابط التي تحكمها ثم الصورة الأولى للأسرية .

٦ — إن شرعة الأقوى التي خلقت الزعامة خلقت بدورها امتيازات القوي ومن ثم الإقطاع الذي ساعد على تفرد الأقوى بكل المزايا وتسلطه على الأضعف وتسخيره في خدمة « مصالحه » ودعم سلطانه وتحويل الضعيف إلى مجرد أداة مسخرة « قن » .

٧ — إن طبيعة الأطماع والتطلع إلى الزعامة بين أبناء الأسرة الواحدة في القبيلة الأولى أدى إلى استقلال بعضهم عن بعض مع بقاء الروابط الأصيلة بينهم وبذلك نشأت العشائر والأفخاذ في المفاهيم القبلية كما نشأ مفهوم القتال المنظم والغزو والحروب .

هذه هي خلاصة ما وصل إلينا من دراسات حول الإنسان وتطوره أوردتها بإيجاز شديد لتكون نقطة الانطلاق . وقد أغفلت ذكر حال الإنسان منذ العصر الجليدي الأول وحتى عصرنا الذري وما حقق من إنجازات كانت نقاط التحول في حياته وحضارته لأننا عرفناها جميعاً خلال دراستنا المنهجية .

إلا أن أولئك المتخصصين لم يقدموا لنا تفسيراً مقبولاً لاختلاف أسماء الأشياء بين تطور وآخر أو سبباً وجيهاً مقنعاً لاختلاف مفهوم الحركات الصوتية ونغماتها بين بيئة وأخرى بحيث أصبح للشيء الواحد مائة تعريف وتعريف في مائة لغة ولغة مع أن الحركات الصوتية تقتصر على عدد محدود في اللغات كلها لا يتجاوز الفتح والكسر والضم ومشتقاتها القليلة

من الأصوات المتقاربة ، في حين أن اسم شيء بعينه يختلف اختلافاً بيّناً من رقعة إلى أخرى على هذه الأرض . فالدقيق المعجون المشوي يسمى خبزاً عند الناطقين باللغة العربية ولا يختلف كثيراً في اللغات المشتقة من السامية ، لكنه يصبح « بان » بالفرنسية وقريباً من ذلك في مشتقات اللاتينية و« بروت » وما هو قريب منها في السكسونية ــ الجرمانية .. و« نان » في الكردية وما هو قريب منها في المستشقات الميديه والآرية و« أكمك » في التركية ومشتقات المغولية وهكذا .

والجناس في لغات الأرض بجرسه المتقارب ومعانيه المختلفة ، والمرادفات بجرسها المختلف ومعانيها المتقاربة ظاهرتان محيرتان بين العديد من الظواهر المتعلقة بالإنسان . فهل هي في اللغة الواحدة دليل على انصهار رطانات ولكنات متقاربة في لغة واحدة بعد أن انصهرت الشعوب المتكلمة بها في مجموعة أرسخ قدماً وأكثر عدداً ، وأعني انصهار أقليات في أكثرية ؟ تلك مسألة تستحق التأمل .

ثم إن التوافق العجيب في تعريف الفضيلة والرذيلة عند الشعوب المختلفة النزعات والمشارب والمعتقدات أمر يدعو إلى التأمل العميق فقد تختلف المفاهيم بين بيئة وأخرى ، لكن الأسس الرئيسية ــ الأركان التي تقوم عليها البنية الكلية ــ تبقى ثابتة . فهل نسلك هذا التوافق في مفهوم الغرائز كما هو الحال عند الحيوان ؟

ولجوء الإنسان في الملمات والمواقف العصيبة إلى فرد من خارج ذاته على اختلاف ملل ذلك الإنسان ونحله وانتماءاته ، ظاهرة أخرى تستوقف الانتباه وتثير التساؤل .

صحيح أن تشابه الرغبات والنزعات عند الإنسان على اختلاف تفاصيلها ودوافعها أمر يمكن إرجاعه إلى وحدة المنشأ والنوع . لكن احتفاظ تلك النزعات والرغبات بنموذجيتها على مر العصور والدهور رغم التطور المذهل والتغير الجذري اللذين استجاب الإنسان لهما منذ وجوده وحتى يومنا ، أمر لا يجوز أن نغفله بعفوية ولا مبالاة . لقد استأنس الإنسان عدداً من الحيوانات المتوحشة حتى أن بعضها قد تخلى أو كاد عن غرائزه التي حكمت سلوكه وتصرفاته منذ الأزل ، فرأينا القط والكلب معاً والقط والفأر واليمامة ، بل والأسد وحمار الوحش في وئام وتفاهم . لكن هذا الحيوان المستأنس إذا ما عومل بقسوة ، تعود غرائزه إلى التيقظ فتظهر واضحة في سلوكه . فهل نعتبر الإنسان حيواناً مستأنساً كذلك ؟ وإذا كان الرد إيجابياً ، فلماذا تختلف الأسباب الموجبة المؤدية إلى ظهور تلك النزعات الغريزية والنزوات من إنسان إلى آخر بينما تتساوى عند الحيوان ؟

لماذا تكون طفولة الإنسان طويلة بحيث تستغرق ثلث متوسط حياته تقريباً بينما هي قصيرة جداً عند الحيوان لا تزيد على عامين في أطول طفولة .

لقد رد الباحثون على الجانب الأكبر من هذه التساؤلات . لكن تلك الردود فقدت كثيراً من مقوماتها منذ أن ظهر علم النفس الحيواني الذي انكب على دراسة « نفسية » الحيوان ليخرج بنتائج هزت مبدأ تفرد الإنسان بالنفس وليرسم خطوطاً لنفسية الحيوان تتشابه إلى حد بعيد مع منطلق الخطوط الأساسية الأولية عند الإنسان .

لقد بات معروفاً أن الحيوان يماثل الإنسان في كل أحاسيسه لكنه يفتقر إلى شيء ما موجود في تكوين الإنسان . وهذا الشيء هو الذي رفع الإنسان إلى المقام الذي يحتله بين المخلوقات في حين أن غيابه عند جماعة الحيوان أبقاها تراوح في مكانها وتتطور ببطء شديد .

فإذا علمنا أن التكوين الفيزيولوجي عند الحيوان لا يختلف في شيء عما هو عليه عند الإنسان حتى من حيث وجود المخ والمخيخ والنخاع الشوكي ، فإننا نستخلص حكماً أن السر كامن في طبيعة تكوين المادة وليس في المادة نفسها .

قد يحفظ الببغاء مائة كلمة يرددها والحفظ « ذاكرة » ، وقد يقلد القرد حركات الإنسان فيتقنها ويكررها إذا ما دعت الضرورة والتقليد « فهم » . وقد ينتحر الكلب جوعاً وفاءً لصاحبه أو حزناً عليه ، والعاطفة « شعور » . والعلماء يطلقون صفات المكر والذكاء على كثير من الحيوانات المتوحشة والمفترسة مع أن الذكاء فيما نعلم مركزه العقل . فهل نستخلص من هذا كله أن الحيوان سيصل ذات يوم إلى مرتبة الوعي والفهم الكاملين ، إذا ما استُمر في تثقيفه ؟

إن صح هذا الافتراس لصح لنا القول أن الحيوان مخلوق أُغفل تعليمه ، بينما اقتصر التعليم والتثقيف على الإنسان . فمن الذي فعل ذلك ؟

ثم إن الحيوان يحكمه « قانون » ، فلكل نوع أو فصيلة « قانون » طبيعي يخضع له كل أفراد ذلك النوع أو تلك الفصيلة . وكذلك الحال عند الإنسان مع الفارق . فالقانون عند الحيوان يُعزى إلى الغريزة والفطرة . فما هو الدافع إليه عند الإنسان ، أهو طبيعة وفطرة وغريزة أم نتيجة لفعل فاعل ؟

هذه وكثير غيرها تساؤلات ملحة تطرأ على خاطر كل إنسان يولي الملاحظة والتأمل جانباً من اهتمامه .

تعال معي نفعل ما فعله الباحثون ، نحرك خيالنا ليرجع بنا بضعة ملايين من السنين لنقف عند مجموعة من أسلافنا الأوائل علنا نخرج بمفهوم جديد . هاهي ذي مجموعة منهم . تعال نرقب تصرفات أفرادها ونتابع تطورات تصرفهم بعقلنا البسيط على هدى ما تجمع لدينا من استنتاجات .

ها نحن أمام مخلوقات أقرب الشبه بالغوريلا الذي نعرفه اليوم ، كثيفة الشعر متهدلة الذراعين تترنح في مشيتها وتتغذى بالحشائش والثمار ولحوم المخلوقات الأضعف منها والأقل بأساً . انظر إلى الرأس والجبهة الغائرة المسطحة والأنياب البارزة والأظافر النامية القاسية المدببة . إنها مخلوقات تجوع فتبحث عن الطعام وتعطش فترد الماء وتشعر بالحاجة الجنسية فتستولي على أول أنثى تقابلها لتطفىء رغبتها ثم تستلقي بكسل وتراخ ٍ وتتمرغ في التراب ، فإذا ما استثيرت قامت تصارع وتقاتل في معركة أبدية محورها البقاء . إنها تقاوم كثيراً من المخلوقات الأخرى منذ أن وجدت على هذه الأرض ، ما تشابه معها في الخلق وما اختلف ، تنتصر في معارك وتنهزم في أخرى فتفر هاربة أو تفقد الحياة ، تعرض أجسامها لذلك القرص المستدير المتوهج الذي يطلع عليها من مكان لا تعرفه ، وتحتمي منه إذا شعرت بما يكاد يشويها دون أن تعرف سبباً لعدوانية هذا القرص المتوهج . وفجأة تتلفت حولها بحثاً عنه فتراه قد رحل وخلف وراءه عتمة لا تدري لها مبعثاً فتنظر كالمشدوهة إلى تلك النقاط المضيئة التي تظهر فجأة في مكان ما استطاعت الوصول إليه رغم محاولاتها العديدة .

انظر إليها . إنها لا تجد سبباً تعقله لهذا الستار الكثيف الذي يحجب القرص المتوهج أحياناً وتلك النقاط المضيئة ولا تفهم معنى لهذه الخيوط السائلة التي تنهمر بغزارة فتبلل شعرها وتدفعها إلى الاختباء في أوكار وتجاويف مع كل من حولها .

وهذا الضوء المخيف الذي ينبعث من تلك الستارة الكثيفة وهذا الصوت المرعب الذي يجعلها تجري بأقصى طاقاتها مع كل من حولها خوفاً من عدو مجهول ، ما هذه الأشياء التي تقض مضاجعها ؟ إن الذعر والهلع اللذين يستبدان بها يرجعان في الدرجة الأولى إلى أنها لا ترى ذلك العدو الرهيب فلا تستطيع التصدي له . إنها عاجزة تماماً أمام تلك الظواهر التي لا تعرف منشأها . ولو كان هناك مخلوق من حولها هو الذي يحدثها لما فر كل من حولها مذعوراً ليأوي إلى المخابىء التي تقيه منها .

ها هي تكشر وتهمهم غاضبة حائرة وتتلفت حولها باحثة مستطلعة . يا لهول ما ترى . إن هذا العدو الرهيب لا يهاجمها وحدها . ها هي الطيور تهرع إلى أعشاشها ، والمخلوقات

الأخرى تهرع إلى مخابئ أعدتها من قبل. ياللغباء! كيف لم تفعل مثلها فتقيم لنفسها المخابئ التي تحميها هي الأخرى.

هل من سبيل تردُّ به غائلة هذا العدو المجهول؟ ثم ما هي مبررات سلوكه العدواني هذا؟ إنها لا تزاحمه في شيء ولا تنافسه في شيء. هو يأتي من هناك وهي تقيم هنا. لتبحث إذن عن ملاجئ أقامها من هم أضعف منها لتحتلها كلما اقتضى الأمر ثم لتفعل ما يفعله الآخرون فتقيم لنفسها المخابئ.

لكن الحياة مع مثل هذا العدو ليست سهلة ولا مأمونة. لقد عجز أسلافنا أولئك عن إخضاعه رغم محاولاتهم فلم يبق أمامهم من سبيل سوى استرضائه.

وبمرور الأحقاب، تعلم سلفنا التجانس مع الضوء والعتمة المتعاقبين ومع الغيوم والأمطار والرعد والبرق فنظم وجوده بحيث يمضي في طلب قوته عند ظهور القرص المتوهج ويعود إلى مخبئه عند ذهابه.

هذا هو سلفنا، فالصورة كما ترى لا تبعث على التفاخر، بل قد نشعر بالخجل إذا ما اضطررنا إلى الاعتراف بهذا السلف الذي ندين له بوجودنا. ليكن. لنعد إلى ما نحن عليه اليوم: مخلوقات راقية مثقفة، نحسن القراءة والكتابة، نكتشف ونخطط ونغزو الفضاء. هل أنت قانع بأننا بتنا أفضل حالاً من سلفنا ذاك؟ سأترك لك الأمر لترد في سرّك.

إن ما يعنينا من هذه الصورة التي تخيلتها هو أن نهتدي إلى الحاجة التي دفعت سلفنا ذاك إلى الإقرار بوجود «قانون» لا مناص من الخضوع له. قانون يتحكم في حركته ودأبه وسعيه ثم يتطور به إلى درجة يحدد بها ما يجوز له أن يفعله وما عليه أن يتوقف دونه، وكيف ربط هذا القانون بنتائج هي العقاب والثواب.

إن فكر ذلك السلف الذي كنا نرقبه منذ حين كان بسيطاً لا يدرك غير المحسوس من الأشياء لذا فقد وجد أن كل ظاهرة طبيعية تشكل حالة مستقلة لا ترتبط بظاهرة أخرى. فالسحاب شيء والبرق شيء والرعد شيء وكذلك الضياء والظلام والثلج والمطر والريح.

ولا ريب أنه طرح على نفسه سؤالاً مُلحّاً: إذا لم أكن أنا فاعل هذه الظواهر ولم يكن أي من حولي قادراً على فعلها لأننا نتشابه في مواقفنا حيالها فمن هو الفاعل؟ إنه مصدر مجهول قوي لا قِبَل لنا بصدِّه وهزيمته، إنه أقوى منا جميعاً.

لكننا لا نعرف كيف نبتت في ذهنه فكرة الآلهة . لا شك أنها كانت الرد الوحيد الذي أجاب به على سؤاله ، ولو كانت فكرة « الآلهة » التي تفعل ما نعجز عن فعله فكرة بدائية ناتجة عن فكر بدائي متخلف ، فما الذي دفع مئات الملايين من البشر إلى سلوك هذا السبيل المتخلف رغم رقيهم وحضارتهم وبلوغهم هذا الشأو من العلم والمعرفة ؟ أترانا لا نزال متخلفين فكرياً رغم التطور والتقدم « الهائلين » اللذين ينطق بهما كل شيء في بيئاتنا المعاصرة ؟

أيكون الملحدون الذين ينكرون وجود إله أو آلهة هم الأكثر فهماً وتطوراً من عامة البشر ؟ هل سينتهي المطاف بنا ، نحن « المتخلفين » إلى بلوغ هذا المستوى « الرفيع » من الفهم والتفكير أم أن هناك شيئاً آخر كامناً علينا أن نكشف الغطاء عنه ونعلنه ؟

تلك هي المشكلة . وهي مشكلة عويصة كما ترى لا يمكن تحليلها والوصول إلى نتائج مقبولة عنها إلا إذا ناقشناها باستفاضة وتعقل .

هذا الخالق

هناك إذن من فعل ما ليس في طوقنا أن نفعله . وهذا الفاعل لم يره أحد لكننا عرفناه بأفعاله . ولابد أن نتقبل فكرة وجوده سواء استطعنا أن نحدد كنهه أو بقينا عاجزين عن ذلك التحديد . إنه فاعل اصطلحنا على أن نطلق عليه اسم الله ، فهل تفضل أن تدعوه باسم آخر ؟ افعل إن شئت ولن أختلف معك على الاسم بل سأعتبر ما تطلقه عليه مرادفاً لما أطلقه أو ترجمة له بلغة أخرى . حسبي أن نتفق على وجوده كمادة فاعلة تنفعل بها كل المواد الأخرى دون أن تستطيع أي منها أن تفعل فيها .

وإذا اتفقنا على هذا المنطق ، فيبرز سؤال هام بل غاية في الأهمية هو : لماذا خلق هذا الخالق هذا الوجود ؟ ما هي الغاية من كل ذلك ؟ لِمَ هذا العناء كله ؟

سؤال وجيه وإن كان طرحه قبل خمسين عاماً كفيلاً بتعريض صاحبه لكثير من المتاعب واللعنات ولو شئنا اختصار البحث في هذا الموضوع لاكتفينا بالقول : لا ندري . لقد فعل ذلك لحكمة لا يعرفها سواه ! تلك كانت الإجابة التقليدية التي كان يتلقاها كل سائل . وهي إجابة وجيهة ولا شك . فلكي أعرف الغاية من تصرفات إنسان لابد من دراسة عقليته وتفهمها . وهذه الدراسة هي التي تسمح باستخلاص نتيجة معينة قد لا تكون على نصيب وافر من الصحة ، لكنها نتيجة مبنية على معطيات أولية يستخلصها الدارس من عقلية ذلك الإنسان . هذا عن سؤال يتعلق بنا معشر البشر ونحن مجرد مخلوقات نتساوى في كل شيء إلا في درجات الإدراك وحصيلة التجارب . فماذا يكون عليه الحال إذا كان الأمر متعلقاً بجانبين غير متجانسين ولا متساويين في شيء؟ هل يمكن الاستنتاج في مثل هذه الحالة وهل يكون الاستنتاج صحيحاً ؟

لكن هذه النتيجة البديهية لن تقعدنا عن البحث . تعال نتخيل واقعاً مماثلاً يخصنا نحن معشر البشر مع الاحتفاظ بالفارق الكبير بين الواقعين .

هبْ أنك تملك مائة ألف هكتار من الأرض الزراعية لا يشاركك أحد في ملكيتها ، لا تريد أن تبيعها لأن من سيشتريها سيكون في وضع مماثل أي مجرد مالك للأرض . فماذا ستفعل بأرضك تلك ؟

لنستبعد أن تكون إنساناً مهملاً مستهتراً تهمل استغلالها لأنك تكتفي بما لديك . هل تجد سبيلاً غير استغلالها ؟

وإذا كنت تتمتع بعقلية عدالية بعيدة عن استغلال طاقات العاملين في أرضك لتزداد ثراء وتود أن تقيم في أرضك تلك نظاماً يفيد منه العاملون فيها وحدهم لأنك في غاية الثراء وسعتك لا تحتاج إلى شيء من عائداتها ، فماذا تفعل ؟

لا شك أنك ستستقدم أناساً بحاجة إلى العمل تجمعهم فيها وتقول لهم : اسمعوا ، أنا رجل ذو سعة لا أريد منكم شيئاً وهذه الأرض ملكي لن يزاحمكم فيها أحد ، سأضعها تحت تصرفكم لتجعلوها إلى جنة تعيشون فيها وتنعمون بعائداتها . كل ما أريده منكم هو أن تكونوا متفاهمين فيما بينكم ، رحماء متعاونين ، وأن تعملوا لخير أنفسكم . وأنا على استعداد لإمدادكم بكل ما تحتاجونه من معدات وأدوات فاعملوا وسأعود بنهاية الموسم الزراعي لأكافئ من يعمل منكم بإخلاص مكافأة تتفق وإنجازاته وسلوكه .

لا ريب أن مثل هؤلاء سيسعدون بوجود إنسان على مثل هذه الأخلاقية السامية وسيبذلون أقصى طاقاتهم ليكونوا عند حسن ظنه بهم .

ولكن ، لنفرض أن هؤلاء العاملين تصرفوا بعكس ما أشرت به عليهم . لم يكتفوا بأن تجاهلوا وجودك وفضلك عليهم بل راحوا يتصارعون فيما بينهم ، كلٌّ يسعى إلى اغتصاب حق الآخر ، وإن عدداً منهم قد تضافر ليستغل طاقة الآخرين ويحرمهم من حقوقهم ... بل إنهم زعموا كذلك أن الأرض أرضهم وأنك لم تكن قط مالكها ولم تعطهم شيئاً وأن على الضعفاء منهم أن يقصروا جهودهم على خدمتهم وإرضاء نزواتهم وأطماعهم ، فماذا تفعل في مثل هذه الحالة ؟

لا ريب أنك ستطردهم شر طردة وتنزل بهم العقاب الذي يستحقونه جزاءً وفاقاً على استهتارهم ونكرانهم الفرصة الذهبية التي أتحتها لهم فأساءوا استغلالها . ولكن لنفرض جدلاً أن لديك مساحات أخرى من الأراضي يتطلب العمل فيها خبرة معينة ودراية تكتسب بالممارسة والتجربة ، فماذا ستفعل في مثل هذا الموقف ؟

لا شك أنك ستجعل قطعة الأرض هذه حقلاً للتجارب تراقب ما يصنعه كل فرد من الذين أسكنتهم فيها لتختار أفضلهم فتنقله إلى جهة أخرى بات مؤهلاً للعمل فيها . أما الفاشلون التافهون فستعتبرهم مجرد طغمة تبقى حيث لا يتقدم أحد منهم خطوة إلى أمام إلا إذا أحسن مسعاه ونأى عن سوء تصرفه وأخطائه وستتوقف عن إمدادهم بما كنت تغدقه عليهم من معدات ومقومات ليعودوا إلى أسوأ مما كانوا عليه من قبل .

كذلك يفعل المسؤولون عن نظام المركبات الفضائية في عصرنا هذا . إنهم يختارون أولاً أفضل الطيارين لكنهم لا يكتفون بذلك بل يُخضعونهم لبرامج تأهيلية فلا يضعون أقدامهم في المركبة الفضائية إلا إذا أثبتوا جدارتهم واستيعابهم الكامل لما نُدبوا له من مهام .

هذا مجرد استنتاج يحتمل الصواب والخطأ لكنه يعطي صورة تقريبية قد تصلح لتجيب على السؤال المطروح حول الغاية من الخلق . فالخالق الذي لا ندرك كنهه يملك هذا العالم وألوف الملايين من العوالم الأخرى التي نراها بأعيننا ولا نستطيع استطلاع ما فيها . ونحن لا نملك أسباباً تمكننا من معرفة الغاية من خلقه كل هذه العوالم وطبيعة الذين يعمرونها . لكننا نعرف بالتجربة أنه لم يُلزمنا بشيء مقابل وجودنا على أرض يملكها .

أقول يملكها لأنني لم أسمع كما لم أقرأ في أي مرجع عن جهة ادعت ملكية هذه الأرض . فالقوميات والشعوب تزعم أنها تملك الرقعة التي تقيم عليها . وهذا الزعم سياج تحتمي وراءه كل أمة أو قومية أو شعب لتحافظ على بيئتها ووجودها . لكنه ليس صحيحاً من الناحية العملية . فالأرض كانت قبل أن نكون ولقد جئنا إليها ولم نأتِ بها معنا ، فهي إذن لمالكها الذي أوجدها .

ثم إن ذلك المالك لم يطالبنا بشيء مقابل وجودنا فيها ولو كان وجودنا هذا لمجرد الوجود ، لانتفت الغائية . نولد وننمو ونموت فننتهي ثم يأتي آخرون يتبعون هذا النمط وينتهون ليأتي غيرهم وهكذا إلى ما لا نهاية . لو كان الأمر كذلك لكان مفتقراً للغائية الموجبة ، إذ ما حاجة النظام والتنظيم والتطور والتقدم إذا كان كل شيء سينتهي بموتنا ؟

لابد من وجود غاية تستحق هذا العناء لذا أعتقد أننا هنا في دورة تأهيلية وسوف يُختار أفضلنا لشغل مواقع في مجالات أخرى تتطلب وجودهم فيها . وأنا أعتمد في هذه النتيجة على عبارة وردت على لسان الخالق في كتابه : ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ ٧٢ الإسراء . فماذا يدعوه إلى هذا القول إذا كانت غاية وجودنا ولادة فشباب فكهولة فموت ؟ ماذا يعني أن الأعمى هنا سيكون أشد عمى هناك أو مجرد

أعمى وأضل سبيلا طالما كان يستوي في البداية والنهاية مع المتبصرين الواعين ؟ وإذا كانت الغاية مجرد ولادة فموت ، فأي سبب يدعو إلى التمييز بين هذا وذاك من الذين سلكوا هذا الطريق . لاريب أننا هنا في معهد تأهيل .

لكن معاهد التأهيل مزودة بأساتذة يدرِّسون التلاميذ المناهج المقررة التي تتفق وطبيعة الدراسة فيها . فما هو البرنامج المقرر هنا ؟ ومن هم الأساتذة المدرسون ؟

لقد سبق لنا القول : إن طبيعة الخالق مادية تفعل في كل مادة سواها . والإنسان الذي يتعرض لأشعة « جاما » رغم أنها مجرد أشعة تخترق الجسد ، يموت لأنها تدمر كل تكوين فيه ، أي أنها تفعل في تماسك مادته فتتحلّل . والخالق الذي يفعل في أشعة « جاما » ولا ينفعل بها ، لابد أن يكون تأثيره على الإنسان أشد قوة وأعمق أثراً . لذلك لا يمكن أن يتخذ دور الأستاذ المباشر على الأرض . فالجامعات ومعاهد التأهيل عندنا تطبق البرامج التي وضعتها جهة عليا وفق خطوط معينة يقوم الأساتذة بنقلها إلى الطلبة .

فالخالق إذن هو الذي يقرر البرامج . ولما كان اتصاله المباشر بالإنسان غير ممكن لاستحالة تحمل مادة الإنسان أثر الانفعال بمادته ، فلا بد والحالة هذه من وسيط يحمل تلك البرامج المقررة ليلقنها الأساتذة للدارسين . وإذا كان الوسيط من مادة منفعلة هو الآخر فإن اتصاله المباشر بواضع البرامج أمر مستحيل . والحل الوحيد هو أن يكون ذلك الوسيط مكوّناً من مادة مختلفة أكثر احتمالاً من مادتنا لكنها لا ترقى بشكل إلى مستوى مادة الخالق .

هؤلاء الوسطاء هم الملائكة الذين عرّفنا الدين بهم بأنهم أجسام نورانية . وهذا يبرر وجود هذه الحلقة الوسيطة من المخلوقات التي تختلف مادتهم عن مادتنا . وقد يحلو لك أن تنفي هذا الاتصال بين الخالق والمخلوق عن طريق الوسيط وترجح مبدأ الإلهام كما هو الحال عند الشعراء . لكن أمامنا ما يؤكد صحة ما ذهبت إليه . ففي كتابنا الكريم ما يكفي من آيات تدعم صحة وجود هؤلاء المخلوقات ودورهم في حياة الإنسان . ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرّطون﴾ **٦١ الأنعام** و﴿إن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون﴾ **١٠ ، ١٢ الانفطار** و﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ **٤ الطارق** .

نستخلص مما سبق أن هناك مادتين مختلفتين لمخلوقات موجودة ، كلتاهما أضعفت من مادة الخالق لكن إحداهما أكثر قوة واحتمالاً من الأخرى وبذلك نصل إلى النتيجة التالية :

آ ــ الخالق العظيم وهو من مادة جوهرية فاعلة غير منفعلة .

ب ــ الملائكة : وهم من مادة تنفعل بمادة الخالق انفعالاً لا يدمرها وتفعل في مادة الإنسان .

جـ ــ الإنسان : وهو مصنوع من مادة ضعيفة تتأثر بمادة الملائكة تأثراً محتملاً ولا تستطيع التفاعل مع مادة الخالق وإلا فنيت .

ها نحن قد وجدنا الوسيط الذي يحمل المنهاج إلى المدرسين ، فلم يبق أمامنا إلا إيجاد الأساتذة الذين تتوفر فيهم الشروط الملائمة للقيام بهذه المهمة العظيمة .

وكما أن الأساتذة في جامعاتنا ومدارسنا يُختارون من حملة المؤهلات وذوي الخُلُق ليكونوا قدوة للدارسين ، كذلك نرى أن الخالق لم يغفل هذه الناحية الهامة في شخصية المدرس الذي يختاره . ولما كان المنهاج المقرر لا يحوي علوماً معقدة ومعادلات هندسية أو تطبيقات كيميائية وفيزيائية ، بل مجرد خطوط أخلاقية وضعت لضمان سلام المجتمع وحسن تكوينه ، فإن المؤهل المطلوب هو التفوق الأخلاقي لدى المدرس ليكون قدوة للدارسين .

ومن هنا قامت فكرة الأنبياء والرسل . إنهم صفوة من الناس امتازوا بأخلاقياتهم وإيمانهم بالمنهج الذي يدرّسونه وانصهارهم في معطياته بحيث يصبحون تجسيداً حياً لما ينشرون . ونحن في عالمنا الحاضر ما زلنا نُكنُّ للأستاذ احتراماً عميقاً أعربنا عنه بأقوال مأثورة كقولنا : « من علمني حرفاً كنت له عبداً » وقول الشاعر :

قم للمعلم وفّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

أرأيت أشرف أو أجلَّ من الذي ... يبني وينشئ أنفساً وعقولا

وانطلاقاً من هذا المفهوم الأخلاقي الذي يوجب احترام المدرس ، لا نستطيع اعتباره معصوماً عن الخطأ لا يقع في مآخذ كسائر البشر بل أقل انحرافاً ممن هم دونه مكانة خصوصاً وأنه المؤمن الأول بما يبشر به ويدرسه ، لذا فإنه يعمل جاهداً ليكون على مستوى المهمة المنوطة به .

هذه هي حالنا في معهد التأهيل الذي ننتسب إليه . هناك مقرر برامج فوسيط يحملها فمدرّس يلقننا ما حُمل إليه .

وواضع البرامج في هذا التشبيه هو الخالق العظيم جلّ شأنه ، والوسيط هو الوحي . أما المدرس فهو الرسول أو النبي .

هذه في تقديري أقرب صورة إلى الواقع يمكن أن يقدمها إنسان محدود الطاقات والفكر مثلي. ولقد تكونت هذه الصورة في ذهني بفعل استعراض شامل لواقع الإنسان. وتطور الفكر البشري ابتداءً من مرحلة الإدراك الحيواني وحتى المستوى الذي بلغه اليوم، يرجع الفضل فيه إلى ما استخلصه الإنسان من تجارب جنسه عبر ملايين السنين. ولو كان الإنسان مخلوقاً مزوداً بمثل ما زُوِّد به الحيوان لما اختلف كثيراً عن بدائيته، لكنه مزود بحاسب آلي يختزن المعلومات ويعطي جواباً لكل سؤال في حدود المعلومات المبرمجة في جهازه. وليس الفارق بين مستويات الإنسان حجم ذلك الجهاز والحيز الذي يشغله بل كمية المعلومات المدخرة فيه.

ولقد حاول الإنسان أن يصنع نسخة من ذلك الجهاز ووُفِّق أخيراً في صنعه. لكنه عجز عن محاكاة الجهاز الذي لديه سواء من حيث الحجم أو الدقة وسيظل عاجزاً عن ذلك لسبب بسيط هو أن الإنسان يصنع تلك الأجهزة من المواد المتيسرة في عالمه بينما الجهاز المودع فيه يقوم على آلية سرها محفوظ بكل عناية وصون لدى الصانع الأعظم، لن تستطيع وسائل الاستطلاع البشرية الوصول إلى مكمنه.

ولو تأملنا ذلك الإنسان الذي اكتشف الدائرة فصنع العجلة وظن أنه حقق معجزة، ثم خلفه ذلك الذي ابتكر الضوء الذي لا تطفئه الرياح ولا المطر وانتقلنا إلى ما نراه اليوم من صور تنقل عبر الأثير بأصوات أصحابها وأشكالهم فتلتقطها أجهزة لا تكاد تفوق حجم الكف، إذن لراعنا ما توصلنا إليه بفضل الجهاز المعجزة المودع فينا.

ولقد تحضر الإنسان واستجاب لحاجته إلى النظام فوضع القوانين وعدلها ومازال يلغي بعضها ويعدل البعض الآخر حتى أننا لو أردنا جمع القوانين التي صدرت عن الإنسان خلال قرن من الزمن لملأنا المكتبات ولاقتضانا حفظها مئات السنين.

ثم إنه وجد نفسه مضطراً إلى دعم قوانينه تلك بأجهزة خاصة تراقب تطبيقها وتنفيذها لمعاقبة الخارجين عليها. لكنه رغم ذلك عجز عن إخضاع الناس كلهم لنظامه وقوانينه. فهناك دائماً ثغرات يستطيع المتلاعبون أن ينفذوا منها وأن يهزأوا بالقانون والنظام. ومن هنا نستنتج أن الإنسان الذي وضع القوانين ثم دعمها بسلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية إنما فعل ذلك ليضمن سيادة النظام الذي أحسَّ بحاجته إليه كواحد من أهم مقومات حياته.

وإذا كان الإنسان قد شعر بهذه الحاجة المُلِحَّة فعمل جاهداً على توفيرها ، فما بال الذي صنع الإنسان ؟ هل يتركه لوجود عشوائي ؟

وإذا قلنا : إن الإنسان صنع نظامه ورتب وجوده ، أليس من المنطق والعدل أن نسأل ، من أين استوحى ذلك ؟ فلو قال : إنها تجربة ملايين السنين قلنا فما بال الحيوان وهو قائم على هذه الأرض قبل الإنسان بملايين السنين ؟

ولو قيل أنها الإدراك والعقل قلنا : ومن أين أتى الإنسان بهما ولِمَ لمْ يأتِ الحيوان بمثلهما ؟

فالإنسان في كلّ مخترعاته إنما صنع صوراً عن ذاته أو نقلها عن موجودات قائمة حوله ، فآلة التصوير والآلات الموسيقية الوترية والنحاسية والرادار واللاسلكي والمحركات والتفاعل والحركة والطيران والملاحة البحرية إلى آخر المخترعات كلها نقل عن أصل مع الفارق الهائل بين المنقول والمنقول عنه ، فجهاز « الفيديو » عند الإنسان لا يعدو حجمه بضعة ميليمترات مكعبة وكذلك الرادار والمحرك وأجهزة التحليل والتفاعل والتنقية والصيانة والدفاع والتجديد والتموين والاحتراق كلها آية في الدقة والإعجاز مودعة في حيز لا يكاد يبلغ المتر المربع . حتى وسائل التدمير التي نقلها الإنسان عن ذاته .

هل تساءلت يوماً كيف تعيش ؟ ألم تلاحظ أنك تنقل بيدك مادة إلى فمك ــ طاقة وتحكم ــ فتمضغها بأسنانك وهي جهاز بسيط ذو حركة شبه رحوية متصل بمصدر يفرز سائلاً ذا تكوين خاص يساعد على المضغ ، ثم تبتلع ما مضغت فينزلق عبر قناة المري إلى بوابة المعدة العليا التي تستقبل ولا تسمح للداخل بالخروج إلا في حالات استثنائية . ويستقر الطعام في المعدة التي تقوم بحركة دائبة بين تقلص وتمدد وإفراز أحماض وعصارات بالقدر المناسب ثم تدفع إنتاجها عبر فتحة سفلى تسمح بالخروج ولا تسمح بالعودة ، فينتقل إلى أنابيب دقيقة تقوم بدور مذهل من خلال شعيرات غاية في الدقة ثم تدفع بالنفايات إلى أنبوبة متصلة تعيد النظر فيما تم إنجازه في الأولى وتستخلص آخر ذرة من المقومات النافعة في ذلك الخليط لترسلها إلى حيث يجب أن تختزن في أماكن محدودة السعة والاحتواء فلا طفح ولا انفجار ولا إهمال ولا تساهل ولا تقاعس ، ثم تطرح الباقي ليستفيد منه سواك من المخلوقات التي تكمل دورة الوجود .

أجهزة بالغة الدقة والتعقيد تحكمها غرفة عمليات غريبة عجيبة التكوين تتصل بالعاملين في خدمة جسدك كافة بملايين الخطوط السلكية الثابتة وتصدر ملايين الأوامر

والإرشادات في آن واحد. هنا جيوش تتقدم لمحاربة عدو جاء يخرب أو يدمر أو يحتل، تملك كل ما في كلمتي الإسناد والتموين من معنى وما يلزم لتعويض الفاقد، وهناك عمال مهرة يرممون ما أحدثه العدوان من آثار، كلٌ يعمل في دائرة اختصاصه وفق تعليمات محددة. وهذه الحركة الدائبة ترتبط بمركز طاقة رئيسي يمد العاملين جميعاً بكل ما يلزم من جهد فإذا عجز إنتاجه عن الوفاء بالحاجة صدرت الأوامر إلى القائمين على تنظيم المخازن فتنطلق ملايين العربات تنقل الإمدادات اللازمة. ألوف الملايين من الأجهزة الدقيقة العاملة تقوم بمهامها ليل نهار بهمة ونشاط دون كلل أو ملل دون أن تتوقع منك عرفاناً بفضلها.

هل لاحظت هذا؟ لننتقل الآن إلى مصنع من ابتكار الإنسان، ينتج مادة واحدة لا أكثر. ماذا نرى؟ مساحة هائلة وآلات ضخمة، صخباً وضجيجاً، رقابة وإشرافاً، بدءاً من دخول المادة الخام وحتى خروجها مصنّعة لتودع في المخازن. أليس عجيباً أن نجد أننا نحتاج إلى مساحة لا تقل عن حيز مدينة كبرى لنقيم فيها كل المصانع المماثلة لما تقوم به أجهزة جسدك في حين أن الصانع الماهر استطاع أن يقيمها كلها في حيز لا يصل إلى متر مربع واحد؟

نحن ننقل في عالمنا كل شيء عن ذاتنا. لكن طريقتنا ستظل سمجة وبدائية رغم أنها منظمة تعمل فيها يد التطوير بشكل دائب. ترى من أين جئنا بفكرة الإبداع هذه؟ لمَ لم يأت الحيوان بمثلها؟

والسؤال المطروح الآن هو هل جئنا بهذا النظام دفعة واحدة أم جئنا به على مراحل؟ الجواب البديهي يقول: بل على مراحل لأننا لو جئنا به دفعة واحدة لانتفى عامل تطور الفكر ومراحل نضوجه.

والسؤال الثاني يقول: هل استطاع الإنسان تطبيق نظام واحد منذ وجوده، نظام ثابت لم يتغير؟ الجواب المنطقي يقول: إنه ابتكر كثيراً من النظم بما رآه متفقاً وواقعه واحتياجاته.

هذان الجوابان يؤكدان أن الإنسان ما كان عليماً باحتياجاته بل أدركها على مراحل وفق نمو المدارك فيه. تُرى لمَ اضطر إلى ذلك؟ الجواب لأنه كان يجهل ذاته واحتياجاتها فكان يتبنى النظام الذي يتفق والحاجة التي تتمخض عن وجوده، وهذا أمر طبيعي. فالإنسان لم يصنع ذاته بل طورها بمداركه ولو كان هو صانع ذاته لصنع معها كل احتياجاتها وإلا لكان صانعاً فاشلاً.

فما قولك بمن صنع هذا الإنسان ؟ أليس ملماً بكل دقائق صنعه ومايفيده في كل مرحلة من مراحل وجوده ؟ المنطق السليم يقول : إذا صنع هذا الصانع نظاماً لما صنع فليس بالإمكان أن يُنتج في أي مكان نظاماً أكثر دقة ومطابقة لما صنع من النظام الذي صنعه بنفسه .

لقد وضع الإنسان نظام حكم الفرد القائم على الحق الإلهي بالتفرد بالتشريع وكان هذا في حقبة ظن فيها أنه بلغ قمة التطور . لكنه مالبث أن أشرك الآخرين في التشريع . وهو مايزال يتخبط بحثاً عن العدل والإنصاف والمساواة بين نظام الديمقراطية المحصور في دائرة حكم الأكثرية والنظام الهرمي الذي تستند فيه قلة قليلة بمصير الأكثرية الكاثرة . وسبب هذا التخبط هو أن واضع النظام هو الإنسان أي أن بنيتين متساويتين في القدرات التكوينية تعمل إحداهما على التحكم في الثانية وتوجيهها . وهذا الأسلوب يثير مااصطلحنا على تسميته بالأنانية لدى الفريقين ، الحاكم والمحكوم على حد سواء .

ولكن ، لو جاء النظام من جانب الخالق الذي صنع الإنسان وأحاط بكل دقائق تكوينه وتطلعاته ورغباته ، أكان يحابي إنساناً على حساب إنسان آخر ؟

أتوقع أن يهبَّ أحدهم قائلاً : لكن النظام المزعوم الذي تتحدث عنه لم يُرض الإنسان ، كل الإنسان ، وإلا لتبناه على إطلاق الكلمة ولما رأينا جماعات تتبع كل منها نظاماً صادراً عن الخالق يختلف عن النظام الذي تتبعه جماعة أخرى .

وقد يكون هذا الاعتراض وجيهاً للوهلة الأولى . لكننا لو تروينا قليلاً لما فكر أحد في تبنيه . إن النظم التي وضعها ذلك الخالق العظيم تقوم كلها على قاعدة أخلاقية ثابتة الأسس لم تتغير . لكنها تضمنت إلى جانب تلك الأسس الرئيسية بعض الأحكام التي تطورت من نظام إلى آخر دون أن تمس القواعد الأساسية . وهذا التغيير في بعض تلك الأحكام سببه الطريقة التي طبق بها الإنسان النظام المعدّل من جهة والتطور الذي طرأ على مدارك الإنسان نفسه وعلى مفاهيمه .

خذ على سبيل المثال حكاية الخمر . لقد أباح النظام المسيحي قليلاً منه وأشاد بفائدة هذا القليل . لكن الإنسان استطابه فألِفه حتى بات يعب منه عباً فإذا قيل له أنه يُفرط في الشراب قال : هذا هو القليل الذي لاأتجاوزه . فلما جاء النظام الأخير عني بالحد من هذه الظاهرة .

والزواج والعلاقة بين الجنسين . لقد أثبت الواقع الحياتي أن التعديل الذي أدخل على النظام الثاني في النظام الأخير هو الأصلح إذ لا يمكن أن يتعايش اثنان ما عادت تجمع بينهما المفاهيم المشتركة . وإباحة الطلاق في العالم «المتحضر» دليل حسّي على رجاحة تقدير واضع النظام .

إن تهذيب النفس البشرية ليس بالأمر السهل . فأنت تذهب إلى المدرسة منذ نعومة أظفارك وتمكث فيها ما يساوي ثلث متوسط عمرك ثم تخرج بعدها إلى خضم الحياة فتشعر بأنك مازلت بحاجة إلى التعلم . والعلم تهذيب للجهل .

ولزيادة الإيضاح أدعوك لزيارة دار حضانة في بلدك لتراقب بنفسك مجموعة من الأطفال جاءوا ليجتمعوا في دائرة انضباط معينة . راقب تصرفاتهم والتباين الواضح في سلوكهم ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة ابتدائية فثانوية فجامعة . ستُقر بأن التدرج واجب وأن المبادىء الأساسية هي التي تظل ثابتة خلال المراحل كلها . أما ما يتبدل فيها فيقتصر على المفاهيم التكميلية .

أعتقد أنني وفقت في إعطاء صورة ملموسة إلى حد ما عن الخالق وعلاقته بالمخلوق . فلننتقل الآن إلى ما أطلقنا عليه اسم الوسيط .

الوسيط والمدرّس

قلنا إن اتصال المخلوق بالخالق مباشرة ضرب من المستحيل، وإنه لابد من وجود وسيط ينقل تعليماته، صُنع من مادة يمكن لمادة الإنسان أن تتفاعل معها دون أن ينجم عن ذلك التفاعل رد فعل مدمر.

وأطلقنا على هذا الوسيط اسم الوحي وهي كلمة شاع استعمالها بيننا حتى فقدت مدلولها الرئيسي. فأنت تنفرد في مكتبك وتسند رأسك إلى راحتك وتغمض عينيك أو ترفعهما إلى أعلى وتسكن فترة ثم تمد يدك إلى القلم لتخط به عبارة أو أكثر ثم تعود إلى ما كنت عليه مجدداً. فإذا سئلت عن سبب حركاتك تلك قلت: إنني أفكر أو إنني كنت أستوحي. فإذا أخفقت في إيجاد ما تريد قلت متبرماً: لقد خانني الإلهام أو الوحي.

هلّا حددت الجهة التي تذهب إليها كلما سكنت حركتك على النحو الذي سبق وصفه؟ إن جسمك موجود بكل أبعاده على المقعد، أما أنت ففي مكان آخر. أين؟ هل تعلم؟ أنت لم تغادر مكانك بالمفهوم الحسّي لكنك غادرته فعلاً بعيداً إلى حيث تدري أو لا تدري. وعندما تأخذ القلم لتكتب العبارة التي وجدتها تكون قد وصلت إليك كومضة شعاع في عتمة مدلهمة، ومضة خاطفة تعطيك عناصر موضوع يستغرق إعداده منك وقتاً غير قصير.

لقد عرفت أشخاصاً يكلمون أنفسهم عندما يستوحون عناصر ما يكتبون وكأنهم في حضرة جليس يخاطبونه مباشرة أو عبر بوق مسرّة. يقول بعضهم: إن هذه «العملية» هي دخول الإنسان إلى «سرداب» المحفوظات في «دائرة المعلومات» الموجودة في مكان ما من ذاته يقلب فيها السجلات والمصنفات بحثاً عن شيء بعينه حتى يجده، أي أنها عملية غوص في الذاكرة.

لكن هنا التفسير تنقصه الدقة. فأنت، عندما تذهب إلى دائرة رسمية تطلب صورة عن وثيقة ما، تقدم للموظف في تلك الدائرة فكرة معينة عما تطلب. صحيح أن ذلك

يقتضيك وقتاً طويلاً : الانتقال إلى الدائرة المختصة ، تقديم طلب استخراج الصورة ، انتظار الموظف الذي يبدأ في البحث في هذا أو ذاك من السجلات وقد يستمهلك يوماً أو أكثر ليهيىء لك المطلوب خلافاً لما يحدث بالنسبة للموظفين المقيمين في دائرة المعلومات الخاصة بك ـــ الذاكرة ـــ الذين ما إن تصدر إليهم الأمر حتى يعطوك النتيجة سواء بشكل فوري أو خلال دقائق قليلة إذا كانت المعلومة قد مضى على حفظها وتخزينها وقت طويل ، أو كانت على جانب تافه من الأهمية .

هذا كله صحيح . فالموظفون من بني الإنسان لا يستطيعون إعطاءك ما تطلب بالسرعة التي تريدها في حين أنك ما إن تصدر الأمر إلى من لا تعرف كنههم في دائرة معلوماتك حتى يقدموا لك المطلوب بكل أمانة ودقة خلال وقت قياسي . وقد يعطونكها بالصوت والصورة والألوان ، وقد تجد صورتك الشخصية على نحو ما كانت عليه قبل عشرين عاماً إذا كان ما طلبته يتعلق بحادثة وقعت لك حينذاك .

لكن الذاكرة لا تستطيع إعطاءك ما لا تعرفه . إنها مخزن لمعلومات سبق لك أن عرفتها ، أي أنها حاسب آلي يعطيك بيانات وفقاً للمعلومات التي أودعت فيه . لكنك في حالة الاستيحاء تلتمس شيئاً جديداً لم تحدد أبعاده ولن يسبق لك أن أتيت بمثله .

إن العلماء اليوم يؤكدون إمكان تجسيد الطاقة على شكل مادة بل ويفسرون المادة بأنها طاقة مجسدة . وقد استطاعوا أن يحشدوا جسيمات في معامل خاصة لهذا الغرض . فهل نستبعد وجود جهة أخرى قادرة على تجسيد الطاقة على شكل مادة تحمل شحنة من التوجيهات والتعليمات تفرغها في مادة الشخص الذي يطلبها أو الذي يقع الاختيار عليه ليبلغها للآخرين ، أم ترانا نزعم أننا أقوى قوة في هذا الوجود وأننا خلقنا أنفسنا بأنفسنا ؟ لقد وجدنا وسائل مختلفة تعيننا على الاتصال بالآخرين بعضها لا يقع في دائرة المحسوس كالتخاطر ، وأعني نقل الخواطر من عقل إلى آخر « تيليباتي » . فهل يعجز الصانع الأعظم عن مثل ما استطعنا تحقيقه وهو الذي أعطانا القدرة على ذلك ؟

لقد صنع أنسجة أجسادنا في حين أننا نعجز عن صنع نسيج واحد ونحن الذين نرود المجموعة الشمسية . أبعدَ هذا ، يجوز لنا أن نشك في قدرته على فعل ما لا تستوعبه عقولنا ولا يتصوره خيالنا ؟

وإذا كان الوحي يأتيك من حيث لا تدري فتقول تارة إنه فكرة طارئة وأخرى تؤكد أنه إلهام مفاجىء خصوصاً عندما تجد نفسك في مأزق لا تجد منه خلاصاً ، وإذا كان هذا

الوحي خليطاً من معلومات سابقة مختزنة جاء على شكل جديد أو كان إلهاماً لا تدري مصدره ، فإنه حركة لا تقع في دائرة الحس والإدراك المباشر .

والفرق بين استيحائك والوحي الذي أقصده هو أنك تطلب من ذاتك شيئاً معيناً قد تحصل عليه وقد لا تحصل ، أما ذاك ، فإنه يحمل إلى الشخص المقصود شيئاً محدداً ومقرراً لا يد له فيه ولم تسبق له فكرة عنه . هذا هو الوحي الذي أقصده .

أما المدرّس فهو الذي يقع اختيار الصانع الأعظم عليه ليعلم الناس من حوله المادة المقررة التي تحول الدارسين وتطورهم وتمكنهم من إقامة مجتمعات جديدة فاضلة تماماً كما تفعل المدارس في التلاميذ فتحولهم من جهلة أميين تنقصهم المعرفة إلى متعلمين يدركون واقعهم ودورهم في الوجود .

يبقى هناك اعتراض سمعته من قبلُ هو : إذا كان الصانع هو الخالق العظيم وكان الوحي هو الوسيط الذي أعنيه والمدرس هو النبي أو الرسول ، فلمَ لم يتدخل الله مباشرة في مهمة رسوله ليوفر عليه العناء والجهد وليضمن بالضرورة والجبر تقيد المخلوقات بتعاليمه ؟ لقد سمعنا عن نبيين قتلوا وآخرين شردوا فلمَ كل ذلك ؟ إن أمراً واحداً يصدر عن الخالق الذي أصفه يكفي ليسير كل شيء وفقاً لما يريد .

إنه اعتراض وجيه من حيث المبدأ . ولكن ، لنتصور أن الخالق قد استعمل سلطته الفائقة في إخضاع الناس للنظام الذي أراده فباتوا جميعاً منضبطين لا انحراف ولا خطأ ولا تمرد ، يعملون وفق ما أعدّ لهم من تخطيط ، فلا تجاوز ولا تنازع بل غذاء وعمل ونوم وتناسل وموت ليأتي بعدهم الأبناء والأحفاد في هذه المسيرة الوتيرية . إذا تصورنا هذا الشكل من المخلوقات فأي مفهوم نعطيه لمثل هذه الحياة ؟ إنه المفهوم الآلي البحت الخالي من التطور والابتكار . ومثل هذا المجتمع لا يمكن أن يكون إلا واحداً من اثنين : إما مجتمع آلي محروم من الإحساس والتطلع ، وإما مجتمع استطاع أفراده أن يقتلوا في نفوسهم كل النزعات والنزوات فانقلبوا إلى فوق بشريين ، أي ما يطلق عليه اسم السوبرمانية .

ومثل هذا الاعتراض لا يخلو من وجاهة لو كان الله قد خلق الإنسان ليعيش عدداً من السنين ينتهي وجوده بعدها دون نتيجة أو غاية . أما ونحن في معهد تأهيل كما سبق لي القول ، فإن آلية المجتمع غائية مرفوضة لأنها لا تمحو تفوق المجدِّ على الكسول والتواق على الخامل . أما صفة فوق البشرية فإنها تكتسب إذا عمل المتطلع إليها لبلوغها بجهده وعمله وإصراره . ولابد للإنسان من فترة تدريب ليصل إلى هذا المستوى وأعني مستوى استهداف الخير في كل سلوك وتصرف وعمل . وقد يفشل في مسعاه فيقبع بين العاجزين .

إن النبات والحيوان هما النوعان الوحيدان اللذان يعملان وتيرياً دون اختلاف يذكر . فشجرة التفاح لا تطرح غير التفاح مادام كيانها يسمح بذلك فإذا شاخت ماتت لكن خلفاءها لا تطرح غير التفاح نتاجاً . وحمار الوحش يرعى الكلأ ويخضع لنظام السفاد فإذا افترسه نمر أو أسد ملأ خلفاؤه الفراغ . والجمادات هي أكثر المخلوقات تقيداً بالنظام المفروض .

ولقد بدأ الإنسان وجوده عاملاً بفطرته لكنه امتاز بالمسؤولية وهي إحساس متفوق انحصر في نوعه وحده . ولو ألغي هذا الإحساس من تكوينه لما كان أفضل من الحيوان . وإيداع هذا الإحساس فيه دليل على أنه مخلوق متميز أريد له أن يتمتع بقدر كبير من الحرية والتعقل . والمسؤولية التزام ، ولكل التزام ثواب وعقاب .

لذا كان الأساتذة نخبة من خيرة بني الإنسان ومن أكثرهم إخلاصاً لما يدرّسون وإيماناً بما ينقلون . ولقد سقط منهم شهداء كثيرون أنبأنا بهم التاريخ الديني وما عرفناه عن سلوك بني إسرائيل ومن كان قبلهم ومن جاء بعدهم .

مما سبق نستخلص أن النظام الذي يأتي من خالق الإنسان إنما يهدف لخدمة الإنسان كمخلوق متساوٍ في الحقوق والواجبات مساواة حقيقية لا محاباة فيها ولا تمييز في حين أن النظام الذي يضعه الإنسان لابد من أن يتضمن المحاباة والتمييز سواء أكان ذلك بقدر أو كان واضحاً ومبيتاً . والإنسان هو الذي ابتكر الامتيازات والمعايير في تفضيل هذا على ذاك وفقاً لرغبة واضع النظام وأهوائه وغاياته أو بحجة إجماع الأكثرية أو مراعاة الصالح العام . أما النظام الذي جاء من الخالق ، فإن غايته كانت تهذيب الإنسان كل إنسان وتأهيله لإقامة مجتمع فاضل ليس لواضع النظام فيه أي عائد أو نفع مباشر . ثم إنه نظام يتفق تماماً مع متطلبات كل مرحلة من مراحل نضوج الفكر الإنساني والتطور النفسي وضرورات الوجود .

ولعل هناك من يقول : إن هذه النظرية تستدعي حكماً استمرار صدور النظم الإلهية تبعاً لتطور الإنسان . ولقد مضى على صدور آخر نظام أكثر من أربعة عشر قرناً فلماذا لم يصدر نظام جديد مع أن الفارق بينه وبين النظام الذي سبقه لم يتجاوز ستة القرون .

إن هذا القول مقبول تماماً إذا ثبت أن فكر الإنسان وتطوره النفسي قد باتا أرفع من مستوى النظام الأخير أي أرقى من مستوى الغايات التهذيبية الواردة فيه . فهل هناك دليل واحد على أنه أصبح غير صالح للتطبيق أو أن الإنسان قد أصبح أرقى منه مستوى وأرفع قدراً ؟

إن كل ما ينادي به المقهورون في هذا العالم وما يطالب به المحرومون المسحوقون وما يتمنى أن يحققه المفكرون الصالحون موجود في نصوص النظام الأخير وفي أحكامه، ولن يتوق إنسان إلى المطالبة بخير مما جاء فيه لأنه قمة في العدل والإنصاف لا تدانيها ذروة ولا قمة. قمة يقف أمامها المفكر الإنساني خاشعاً عاملاً على تطبيق ما تحويه من أحكام لتعم عالم الإنسان كله.

صحيح أن بعض المفكرين يأخذون عليه «إجحافه» بحق المرأة في الإرث الذي قدر فيه مساوياً لنصف نصيب الذكر. وأصحاب مبدأ مساواة المرأة بالرجل يستنكرون هذا الإجحاف. ليكن. سنعالج هذا الموضوع لما نصل إلى بحث الجانب الاجتماعي من هذا النظام ولك أن تصدر الحكم بعد ذلك بنفسك.

والآن وقد أوفينا الجانبين الهامين من هذا البحث حقهما من الشرح لم يبق أمامنا إلا الجانب الثالث المتمم وأعني النبي أو الرسول.

فالرسول إنسان. وهذه الكلمة تفيه حقه من الوصف. فالإنسان كما تعلم خليط من مواد مختلفة لكل منها خاصتها وفعلها وأثرها. لذلك نراه لا يستقر على حال، منه الصالح الخيّر ومنه الشرير الطاغية. والذين يستطيعون إسكات عناصر الشر في نفوسهم هم خير البرية.

والإنسان أحاسيس ونزوات ورغبات. والفارق بين إنسان وآخر هو قدرة أحدهما على كبت تلك النزوات أو كبح معظمها وإخفاق الآخر في هذا المسعى.

ونحن البشرَ، حينما نختار إنساناً ليقوم بمهمة معينة، نعتمد على معلوماتنا وما نعرفه عنه سواء كان ذلك بالاحتكاك أو بالتجربة أو بما تجمع لدينا من معلومات من مصادر موثوقة. مع ذلك فإننا قد نخطىء في الاختيار فيجانبنا التوفيق ويفشل الشخص الذي اخترناه في أداء المهمة التي أنطناها به. لكننا إذا ما أردنا القيام برحلة جوية وكنا متخصصين في شؤون الطيران فإن اختيارنا للطائرة المناسبة لا يحتمل نسبة كبيرة من الخطأ خصوصاً إذا ما كانت الطائرة المختارة من صنعنا واجتازت الاختبارات التجريبية كلها بنجاح فائق.

والخالق هو صانع الإنسان وهو أدرى بنقاط الضعف فيه ومقومات القوة. فإذا اختار إنساناً لمهمة معينة فإن اختياره لابد أن يكون دقيقاً ومناسباً. لذلك فإننا مدعوون حكماً إلى احترام أولئك الذين اختارهم الصانع العظيم ليكونوا همزة الوصل بينه وبيننا، يعملون على توجيهنا وفقاً للنظم التي وضعها لصالحنا.

إلا أننا نجد عقليات شاذة لا تؤمن بهذا المنطق لذلك لا نستغرب إذا ما قرأنا في موسوعة تعريفاً حافلاً بالغمز والاستهتار لآخر رسول اختاره الخالق العظيم. ولو أردنا مجاراة أصحاب تلك العقول في أسلوبهم وطريقتهم لوجدنا الكثير الكثير مما يمكننا أن نقوله.

فالرسل كلهم من عرفنا منهم ومن لم نجد له ذكراً في المراجع كانوا بشراً مثلنا لا نعرف الكثير عن سلوكهم قبل أن يتم اختيارهم. والبشر كما نعرف يملكون نفوساً تحوي دوافع الفجور والتقوى. فلما اختيروا للقيام بالمهمة التي كلفهم الخالق بها تحولوا من بشر عاديين تحكمهم طباعهم وغرائزهم إلى بشر فاضلين يحاكمون أنفسهم بصرامة وقسوة على تصرفاتهم ويجعلون أنفسهم قدوة للمقتدين.

ونبينا كان إنساناً هو الآخر امتاز عن أمثاله ببعض القيم التي كانت تحكم تصرفاته. كان لا يكذب ولا يخون العهد والأمانة، يرفض بفطرته الخضوع للأوثان التي كان قومه يعبدونها. ولقد تزوج امرأة تفوقه في السن ولم يكن أول من فعل ذلك ولا آخر الفاعلين لكنه لم يستولِ على مالها كما اتهمه المغرضون لأنني لم أجد مرجعاً واحداً يؤكد ذلك. ولو جاءني مؤرخ غربي بوثيقة تاريخية أو مرجع يثبت هذا الزعم لتبنيته. ولقد عرَّفته الموسوعة الغربية على النحو التالي:

محمد مؤسس الدين الإسلامي ولد في مكة عام ٥٧٠م. وإن كان بعض المشتغلين في الشؤون الإسلامية يرجعون اليوم ميلاده إلى عام ٥٨٠، وتوفي في المدينة في حزيران ـــ يونية عام ٦٣٢م وكان يزعم أنه ينتمي إلى قبيلة القرشيين وهي واحدة من أكبر القبائل في الجزيرة العربية التي كانت تربط نسبها بسلسلة متفاوتة الاختلاق والصحة بإسماعيل بن إبراهيم، شأنها في ذلك شأن القبائل الأخرى كلها ولقد اضطلعت عائلته بأكبر قسط من الأعباء الدينية والسياسية في مكة. لكنها وجدت نفسها آخر الأمر شبه مفلسة. وكان أبو محمد واسمه عبد الله، يمارس تجارة القوافل مع سورية وقد توفي حوالي عام ٥٧٠ تاركاً زوجته أمينة حاملاً بطفل هو محمد. ولم تلبث أمينة نفسها أن ماتت فاحتمل عبد المطلب أبو عبد الله مهمة تربية حفيده. ولم يكن لهذا من إرث أكثر من خمسة جمال وجارية حبشية. فلما مات عبد المطلب احتضنه عمه أبو طالب الذي كان يمارس التجارة مع سورية كأخيه عبد الله، وكان لمحمد ثلاثة عشر عاماً عندما اصطحبه عمه معه لأول مرة في قافلته. وخلال واحدة من هذه الأسفار، ترك عبد المطلب ابن أخيه بضعة أسابيع في معتكف راهب مسيحي اسمه بحيرة. ويعتقد أن نبي المستقبل ذاك قد اقتبس هناك بعض الإلمام بالدين المسيحي. ثم إنه ترك صحبة عمه ليتولى إدارة تجارة أرملة من أهل مكة اسمها خديجة فتنها بصفاته فتزوجته رغم أنها كانت قد تجاوزت الأربعين ولم يكن هو قد بلغ الخامسة والعشرين. ولما أصبح محمد مالكاً

لهذه الثروة الطائلة ، بادر إلى إعانة الذين ساعدوه بسخاء كبير وعلى الأخص عمه أبي طالب . ولقد أعقب بثمانية أولاد من خديجة نصفهم من الذكور ماتوا جميعاً في سن مبكرة . وكان محمد ذا طبيعة تأثرية متدينة لذا خيّل إليه أنه مدعو لنشر دين التوحيد في الجزيرة العربية ، ذلك الدين الذي افترض العرب أنه دين إبراهيم . وهناك احتمال ممكن كذلك في أن يكون محمد هذا واحداً من مرضى الصرع الذين لا يخلو الشرق منهم ـــ والكلمة المستعملة هنا هي Extatique وتعني « مهبول » . .

ولقد مر بأزمة دينية وهو في الثلاثين تقريباً مصحوبة بتهيؤات ليلية ـــ رؤى وهمية ـــ انتهت به إلى فكرة التوحيد وإلى لغز البعث بعد الموت وظهور جبرائيل له في كهف كان يحب الاعتكاف فيه ليبلغه رسالته ويعلمه الآيات الست الأولى من السورة السادسة والتسعين من القرآن . ولقد تقبلت خديجة على الفور فكرة رسالة محمد ثم تلاها علي بن أبي طالب الذي كان محمد يرعاه ثم أبو بكر وعثمان وأطلق النبي عليهم اسم مسلم وهو يعني الذي يسلم أمره إلى الله ومن هذه الكلمة الموضوعة في صيغة الجمع باللغة الفارسية نشأت كلمة « مسلمان » فعربت إلى مسلمين .

ولقد قابل العرب المتمسكون بشدة بتقاليدهم الوثنية هذه الثورة الاجتماعية والدينية التي قام بها محمد باستنكار شديد . لذا كان المؤيدون قلة نادرة في بادئ الأمر أهمهم حمزة وعمر . وفي عام ٦٢١ أعلنت المدينة ، وهي أكبر مدن الجزيرة العربية بعد مكة تقبلها لفكرة الإسلام فقرر محمد الذي فقد زوجته الأولى وأبناءه منها أن ينسحب إليها . وفي شهر أيلول ـــ سبتمبر عام ٦٢٢ ، غادر مكة يلاحقه عداء أهلها . وبعد عناء سفر مضنٍ وصل إلى المدينة حيث استقبل بحفاوة المنتصرين . ويطلق المسلمون على هذا الانتقال اسم الهجرة ومنه بدأ التقويم الإسلامي .

ولقد دام الصراع بين مكة والمدينة ، خصوصاً وأن محمداً لم يعد قانعاً بالتبشير بفكرة التوحيد بل زعم أنه رسول الله ليكون الرئيس الديني للبشر كلهم !

وفي آذار « مارس » عام ٦٢٤ ، هاجم محمد قافلة مكية كبيرة في « بدر » متحدياً أصحابها فكلفته عملية السلب هذه هزيمة في « أحد » بعد عام واحد وفيها هزم المكيون جيش محمد ومزقوه إرباً . لكن غزوة أخرى على الحدود السورية عام ٦٢٧ نجحت فأعادت الثقة إلى نفوس جنود قطعات محمد الذين استطاعوا أن يُعدوا لهجوم مكي على المدينة عام ٦٢٨ أعقب ذلك توقيع هدنة بين المحاربين نصت على حق المسلمين في الحج إلى مكة . وفي عام ٦٢٩ أخضع محمد يهود « خيبر » وكاد أن يموت مسموماً بيد « زينة » أخت صوفيان زعيم اليهود .

خلال هذا الوقت استطاع القادة المسلمون أن يخضعوا الجزيرة العربية كلها تقريباً فقرر محمد أن يغزو مصر والمملكة اليونانية ومملكة الفرس. وفي عام ٦٣٠ ، وبمساعدة الزعيم القرشي أبي سفيان الذي كان محمد قد تزوج ابنته ، احتل محمد مكة دون حرب فحطم أصنامها ثم شهد بعد عام على ذلك خضوع آخر القبائل المتمردة ومجموعة من الانتصارات على اليونانيين قرب الحدود السورية .

وفي إحدى زياراته للحج في مكة عاد مصاباً بحمى شديدة أودت به إلى القبر خلال خمسة عشر يوماً وكان ذلك في ٨ حزيران « يونيه » عام ٦٣٢ .

ولقد تزوج محمد إضافة إلى خديجة ، أربع عشرة امرأة من بينهن « ماريا » القبطية و« زينة » ابنة زعيم يهود خيبر لكنه لم يعقب بذكور أحياء . إلخ ...

هذا ما تقوله الموسوعة الفرنسية عن النبي الأخير . وبهذه المناسبة أضيف ما منّ به الكاتب الفرنسي الشهير فولتير على المسلمين بمسرحيته التي مُثلت في مدينة « ليل » الفرنسية بعنوان « محمد أو التعصب » ثم في « الكوميدي فرانسيز » عام ١٧٤٢ والتي مُنعت لفترة ثم عادت بعد تسع سنوات أكثر تألقاً وشهرة . وكان « فولتير » هذا يهاجم فيها المعتقدات الخرافية والتعصب الديني ، قدمها هدية إلى البابا « بينوا » الرابع عشر الذي منحه لقاءها بركاته السخية . ولقد أظهر فولتير محمداً في مسرحيته على شكل حادٍ صانع معجزات ولم يبق منها اليوم إلا اسم سعيد العيد المخلص لمحمد الذي أصبح رمزاً للتعصب الأعمى إضافة إلى بعض أبيات من الشعر .

هذا هو نبينا كما يراه الغربيون . إنسان مفلس يتيم ورث خمسة جمال وجارية حبشية وكان من المهاويس المصابين بالصرع ، ألمّ ببعض معطيات الدين المسيحي خلال الأسابيع القليلة التي تركه عمه فيها لدى المتعبد بحيرة ، فتن خديجة بصفاته — وهو المهووس المصاب بالصرع — فتزوجته وهي فوق الأربعين فأنجب منها ثمانية أولاد نصفهم من الذكور — ويبدو أن سن اليأس عند النساء في ذلك الوقت كان يبدأ في الخامسة والخمسين — زعم أنه يبشر بدين التوحيد الذي عزاه إلى إبراهيم ثم لم يلبث أن هيأ له مرضه العقلي أن يجعل نفسه نبياً وزعيماً دينياً للبشر كلهم .

لكنه رغم عيوبه كلها ، أخضع كل قبائل الجزيرة العربية وقرر فتح الشام والعراق ومصر ! معجزة تفوق كل تصور يحققها مهووس مصروع !.

الدعوة والدعاة

هناك شبه إجماع بين العلماء والعاملين في تاريخ الدعوة الإسلامية وتطورها على أنْ ظهور الفِرَق في الإسلام يرجع إلى سببين رئيسيين : الأول خروج المسلمين من بيئتهم الصحراوية وما اتسمت به من خشونة وحرمان إلى بيئات متطورة تنعم بكثير من المغريات وأسباب الترف والرفاهية بفضل فتوحاتهم الموفقة التي قاموا بها لنشر دينهم . والثاني دخول غير العرب في الدين الجديد حاملين معهم رواسب معتقداتهم القديمة مما أدى إلى اختلاط بعض المفاهيم نتيجة لمحاولة التوفيق بين القديم والحديث ، خصوصاً وأن عدداً كبيراً من أولئك المؤمنين الجدد ما كانوا مؤمنين حقاً بل متسللين إلى الدين الجديد بهدف إفساده بإثارة الجدل حول الغيبيات فيه لبلبلة أفكار المؤمنين .

وسواء كان هذان الرأيان مصيبين كلياً أو على جانب من الصحة فإن هناك سبباً آخر أكثر أهمية منهما يحتل مرتبة متقدمة عليهما هو طبيعة العرب أنفسهم والمفاهيم الاجتماعية لدى أولئك المؤمنين الأوائل المتأثرين بالعصبية القبلية .

فالفتوحات الإسلامية استهدفت البلدان المحيطة بالجزيرة العربية وهي : فارس والشام والعراق ثم مصر والشمال الإفريقي . وبلاد فارس والشام كانت تدين بالمجوسية والمسيحية واليهودية وتنعم بحضارة عريقة مزدهية ، يتربع على عروشها جهابذة في الفكر والفلسفة وعلم الكلام ، وهي علوم كان العرب فيها كالأقزام في عالم العمالقة .

ثم إن وسائل الترف والمدنية التي كانت سائدة في تلك الأصقاع كانت حافلة بالإغراءات المُلِحَّة التي يصعب على أبناء الصحراء عدم التأثر بها .

هذا كله سبب إضافي من أسباب تمزق البنية الإسلامية لا يمكن إغفاله كما لا يمكن إغفال دخول العناصر غير المؤمنة في الدين الجديد بقصد إفساده وتسفيه أحكامه وأثرها في خلق البلبلة في العقيدة الجديدة والاختلاف على تفسير مراميها وأحكامها ، خصوصاً وأن

المؤمنين كانوا متمسكين بحرفية ما ورد في الكتاب، مؤمنين بأن ما ورد فيه يكفي لتسيير أمور دينهم ودنياهم دون حاجة إلى الفلسفة والتعمق.

لكن العصبية والقبلية كانتا السبب الأول في ذلك التفكك والتمزق. فالعرب لم يكونوا عرباً وحسب بل قبليين يفخر كل منهم بعصبيته التي كانت سنده الأول في الجاهلية. وإليك واحداً من أقوالهم:

فغضّ الطرف إنك من نُميْرٍ فلا كعْباً بلغت ولا كلابا

ونحن نعلم أن الله لما قيض هزيمة قريش وفتح المؤمنون مكة، لم يكن إسلام أبي سفيان وشيعته إسلام إيمان بل إسلام ضرورة. لقد استرضاه النبي بالإبقاء على هيبته ومركزه وتخصيص العطايا له وللعديد من حديثي الإسلام من أصحاب النفوذ. وقد قال ابن إسحاق أن النبي أعطى كلاً من أبي سفيان بن حرب وابنه حكيم بن حزام والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وصفوان بن أمية ومالك بن عوف والعلاء بن جارية وغيرهم مائة بعير لكل منهم وأُطلق على هؤلاء اسم أصحاب المئين. كما أعطى رجالاً من قريش دون هذا العدد منهم مَخْرَمة بن نوفل الزهري وعمير بن وهب الجمحي وهشام بن عمر العامري وسعيد بن يربوع وعباس بن مرداس السلمي، حتى أن هذا الأخير سخط بسبب حصته القليلة فقال شعراً اضطر النبي معه أن يرسل من يعطيه حتى يرضى، وإني أُجمل ذكر هذه الظاهرة في عبارة «المؤتلفة قلوبهم» التي فسرها السلف بأنها تعني الذين كفروا وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف بل بالعطاء والإحسان. وقد جاء في عداد هؤلاء إضافة إلى من سبق ذكرهم النضير بن حارث بن علثمة بن كلدة، أخي النضر بن الحارث الذي قتل في معركة «بدر» وعيينة بن حصن وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم. فلما قُبض النبي، اجتمع الأنصار والمهاجرون وقريش في مجابهة خطيرة يدعي كل جانب منهم بحقه في الخلافة.

فالأنصار يزعمون أنهم منعوا النبي وآووه وشاركوه في ضرائه وأشركوه في أموالهم وممتلكاتهم حتى قُيّض له النصر ولولاهم لما كان دين ولا دعوة.

والمهاجرون يرون أنهم صحبوا النبي في هجرته مضحين بأموالهم وما يملكون في مكة، محتملين العنت والامتهان والاضطهاد ليلحقوا به وليعينوه على مقاومة خصوم الدعوة ومناصرته فيها.

أما قريش، فترى أنها سيدة الموقع، مرهوبة الجانب من العرب وغيرهم، وأنها عصب النبي ومنبته، فهو منها تربطه بها صلات القربى، ففيها أعمامه وبنو عمومته وعصبته ولو

أعطيت الخلافة للأنصار لاقتتل الأوس والخزرج كلٌّ يبغيها لنفسه، ولو أعطيت للمهاجرين لطمع العرب فيهم لضعف عصبيتهم ولسلبوها منهم.

ولنا هنا وقفة لابد منها. إن كلمة «خلف» في اللغة تعني المجيء بعد من سبق، فخليفة الملك ملك وخليفة الرئيس رئيس وخليفة القائد قائد. ولو أخذنا بهذا المفهوم لوجب أن يكون خليفة النبي نبياً مثله.

لكن النبوة كما نعلم علاقة مباشرة بين الخالق والمخلوق المختار الذي يقوم بالمهمة المحددة الأبعاد التي اختاره لها. فإذا ما انتهت المهمة وبلغت غايتها، انقطعت العلاقة وبات النبي مشرفاً على تطبيق ما كُلّف بنشره. ولقد توفي النبي بعد أن أنجز مهمته بوقت قصير. ففيم تقوم خلافة من بعده؟

إذا كانت الغاية منها إيجاد من يرعى ذلك الدين ويشرح ما استغلق فهمه على عامة المسلمين، لوجب أن يكون الخليفة واحداً من أكثر الناس إحاطة بخفايا الدين ومراميه، يتولى الإشراف على تطبيقه وحفظه من كل تلاعب وتحريف.

والخلفاء الذين قبعوا على عرش السلطة ابتداء من معاوية وحتى آخر العباسيين لم يكونوا خير من فهم الدين وعمل به، بل إن بعضهم سلك سلوكاً معيباً مخالفاً لأبسط الأحكام الدينية وتصدى آخرون للأئمة الحقيقيين فأذلوهم وعذبوهم ونكلوا بهم تنكيلاً معيباً يظل وصمة عار في جباههم لا تمحوها حسناتهم.

وأقرب حدث مخجل من هذه الأحداث نهاية أبي ذر الغفاري صاحب النبي الملازم اللصيق له الذي نفي إلى الصحراء ومات منفياً ولم تجد زوجته ما تلف به جسده لتدفنه. تقول الرواية: إن زوجته جلست على باب الخباء المتواضع تبكي بحسرة فمر ركب قريب تحول أحد أفراده إليها وسألها عما بها ولما عرف السبب صاح ملتاعاً قائلاً: أبو ذر صاحب رسول الله: يا لعار ما أسمع! وخلع ثوبه لتجعله الزوجة كفناً.

ونحن نعلم أن قريش سخرت الدين لدعم نفوذها وزعامتها. وأكبر دليل على ذلك، الخلاف على طبيعة الخليفة. صحيح أنه لابد أن يكون مسلماً عربياً لأنه لو كان من أمة أعجمية لما استطاع استيعاب مفاهيم اللغة كما يستوعبها العربي، لكن الإصرار على أن يكون من قريش بزعم انتماء النبي إليها وقدرتها على مجابهة الطامعين حجة واهية. ذلك أن التضافر لحماية الدين والدفاع عنه واجب على كل مسلم، ولو أقيم الخليفة من أعمق المتعمقين في مفاهيم هذا الدين لأقام المسلمون جميعاً درعاً منيعاً لحمايته على شكل جيش يأتمر بأمر ذلك

المرجع العليم أياً كانت الجهة التي ينتمي إليها . لكن حصر القيادة والهيمنة في قريش باسم الدين مجرد إصرار على الانفراد بالزعامة باسم الدين بعد أن كانت تمارسها بالإشراف على الأوثان في الجاهلية . والاقتتال بين من عرّفهم التاريخ باسم الأمويين والذين عُرّفوا باسم العباسيين لم يكن دفاعاً عن الدين بل تحقيقاً لمطامع الزعامة .

والخلاف بين علي وأبي بكر على الخلافة الأولى وانقسام المسلمين إلى فريقين متناحرين أحدهما يتشيع لعلي والثاني لأبي بكر ولكل منهما حجته التي يدعم بها موقفه ، صورة ناطقة عن عقلية العرب المسلمين .

فعلي ربيب النبي وابن عمه وزوج ابنته فاطمة . وهو الذي التف ببرد النبي ونام في فراشه مضحياً بنفسه ليتيح للنبي فرصة التسلل متنكراً ببرده لما تآمرت قريش على قتله . وهو الذي صاحب النبي في حله وترحاله وكان لصيقاً له ينهل عنه من علم القرآن والأحكام الفقهية .

وأبو بكر هو ثاني اثنين في الغار مع النبي في هروبه من مكة وهو الصديق الوفي للنبي الذي لولا موقفه المعروف من المتشككين في حكاية الإسراء لانفض النفر القليل من حول النبي ولما بقي إسلام ومسلمون ولا خلافة . ثم إنه كان خليل النبي وأبا صغرى نسائه وأقربهن إلى قلبه عائشة .

هذه الصورة التي طالعتنا بها مراجع كثيرة تدل دلالة واضحة على أن المسلمين الأوائل قد خلطوا بين القانون السماوي المنزّل ذي الصبغة الأممية وبين مفاهيمهم القبلية وعصبيتهم المتزمتة بحجة أو بأخرى فحولوا الدين بذلك إلى سلطة وتحكم ومتاع دنيوي .

ويرى بعض المفكرين أن الأعوام الثلاثة والعشرين التي قضاها نبينا في قومه مبشراً لم تكن كافية لاستئصال المفاهيم القبلية العريقة من نفوس متبعيه وتحويلهم إلى دعاة مسلمين وفقاً للنص الصريح الوارد في الكتاب : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ **١٣ الحجرات** والحديث المأثور : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

والفتنة التي تسلَّلت بينهم والتي أدت إلى الحرب بين معاوية وعلي بعد الدسائس التي حاكها الأول للثاني والتي انتهت باستشهاد علي وولديه الحسن والحسين ، ومصادرة ممتلكات فاطمة ، كل هذه الوقائع الثابتة كانت كافية لوأد الدين الجديد لولا القلة القليلة من المؤمنين الذين لم تثنهم نعماء الدنيا وترفها عن متابعة أحكام الكتاب ونصرة مضامينه .

لقد برزت اتجاهات متباينة إثر وفاة النبي مباشرة. الاتجاه الأول لأهل السنة الذين أجمعوا على أن الخلافة يجب أن تكون لعربي من قريش. والثاني للمتشيعين لعلي الذين نادوا بوجوب حصر «الإمامة» حكماً بعلي وأولاده من فاطمة وحدهم بالتعيين الإلهي. أما الاتجاه الثالث فكان للخوارج الذين نادوا بأن يكون الخليفة مسلماً عادلاً ترضى به الأمة ولو كان عبداً حبشياً.

صحيح أن أهل السنة قد أضافوا إلى رأيهم ضرورة موافقة الأمة على تعيين الخليفة، لكنهم حصروها حكماً في قريش وحدها. ولقد نجحوا في تحقيق غايتهم حتى انهيار دولة العباسيين فلم يبق لهم غير الاسم. أما أصحاب الرأي الثاني فقد تجسد تشيّعهم لعلي على الصورة التي نراها اليوم في حين اتُّهم الخوارج بشعوبهم عن العرب وخروجهم على أهل السنة.

ولم تكن سرقة القرامطة للحجر الأسود من الكعبة وضرب الكعبة بالمجانيق بأمر الثقفي إلا دلالات ناطقة على تردي درجة الإيمان وخروج الكثير من المسلمين على قدسية الدين ومفاهيمه السمحة.

فالقبلية العمياء هي التي دفعت العرب المسلمين إلى الانقسام على أنفسهم لمناصرة جهات طامعة في التفرد بالسلطة والسلطان. والبيئة الجديدة وما حوته من صنوف الترف وحتمية الاحتكاك بالحضارات العريقة السابقة، كشفت لذوي الفكر والحِجا من المسلمين قصورهم وعجزهم عن المناظرة في مسائل لم ترد صراحة في الكتاب ولا في أحاديث النبي. وهذا الإحساس بالتخلف الفكري دفع النخبة المفكرة إلى مجاراة البيئة الجديدة والاطلاع على مصادر فكرها وعلمها.

لم يكن هناك غير الفلسفة الإغريقية والزرادشتية الفارسية مرجعاً لمثل هذه الدراسة فأكبوا عليها متمعنين متعمقين فتأثروا بها تأثراً بالغاً خصوصاً وأنهم لم يكونوا أصحاب فكر جدلي خاص بهم. ولقد بلغ تأثرهم ببعضها حداً جعلهم يتبنون معطياتها بصورة لا شعورية وخصوصاً فلسفة «أفلوطين» التي راحوا يحاولون التوفيق بينها وبين الفكر الإسلامي.

وليس أدل على ذلك من محاولاتهم المتكررة المتضاربة في تبسيط كنه الذات الإلهية وجوهر الله وفعاله ومشيئته وصفاته وخلقه. لقد كان هذا الموضوع بالذات أكبر العوامل التي تضافرت وعملت على تبديد شمل المسلمين وتفتيت وحدتهم.

ولقد استشرى الأمر في الانحراف نتيجة لاقتتال المسلمين فيما بينهم سعياً وراء السلطان بحجة نصرة الدين. صحيح أن الدارسين قد أجمعوا على أن لمعاوية الفضل الأول في تأسيس الدولة الإسلامية أي في تحويل الدين الإسلامي إلى دولة خلافاً لعلي الذي كان سيبقيه ديناً ربانياً يعتمد على الزكاة والجهاد والغنائم، وأن الاقتتال بين المسلمين والتنابذ والتمزق عوامل طبيعية وحتمية في تطور بيئة متخلفة فوضوية إلى بيئة منظمة منضبطة تبقي على الأفضل، لكن هذا الإجماع أو شبه الإجماع صدر من منطلق مفهوم اجتماعي يغفل الأسس الدينية إغفالاً تاماً.

فالبيئة الاجتماعية التي تتطور وفقاً لضرورات حياتية تعتمد على تطور في الفلسفة التي كانت أساس قيامها. أي أن الفكر التنظيمي يتطور إلى الأفضل مستفيداً من الأخطاء والدروس المتحصلة بالتجربة. لكن هذا يتعارض تماماً مع البيئة التي قامت على أساس روحيّ منزّل شامل لكل القواعد الضرورية اللازمة في أي مجتمع متطور. فهي إذا شاءت التطور بمفهومه الحالي الجارف ستضطر إلى التضحية بقدسية فلسفتها الأساسية.

فالديانة المسيحية مثلاً تحرم كل ما نراه مستباحاً في المجتمعات الغربية «المتطورة» أي أن هذا التطور قام على أشلاء المفهوم الديني الذي تقهقر حتى انحصر في دور العبادة، والمخرج الوحيد الذي يلجأ إليه المنحرفون هو الحصول على الغفران بعد الاعتراف. وهذا يعني أن هذا التطور المزعوم سيقتضي أن يهجر المسلمون أسس دينهم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ليقيموا على أنقاضها أسساً جديدة تتبدل من جيل إلى جيل بما تمليه مصلحة القادرين على فرض آرائهم لتحقيق رغباتهم ومطامعهم. والمغفرة في الإسلام تتوقف على التوبة النصوح.

وقد يقول قائل: إن الدين كان جائراً ومتزمتاً عندما كان سيد الموقف، وما محاكم التفتيش والمذابح والشذوذ وتلاعن المسلمين من فوق المآذن والمنابر إلا صورة قبيحة من الصور الكثيرة التي ظهر عليها.

والجواب بسيط ومفحم. فالمسؤولية لا تنحصر في الدين وهو نصوص واضحة ومبادئ، بل في أولئك الذين تصدوا للتحدث باسمه. وهناك فارق كبير بين القانون بحيثياته وغاياته وبين الذين يتلاعبون في تأويله وتطبيقه خدمة لمآرب خاصة بهم أو لآراء استبدت في مفاهيمهم.

فالإسلام دين سمح يحرم الاقتتال بين تابعيه تحريماً قاطعاً: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة وديّة مسلَّمة إلى أهله إلا أن يصدّقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فديَّة مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً. ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ ٩٢، ٩٣ النساء. ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ١٥١ الأنعام.

لكن هناك من يفتي بأن من لا يتبع مذهباً كان قتله حقاً فيأخذ المريدون والتابعون بإفتائه ويستبيحون دم المؤمن رغم صراحة الآية: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ ٧٧ المائدة وبلاغة الآية: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ ـ ٩ ـ الحجرات.

ولما رأى المسلمون أنفسهم أمام حالة مماثلة لما حُرّم في النص الصريح لهذه الآيات تباينت أحكامهم وتناقضت. فقتل النفس التي حرم الله، كبيرة من الكبائر. ولقد اتفق المسلمون على أن الكبائر تسع واحدة منها تعتبر كبيرة الكبائر وهي الشرك بالله وصاحبها كافر مخلد في النار. أما الكبائر الأخرى فهي بحسب أهميتها: قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنى، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم وأكل الربا والسحر والتولي عن الزحف وقذف المحصنات. لكن قتل النفس يأتي مباشرة بعد الشرك بالله.

واختلف المسلمون في أحكامهم على مرتكبي الكبائر التي تلي الشرك بالله، فأجمع أهل السنة على أن ارتكاب الكبيرة لا يخرج مرتكبها من الإيمان ولا يدخل في الكفر بل يعرضه للعقاب. وبنوا حكمهم على الآية الثالثة والتسعين من سورة النساء: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾.

أما الخوارج فقد كفّروا مرتكب الكبيرة كبيرها وصغيرها، وجعلوه خالداً في النار. بينما اعترض المرجئة على حكمهم فزعموا أن ارتكاب الكبيرة لا يضر مع الإيمان إذ لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة وأن الحكم فيها يرجع إلى الله يوم الحساب. بل إن

فِرَق الخوارج نفسها اختلفت فيما بينها حول هذا الموضوع ، فقد قال الأزارقة إن مرتكب الكبيرة ، كبيرها وصغيرها مشرك بالله وإن أطفال المشركين مشركون كذلك فاستباحوا دماءهم . وقَصَر الصفرية استباحة القتل على مرتكبي الكبائر دون أولادهم بينما أرجع النجدات الأمر إلى فقهاء المسلمين إلا إذا أجمع المسلمون على تحريم ذلك الذنب وعندئذ يكون مرتكبه كافراً مشركاً . أما الإباضيون فقد زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر كفران نعمة وليس كفران شرك !

وقول أهل السنة : إن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق لقي اعتراضاً من النسفي مؤكداً أن الفاسق كافر لأن الكفر هو أعظم الفسوق واستشهد بقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ــ ٥٥ ــ النور . فالفاسق إذن كافر !

وتضارب الفكر هذا منع المسلمين من الإجماع على رأي في المتقاتلين . فشيعة عليّ كفّرت الذين خرجوا عليه وحاربوه وحرموه من حقه الإلهي في الخلافة . وجماعة معاوية لعنوا عليّاً في المساجد . والخوارج كفّروا أصحاب الجمل لقتالهم علياً وأعطوا عليّاً الحق في قتال أصحاب الجمل وأصحاب معاوية في صفين إلى وقت التحكيم ، لكنهم عادوا فسلبوه هذا الحق لكفره بالتحكيم . أما أهل السنة فقد وصفوا الطرفين المتقاتلين بالعصيان والخطيئة لكنهم لم يرفعوا عصيانهم وخطيئتهم إلى مرتبة الكفر . والمرجئة حكموا بإيمان الطرفين وأرجأوا الحكم عليهما إلى يوم الحساب ! ثم جاء واصل بن عطاء فقال في مقتل عثمان وخاذليه وقاتليه : إن أحد الفريقين فاسق ومخطىء لا محالة لكنه لم يحدد هويته ، وكذلك في أصحاب الجمل وفي المتلاعنين . وكان أكثر غموضاً في حكمه إذ قال : إن الفسقة قد يكونون من الطرفين . واستناداً إلى هذا الشك فإنه يرفض شهادة أي منهما . أما عن الإمامة ، فقد جاء بحكم يرضي كل الأطراف إذ قال : إن الإمامة يجب أن تكون باختيار الأمة لعدم وجود نص عليها في الكتاب وعدم ورود ذكرها على لسان النبي . أما عن الخلافة فإنها حق لكل مسلم صالح وعادل ترضاه الأمة سواء كان من قريش أو من غيرها وبذلك أرضى الشيعة والخوارج في الأولى واسترضى الخوارج في الثانية ثم تقرب من الشيعة بقوله : إن الإمامة واجبة على أهل كل عصر .

ولو نظرنا بتجرد إلى مجريات الأمور لاتضح لنا أن هزيمة أبي سفيان وشيعته يوم فتح مكة قد خلفت في نفوس قريش عقدة عميقة وملأت قلوبهم ضغناً وغلاً . وما كان سكوتهم

على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان إلا التقاطاً للأنفاس . فلما قضى ثلاثة من أقرب المقربين إلى النبي لم يبق أمامهم غير عليّ وهو منهم دماً وعصباً فانقضوا عليه وتخلصوا منه ومن خلفائه وبذلك استعاد أبو سفيان السيادة والزعامة . لكنه في هذه المرة كان أمضى سلاحاً وأكثر جمعاً ، يتذرع بالدين تحقيقاً لزعامته وتوطيداً لأركانها مستعيناً بالإله الواحد بدلاً من اللات والعزى ومناة وهبل .

صحيح أن هذا لم يمنع ظهور خلفاء صالحين مؤمنين مسلمين حقاً كما توقع النبي عندما استرضى هذا النفر من أصحاب النفوذ معتمداً على رسوخ العقيدة في أنسالهم ، لكنه كان كذلك المعول الأول الذي هدم صرح الوحدة الإسلامية .

ومن يرجع إلى سير الأئمة ومالقوه من عنت واضطهاد وتعذيب على يد الخلفاء المسلمين كل حسب ميوله وقناعاته ، وإلى سير أهل الفكر من المسلمين الذين أدلوا بآراء تخالف آراء الحاكمين ، ومنهم على سبيل المثال الذين عرفناهم باسم «إخوان الصفا» الذين أخفوا أسماءهم إبقاء على حياتهم ، وقيام فكرة التقية لدى بعض المذاهب ومايقابلها من تصرفات أقرب إلى النفاق منها إلى التستر لتقويم الأخطاء ، من يرجع إلى هذا كله مما وقع خلال ستة قرون على تاريخ الهجرة وانتصار هذا الدين ، يدرك مدى ماتردى إليه الفكر الإسلامي ويعجب لبقاء هذا الدين قويماً وصالحاً رغم كل ماحاق به من تشويه . ولو لم يكن هو الأفضل لما كان هو الأبقى .

والمعتزلة الذين بدأوا منطقيين يتسلحون بالفكر والحجة ، مالبثوا أيام المأمون ، بعد أن اشتد عودهم وقويت شكيمتهم أن أرغموا الناس على اعتناق مذهبهم رغم الخطأ البيّن في آرائهم . فقولهم إن مرتكب الكبيرة فاسق في منزلة بين منزلتين من الكفر والإيمان ، تنفيه نصوص القرآن الصريحة . فإلى جانب الآية التي احتج بها النسفي لإثبات أن الفسوق هو الكفر ، هناك آيات تدل على أن نسيان الله فسوق والكفر فسوق وكذلك الارتداد عن الدين والنفاق والأمر بالمنكر وعدم الحكم بما أنزل الله ، كل هذا فسوق بيّن .

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ **١٩ الحشر** ، ﴿يوم يُعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون﴾ **٣٤ ، ٣٥ الأحقاف** ، ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ **٦٧ التوبة** . ﴿وليحكم أهل

الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ **٤٧ المائدة** . ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ **٩٩ البقرة** . ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ **٨٠ التوبة** .

ولقد اتخذ المعتزلة مبدأ المنزلة بين المنزلتين: الكفر والإيمان، من تأويل الآية: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ **١٤٣ البقرة**، وهي آية كما ترى أُخضعت للتأويل وحمّلت كلماتها ما لا تحمل من معاني . ومن الثابت أنهم أخذوها عما كان فلاسفة اليونان يطلقون عليه اسم «الوسط الذهبي» وفي فلسفة أرسطو الأخلاقية التي اقتبسها كذلك «مسكويه» وبنى عليها كتابه تهذيب الأخلاق، وفلسفة أفلاطون القائلة بأن الشيء إذا لم يكن حسناً فهو ليس سيئاً بالضرورة فقد يكون بينهما .

ولما ذهبت ريحهم، لقوا ما لقي الذين من قبلهم من أئمة الدين والمفكرين على أيدي الحكام المسلمين .

ونحن نعرف ماذا حل بابن حنبل ومحمد بن نوح والقواريري وسجادة على أيام الخليفة المأمون الذي اقتنع بقول المعتزلة بخلق القرآن وأمر بامتحان الفقهاء حتى يوافقوهم في الرأي وكيف أن القواريري اضطر أن يعلن موافقته قبل أن يساق مكبلاً كالثلاثة الآخرين فأخلي سبيله ثم تبعه سجادة إلى ذلك القول فنجا ليكون فقيهاً يجهر بما لا يؤمن به خشية ورهبا .

نار متأججة تأكل ما يُلقى إليها ... قتل وتنكيل وتعذيب وإفقار وإذلال باسم الدين وليس في الكتاب شيء من كل ذلك، وهو المرجع الوحيد لذلك الدين، إلا ما جرى تأويله وحمّلت كلماته ما لا تحمله من معنى كقولهم في الآيتين: ﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ **٢٢، ٢٣ القيامة** بأن «إلى» هذه ليست حرف جر بل هي اسم بمعنى نِعَمْ مشتق من آلاء . وبذلك أكدوا وجهة نظرهم بنفي الرؤية السعيدة يوم القيامة فأصبح معنى الآيتين: إن الوجوه الناضرة تنظر آلاء الله ونعمه ولا تنظر إلى الله! وكذلك فعلوا في تأويل الآية: ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾

٣٥ النور فقالوا إن كلمة النور هذه لا تعني النور الحسي الذي يمكن رؤيته بالعين بل تعني أن الله هو ينوّر السماوات والأرض !.

وخلاصة القول : إن الفِرَق واجتهاداتها وفلسفاتها المتأثرة بالمانوية أو بالفلسفات اليونانية ، أساءت إلى الدين الإسلامي إساءات بالغة وجعلت الخلف يسير على نهج السلف حتى تصدع البنيان أو كاد فبات سواد المسلمين في وادٍ والمتحدثون باسم الدين في وادٍ آخر .

فلنخرج من هذه المتاهة

الفكر الإسلامي في خطر ونحن نسير من سيء إلى أسوأ. فالذين أرادوا إنقاذ الموقف زادوه تعقيداً سواء بحسن نية أو بسوء نية حتى بات المسلم لا يدري أي سبيل يقوده إلى الهدى ودين الحق. وإزاء تضارب السبل وتعددها آثر الشباب المسلم أن يبتعد عن دائرة المتحدثين باسم الدين مكتفياً بإيمانه بخالقه دون التقيد بأفضل تعاليمه. أما الذين استمروا على الحلبة فقد انقسموا بدورهم حسب مفاهيمهم يعلن بعضهم النكير على البعض الآخر فنشأت فرق تهدم ولا تبني وتشوّه ولا تزين.

والغريب فيما يعلنه أولئك الفقهاء ما يمسّ كتابنا الكريم وأحكامه مباشرة ففيه آيات ناسخة وأخرى منسوخة على حد قولهم. وقد روجوا القول إن في القرآن ما ذهب حكمه وبقي حرفه وفيه ما ذهب حرفه وبقي حكمه وفيه ما ذهب حرفه وحكمه.

ولعلهم في زعمهم هذا يعتمدون على منطوق الآية السادسة بعد المائة من سورة البقرة ونصها: ﴿ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ واعتمدوا على مفهوم كلمة «آية» وهي الفقرة أو الجملة في كتابنا لكنها تحتمل معنى المعجزة أي الآية الكونية وقد وردت في قرآننا في ثلاثة وثمانين موضعاً لم يقصد بها العبارة القرآنية إلا في آية واحدة ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ١٠١ **النحل**. وسياق المعنى المقصود بدءاً من الآية السادسة والتسعين من السورة نفسها وحتى الثانية بعد المائة يؤكد ما أراد الخالق أن يعيه المؤمنون. أما في المواضع الأخرى فإنها تعني المعجزة أو العبرة.

ولقد زعموا أن الآية السابعة والستين من سورة «النحل» منسوخة أي أن حرفها قد بقي لكن حكمها ألغي وبات باطلاً ونصها: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ولم يأتوا بهذا القول إلا بعد أن فسروا كلمة «سكرا» بما لا يسكر من الخمر! ولما رأوا أن قولهم هذا غير مقنع عمدوا إلى الحل الثاني وأعني النسخ لأنها آية أنزلت قبل تحريم الخمر.

ولو قرأنا الآيات التي أُنزلت حول الخمر والميسر حسب تسلسل النزول للمسنا الحكمة التي اتبعها الخالق العظيم في تأهيل الإنسان إلى ما يريده له من إدراك وتعقل ليصبح قادراً على القيام بدوره الذي أعده له في مجتمع فاضل.

قال سبحانه: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ـ ٢١٩ ـ البقرة وسورة البقرة هي السابعة والثمانون حسب ترتيب النزول بينما الآية السابعة والستون التي سبقتها كانت في سورة النحل وهي السورة السبعون حسب ترتيب النزول.

ثم عاد سبحانه يطرق هذا الموضوع في سورة «النساء» وهي الثانية والتسعون حسب ترتيب النزول فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ ٤٣ النساء. ثم أنهى الأمر في سورة المائدة وهي الثانية عشرة بعد المائة فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ ٩٠، ٩١ المائدة.

فهل تعتبر الآيات التي طرقت هذا الموضوع قبل هاتين الآيتين الأخيرتين منسوخة، أي ذهب حكمها وبقي حرفها، أم نعتبرها أسلوباً حكيماً في التدرج الغاية منه تحويل الإنسان المدمن إلى إنسان سوي؟

صحيح أن آيات القرآن قد أنزلت لتفسر وقائع معينة وتحدد الأحكام التي تنطبق عليها، لكن هذه الأحكام لم تأت مفروضة من قوي على ضعيف بل جاءت تقدم للإنسان المدرك المتعقل النتائج التي سيجنيها من اتباعها وتطبيقها. ولقد تمسك بعضهم بترويج مقولة الناسخ والمنسوخ ليتنصلوا من تطبيق تلك الأحكام على تصرفاتهم وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك متذرعاً بمزاعم شتى منها أن الظروف الحالية باتت مختلفة عما كانت عليه عند نزول تلك الآيات وأن القرآن لو أنزل اليوم لراعى في أحكامه متطلبات العصر. فإذا كان تطور البيئة والمجتمع خلال جيل واحد هو مدة الرسالة قد استوجب بالضرورة تعديل بعض أحكامه وإبطال بعضها الآخر، فإن الأمر يتطلب اليوم إعادة النظر في هذا القانون الذي

مرت على صدوره أجيال وأجيال . إن الواقع الذي نعيشه وطبيعة الحياة اليوم يحتمان إلغاء كثير من الأحكام وتعديل ما يتبقى منها بحيث تنسجم مع طبيعة المجتمع وإلا كان الدين جامداً متحجراً لا يساير التطور الإنساني ولا يصلح إلا للبيئة التي أنزل فيها .

إن لهؤلاء الناس منطقاً علينا أن نلم به . إنهم يرجعون إلى واقع تطور الأديان الأخرى مستشهدين بما أدخله الدين المسيحي من تعديلات « جوهرية » على الدين اليهودي وما أدخله الإسلام على المسيحية سواء بالحذف أو بالإضافة . وأصحاب هذه « النظرية » ليسوا من عامة الناس بل مجموعات من « المثقفين » الذين استمرأوا الحياة في بيئات ومجتمعات « متطورة » عاشوا فيها أو سمعوا من أترابهم وصفاً « لروائع » الحياة فيها إضافة إلى ما أعجبوا به من أمثلة ناطقة عرضتها أشرطة سينمائية أو روجتها مؤلفات كتّاب « متطورين » في المجتمع الإسلامي .

ولقد جُوبهت بمثل هذا المنطق في كثير من المدن الأوربية يتبناه لفيف من المفكرين والمثقفين . لكن هؤلاء كانوا أكثر جرأة من أمثالهم في مجتمعنا . كانوا يجهرون بأنهم إذا ما حكموا على دينهم بعدم صلاحيته في مجتمعهم الحالي بعد عشرين قرناً على ظهوره ، فإن الدين الإسلامي ، وإن كان لا يزال قابلاً للتطبيق في المجتمعات المسلمة التي لا تزال « متخلفة » إلا أنه سيصبح هو الآخر غير ذي قيمة إذا ما سايرت تلك المجتمعات التطور الإنساني العالمي ولحقت بركب « الحضارة » الذي تخلفت عنه حتى الآن !

وسبب هذه النقمة في مجملها راجع إلى عدم قناعة أولئك المثقفين بجرعة الحرية التي يتمتعون بها على أشكالها الحالية . إنهم يريدونها حرية مطلقة متحلّلة من كل التزام ومسؤولية . لماذا لا يمارس الجنس كما يشاء ويحب ؟ لماذا يُدان الشذوذ الجنسي ؟ لماذا يحد من براعته في الكسب والثراء بالوسائل التي يزعم الدين أنها ممنوعة أو محرمة ؟ لماذا يكبل نفسه بمسؤوليات لا وجوب لها ؟ لماذا ينصرف عن المتعة ليناقش أفكاراً باتت سخيفة أو ليتبع أسلوباً لا يسمن ولا يغني من جوع ؟ لماذا يخدع نفسه بمقولة الحشر والحساب وهو الذي لم يشهد دليلاً واحداً على صحة هذا الشيء ؟ ما الذي يغريه في جنة يجد الآن أفضل منها وأكثر ملاءمة لميوله ونزعاته ونساء لن تكون أكثر إغراء وجمالاً ممن حوله ؟ لماذا يسخر من نفسه فيقف خاشعاً أو يركع أمام هيكل يزعمون أنه هيكل الرب ؟ مَنْ مِنَ البشر شاهد الله أو سمع صوته ؟ ألسنا جميعاً نولد ونكبر ونموت ، الأغنياء والفقراء ، الكبار والصغار ، المرضى والأصحاء ، كلنا مائتون ؟! وهذه الأخطاء الصارخة التي يرتكبها الأقوياء ضد الضعفاء ، بل ضد الإنسانية جمعاء ، أين الله منها ؟ لماذا لا يتدخل لإثبات وجوده بمعاقبة مرتكبيها ؟ إن ما يروى عن عقوبات نزلت بأقوام غابرة ليست أكثر من حتمية تاريخية طبيعية لا علاقة لقوة خارجية بها .

إن انهيار الاستعمار الإسباني بعد تدمير أسطول الأرمادا، وانهيار الاستعمار الأنجلو فرنسي وما سيليه كما تقول ــ والحديث موجّه إليّ ــ من انهيار الهيمنة السوفييتية ثم الأمريكية، أمر طبيعي ومنتظر بحكم التغير. لكن الصيف سيبقى صيفاً والنساء نساء والرجال رجالاً وسيبقى العالم إلى ما لا نهاية حافلاً بالجياع والعراة والأميين والمستغِلين والمستغَلين وبالأحياء الذين سيموتون. وقد يتوصل الإنسان إلى الخلود فأي غرابة في هذا؟ لماذا لا نصل إلى خلود محركاتنا، ألا ترى أننا بتنا قادرين على استبدال أعضاء كان استبدالها ضرباً من المستحيل؟

ثورة جامحة وبركان هادر! نار متأججة الأوار، يحترق هذا الصنف من المثقفين فيها. ضياع قادهم إلى التمرد على القيم كلها مادام فرض العدالة الاجتماعية مستحيلاً بعيد المنال.

ولقد فشلت في مناقشة الذين لا أحسن التكلم بلغتهم ولا تجمعني بهم لغة مشتركة. كانوا ينصرفون وهم يهزون أكتافهم شأن من يقول: نحن نرثي لحالك مادمت مصراً على تخلفك! أما الذين كانت تقربني إلى أذهانهم لغة أحسن التعبير بها، فإن نتائج المناقشة كانت تصل بنا إلى مفهوم مشترك.

إن أسباب هذا الضياع العجيب تنحصر في علتين: الوضع الاقتصادي ومفهوم الحرية. وللوضع الاقتصادي أثر كبير في هذا التمرد التلقائي أو التبعي إذا شئنا أن نكون أكثر تحديداً. فالناس في البلاد الإسلامية بين حالين: إما يُسر معقول يحقق كل التطلعات والطموحات التي تقصر الوسائل المتاحة عن تحقيقها، وإما كفاف أو ما يشبه الكفاف الذي يحرمهم من تحقيق ما يرون أنهم يستحقونه كما استحقه الجانب الآخر. والتطلعات التي يهدف معظم أفراد المجتمع المسلم إلى تحقيقها مستمدة صورها من مجتمعات أخرى باتت أقرب إلى الفوضوية منها إلى المجتمعات المنظمة. والإعلام بمختلف وسائله هو العامل الأول في ضياع الشخصية الإسلامية. إنه يدفع بالمتطلعين إلى ابتكار وسائل غير مقبولة في المفهوم الأخلاقي لتحقيق ما يستطيعون تحقيقه منها. لكن الرواسب والخلفيات الدينية لا تزال تبرز بين الحين والحين فتعكر صفوهم وتذكرهم بانحرافهم. لذا كان لزاماً عليهم محو هذه الخلفيات والتخلص من تلك الرواسب بصورة أو بأخرى ليتخلصوا من يقظة الضمير.

والعالم الإسلامي اليوم يعج بالألوف المؤلفة من أصحاب الملايين. وكثير من هؤلاء يعطون أسوأ مثل على أخلاق المسلم وأحط قدوة لبني قومهم، وما أكثر الذين يتابعون أحداث فجورهم وإسرافهم وعربداتهم خارج مجتمعاتهم أو داخلها مع الإمساك والتقتير فيها والامتناع عن مساعدة المحتاجين حتى بات الفجور سبيلاً إلى فرض احترام الذات بدلاً من الأخلاق الحميدة.

لقد شرّع الإسلام أحكاماً ودعا إلى تطبيقها وأوجبها على كل القادرين. لكن الكثرة الكاثرة تتجاهل هذه الأحكام عامدة. لا يكتفي هذا العدد الكبير من القادرين بتقديم إقرارات كاذبة للدولة عن دخولهم وأرباحهم وما يملكون بل يقدمون مثلها للخالق الأعظم الذي يعلم ما يُسرُّون وما يعلنون. ولئن استطاعوا خداع الدولة بتخدير مراقبيها وإفساد الذمم بالهبات والعطايا فهل يقدرون على مثل ذلك مع الخالق العظيم لو كانوا به يؤمنون ؟

ليذكر هؤلاء أن واضع النظام وخالق الخلق قال : ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ **١٣، ١٤ الإسراء**.

ولعل هذا الصنف فهم هذه الآية : إن تقدير النتيجة بعد قراءة الكتاب سيؤخذ وفق قراره الأمر الذي سيمكنه من التغاضي عما جاء فيه. فهو اليوم قادر على أن يخفي ما يعتلج في نفسه وأن يخدع السائلين لقدرته على الكذب وإخفاء الحقيقة ناسياً أنه لن يكون قادراً على مثل ذلك هناك لأنه لن يكون صاحب التصرف بإرادته. ينسى قوله تعالى : ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ **٦٥ يس**، وأنه لا فِعْل دون حركة. إنه الانحلال والتحلل !

والشباب بين المتعصبين الذين ينفرونهم من اتباع أفضل سبيل وبين نظم وصفية تحترم أهل الفجور وتزكيهم وتحيطهم بكل تمجيد واحترام وتبجيل، باتوا لا يعرفون أي سبيل يسلكون.

فلنخرج من هذه الدوامة ولنبحث الأمر بعقولنا لنتبع السبيل الأفضل الذي يؤدي بنا إلى الهدى. وما نفعله عن قناعة خير وأجدى مما يُفرض علينا دون أن نعرف له موجباً.

إن العلة الأساسية هي الوجود. فلقد وجدنا أنفسنا على هذه الأرض ورأينا العوالم من حولنا وعرفنا أنها مكوّنة من مواد أطلقنا عليها أسماء بلغتنا لتعريفها وتمييزها، ثم عدنا إلى أنفسنا باحثين منقبين فوجدنا أن أجهزة الإدراك والتحليل والاستنتاج والفهم وكل ما له علاقة بحركاتنا وتصرفاتنا، أجهزة أودعت بعناية فينا دون أن نعرف مصدرها أي أننا نبني كل قرار واستنتاج وتصرف على أسس نجهل مكوّناتها ونحكم على الأفعال بجهاز تقدير لا نعرف عنه شيئاً.

وهذه الأجهزة التي نعتمد عليها في حياتنا دلتنا على أننا نمتاز عن الموجودات الأخرى التي لا تملك مثلها، وهي التي دلتنا على النظرية القائلة : « لا وجود دون موجِد » وبذلك قررنا وجود الموجد.

ثم رحنا نبحث عن ذلك الموجد فطرحنا عشرات الأسئلة، وظلت كلها دون أجوبة مُرْضية لأن الأجهزة التي تعمل في كياننا والتي نهتدي بقراراتها لم تسعفنا بردود شافية على أسئلتنا تماماً كما يفعل الحاسب الآلي الذي ابتكرناه إذا ما طرحنا عليه سؤالاً ليس مبرمجاً فيه فيكون الرد: لا جواب.

وإزاء هذه العقبة الكأداء، انقسمنا إلى فئتين، الأولى صرفت النظر عن البحث في الموجد واكتفت باستشكاف الموجود ومحاولة فهم أبعاده. والثانية قررت حتمية وجود الموجد بدلالة ما أوجد وإن كانت أجهزتنا المتاحة لا تستطيع أن تجعلنا نعرف كنهه ومكانه وطبيعته فصورته بكلمات لتعرفنا به: فهو الأول والآخر والظاهر والباطن إلى آخر الأسماء والصفات التي عرفتنا بها عليه.

وانقسمت الفئة الأولى إلى قسمين: الأول ينفي وجود موجد زاعماً أن الموجود إنما وُجد بشكل تلقائي، أي أنه موجود بذاته دون داع لجهة توجده. أما الثاني فقد قال بوجود موجد بشكل ملزم لكنه لم يتوقف عند معضلة وجوده لتبسيطها أو تقريبها إلى الأذهان.

أما الفئة الثانية فقد انقسمت إلى عشرات الفرق والشيع اختلفت فيما بينها على مفهوم معين اختلافاً يثير الرثاء والحزن. فإذا كان أفرادها عاجزين عن تحديد طبيعة الموجد وهويته، أليس مضحكاً مبكياً أن يختلفوا فيما بينهم في نقاط تبحث في مجهول؟

لكن بعض هذه الفرق لم تختلف في طبيعة موجد الوجود بل في شرح الأحكام والقوانين التي أنزلها وعممها على مخلوقاته بواسطة من أطلقنا عليهم اسم الأنبياء والرسل. لقد نقل إلينا هؤلاء أحكاماً قنع بها أسلافنا وآمنوا بوجاهتها فجئنا نحن في سياق الوجود ننتسب بالتبعية إليهم. لكن تشابك الثقافات والأفكار والحضارات والمفاهيم الاجتماعية في هذا العصر الذي نعيش فيه خلق في نفوسنا سحابة من الشك والريبة حول ما قيل وما يقال فأردنا أن نبحث الأمر بأنفسنا دون الاعتماد على ما رواه الأسلاف وما فرضوه علينا دون استشارتنا فيه. ولم نجد سبيلاً لإعادة البحث على أسس تقنعنا أفضل من البدء بنقطة الصفر كما اصطلحنا في القول عن البداية.

لكننا بعودتنا إلى هذه النقطة وجدنا أنفسنا أمام النتيجة التي خرج بها أسلافنا منذ ملايين السنين: نحن موجودون بفعل موجد لكننا لا نستطيع الإحاطة بطبيعة ذلك الموجد.

أليس هذا هو الخلاصة الوافية لما نحن فيه؟ لقد عدنا نسأل أولئك الأسلاف بوصفهم أكثر خبرة ودراية منا فجاءت أجوبتهم بين غامضة وزاجرة وقاسية ونابية لا تتقبلها

عقولنا الأمر الذي جعلنا في المتاهة التي نحاول الخروج منها. ألا ترى معي أن السبيل الوحيد للخروج من هذه الدوامة هو العودة إلى ما أنزله الموجد ما دمنا نؤمن بوجوده؟ إن العودة إلى أحكامه التي أصدرها هي الحل الوحيد لهذه المعضلة فإن وجدناها تستحق التطبيق طبقناها واحترمناها وإن كانت مجرد سفسطة وتلفيق كما يحلو لبعضهم أن يصفوها به نبذناها واتخذنا لأنفسنا سبيلاً نتبعه لنلحق بمن سبق وكفانا تصديقاً لما لا طائل تحته مما يعتلج في نفوسنا!

ألا ترى معي أن هذا هو السبيل الوحيد؟ لنقرأ هذا الكتاب الحكيم وفق تسلسل نزول سوره. نحن مسلمون بالتبعية وليس بالإيمان كما سبق القول. ولكن، إذا ما شئنا أن نكون مؤمنين حقاً فإن علينا أن نضع النظام الإسلامي قيد الدراسة والتحليل. وهذا النظام أطلق عليه اسم القرآن. ولا يمكن الأخذ به والعمل بما جاء فيه إلا إذا كانت لنا شخصية مستقلة قائمة بذاتها. أما إذا كنا متأثرين بما تراه شعوب أخرى أنه التطور والتقدم، فإننا لن نصل إلى أي نتيجة.

لنضع القواعد الأساسية التي نقيم عليها وجودنا. هل نريد أن تكون أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا متعة جنسية لنا ولكل من يريد من حولنا؟ هل نريد أن يدخل كلٌّ منا إلى حيث شاء وأن يفعل ما يشاء وأن يأخذ ما يشاء ممن يشاء؟ هل نريد أن يقتل بعضنا بعضاً ليصل الأقوى بيننا إلى فرض هيمنته ورغباته على من يشاء؟ هل نريد أن نكون سادة وأن يكون الضعفاء عبيداً لنا نستخدمهم كيفما نشاء؟ هل نؤمن بأن تقدم الشعوب الأخرى يثبت ضرورة أن نعتبر أفرادها القدوة التي نقتدي بها في سلوكهم وتصرفاتهم؟ هل نعتبر آباءنا وأمهاتنا مجرد أدوات لوجودنا لنا أن نحتقرهم وأن نذلهم ليحتقرنا أبناؤنا القادمون كقاعدة طبيعية للوجود؟

إن لم تكن من هؤلاء، أدعوك إلى قراءة كتابنا بتمعن وستجد فيه الأسس التي يعجز الفكر عن إيجاد خير منها ليقوم المجتمع الفاضل عليها. لقد أراد الخالق العظيم أن يختبر مخلوقاته بطريقة عملية ليختار الأفضل إلى المستوى الأفضل وعليك أن تثق بأنك إذا نجحت في الاختبار فإنك ستنقل إلى عالم أفضل، عالم لن تؤثر طبيعته في تكوينك. واقرأ معي هذه الآية: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبل وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ ٢٥ البقرة. «يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ ٤٨ إبراهيم، أرأيت ما سيكون وأين نكون إذا تقيدنا بتعاليم هذا الخالق العظيم؟ الأمر بيدك تنفيذه ومن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.

السور القرآنية حسب ترتيب نزولها★

١ ــ العلق	٢ ــ القلم	٣ ــ المزمّل	٤ ــ المدثّر
٥ ــ الفاتحة	٦ ــ المسد	٧ ــ التكوير	٨ ــ الأعلى
٩ ــ الليل	١٠ ــ الفجر	١١ ــ الضحى	١٢ ــ الشرح
١٣ ــ العصر	١٤ ــ العاديات	١٥ ــ الكوثر	١٦ ــ التكاثر
١٧ ــ الماعون	١٨ ــ الكافرون	١٩ ــ الفيل	٢٠ ــ الفلق
٢١ ــ الناس	٢٢ ــ الإخلاص	٢٣ ــ النجم	٢٤ ــ عبس
٢٥ ــ القدر	٢٦ ــ الشمس	٢٧ ــ البروج	٢٨ ــ التين
٢٩ ــ قريش	٣٠ ــ القارعة	٣١ ــ القيامة	٣٢ ــ الهمزة
٣٣ ــ المرسلات	٣٤ ــ ق .	٣٥ ــ البلد	٣٦ ــ الطارق
٣٧ ــ القمر	٣٨ ــ ص .	٣٩ ــ الأعراف	٤٠ ــ الجن
٤١ ــ يس	٤٢ ــ الفرقان	٤٣ ــ فاطر	٤٤ ــ مريم
٤٥ ــ طه	٤٦ ــ الواقعة	٤٧ ــ الشعراء	٤٨ ــ النمل
٤٩ ــ القصص	٥٠ ــ الإسراء	٥١ ــ يونس	٥٢ ــ هود
٥٣ ــ يوسف	٥٤ ــ الحجر	٥٥ ــ الأنعام	٥٦ ــ الصافات
٥٧ ــ لقمان	٥٨ ــ سبأ	٥٩ ــ الزمر	٦٠ ــ غافر
٦١ ــ فصلت	٦٢ ــ الشورى	٦٣ ــ الزخرف	٦٤ ــ الدخان
٦٥ ــ الجاثية	٦٦ ــ الأحقاف	٦٧ ــ الذاريات	٦٨ ــ الغاشية
٦٩ ــ الكهف	٧٠ ــ النحل	٧١ ــ نوح	٧٢ ــ إبراهيم
٧٣ ــ الأنبياء	٧٤ ــ المؤمنون	٧٥ ــ السجدة	٧٦ ــ الطور
٧٧ ــ الملك	٧٨ ــ الحاقة	٧٩ ــ المعارج	٨٠ ــ النبأ
٨١ ــ النازعات	٨٢ ــ الانفطار	٨٣ ــ الانشقاق	٨٤ ــ الروم
٨٥ ــ العنكبوت	٨٦ ــ المطففين	٨٧ ــ البقرة	٨٨ ــ الأنفال
٨٩ ــ آل عمران	٩٠ ــ الأحزاب	٩١ ــ الممتحنة	٩٢ ــ النساء
٩٣ ــ الزلزلة	٩٤ ــ الحديد	٩٥ ــ محمد	٩٦ ــ الرعد
٩٧ ــ الرحمن	٩٨ ــ الإنسان	٩٩ ــ الطلاق	١٠٠ ــ البينة
١٠١ ــ الحشر	١٠٢ ــ النور	١٠٣ ــ الحج	١٠٤ ــ المنافقون
١٠٥ ــ المجادلة	١٠٦ ــ الحجرات	١٠٧ ــ التحريم	١٠٨ ــ التغابن
١٠٩ ــ الصف	١١٠ ــ الجمعة	١١١ ــ الفتح	١١٢ ــ المائدة
١١٣ ــ التوبة	١١٤ ــ النصر		

★ السور المكية من ١ ــ ٨٦ والسور المدنية من ٨٧ ــ ١١٤ .

ملاحظة:

أما عن إبليس وتمرده على أمر الخالق وقول إبليس في آيات بأن الله سبحانه قد أغواه ليفعل ما فعل وما ألحق ذلك التمرد على الإنسان من آثار كان يمكن أن يُعفى منها لو لم يتقصر حكم الله على طرده من الملأ الأعلى، فهذا الموضوع سنبحثه مفصلاً في لقاءاتنا المقبلة. إن شاء الله.

أعمال المؤلف المترجمة

١ ـ الجريمة والعقاب.

٢ ـ الساعة الخامسة والعشرون.

٣ ـ الحرب والسلام.

٤ ـ المدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية.

٥ ـ التلفاز الملون.

٦ ـ تاريخ حياتي ـ جاك كازانوفا (أربعة عشر جزءاً).

تحت الطبع

ـ اختلاف الصيغ في القرآن.

ـ الحياة خلال قرن.

ـ العلم والدين: تمرد في السماء.

العلـم والديـن

نبيٌّ أم دعيّ

«حوار طويل مع مستشرق»

Science and Religion

Prophet or Impostor

٢٠٠٠

هــذا الكتـاب

القبلية أولاً ثم الزعامـة، عـاملان دمـرا وحـدة المسلمين وشـوها صورة دينهم فهبطوا من قمة المثالية إلى حضيض التبعيـة وظلـوا قرونـاً طويلـة يتنـابذون ويتنـاحرون ويقتتلـون حتـى جاء العصـر الذي تحولـوا فيـه إلـى شـعوب يسـخرها الغـرب «المتحضر» لترسيخ هيمنته وسلطانه.

ولما كـان دينهم العامل الرئيسي الذي يحقق وحدتهم ويلـم شـملهم، فـإن القضـاء علـى هـذا الدين بات السبيل الوحيد الذي يبقيهم في دياجير التخلف الحضاري.

وفـي هـذا الكتـاب بيـان موجـز لواقعـة مثيرة وتمهيد للوسيلة الوحيـدة التـي إذا تبناهـا المسلمون أعادهم دينهم إلى القمة التي جلوا عنهـا فباتوا صاغرين.

